الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث عشر

دمشق

١٩٩٥ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

ـ من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ـ للعماد الاصفهاني

- ٥٧٨٤ -

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سـلف لنا التعـرف الى بعض المؤرخين المسـلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبـار الصراع مع هؤلاء الغزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تـولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صـاحب النيل على تـاريخه ، وكان العماد الاصفهاني ـ وفيما بعد ابن شـداد ـ قـد شـارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فـائق الاهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الأهمية بددتها صنعة الكلام التـي ابتلي بها العماد أكثر من سواه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بـن حـامد الاصـفهاني ، ولد في أصفهان سنة٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومـات بـدمشق سـنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١م ، وهو بعمره المديد كان شاهد القرن السـادس للهجـرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من اسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منهـا بـالادارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العمـاد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الاولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الادارية ، وتمتـع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفجعة أنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعدة شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيأ له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثر هذا بامد وجيز استخدمه صلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشارات مفصلة للعماد وللادوار التي تولاها ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العماد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم ــ بحكم كونه اتقن نظم الشعر ــ بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وذيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ ــ كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسلاطين السلاجقة ووزرائهم وأعيان دولهم ورجالاتهم ، وبنى أصل هذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بن خالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » ، ونظرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قام الفتح البنداري في العصر الايوبي بتهذيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبوع في ايدي الناس ، هذبه البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ ــ كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي الذي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العماد استهدف من تصنيفه التأريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او أخر في كتابه .

٣ ــ « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعل هذا الكتاب في سبعة اجزاء ، ارخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ حتى وفاة صلاح الدين ، اي ارخ فيه الدولتين النورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابو شامة في كتابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بـاكمله ، بـل وصـل الينا مـن أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جـل المتبقـي مـن الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسـها والمكان نفسـه ، وذلك اعتمـادا على المخـطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في اكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العـامة بـالرباط ، وهـي مصـورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السـوسي ، ولانعـرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هـذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغتـه ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقـة جـدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص اكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة للصـفحات : ١٧٠ ــ ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمـان فـوجدت فيهـا / ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مـع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابـن واصـل هـذه المصـاعب فاقتصرا بالنقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهذب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجـديد المهذب « سنا البرق الشامي » وسلف للباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة مـن هـذا الكتاب فنشر الجزء الأول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبـل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فوائد تذكر في تحقيق الموجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارىء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتداده بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء - ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها واودعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ماكتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نفقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب الذيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقارىء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان - ١٩٩٥ .

من

كتاب البرق الشامي

للعماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت بـه في بحـار الانعـام بالاخلاص والحمد القلوب والألسنة ، والزمان التـي تقضـت على انتظار احسـانه الازمنة ، والعصر الذي أحسـنت بـه الأمـة المؤمنة ، وظهـر فيه المكان المقـدس الذي سـلمت لسـلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة ، وتمكنت من رقـاب أعداء الله بـه الاسـنة بـأيدي أوليائه المتملكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السـنة نزل نص النصر ، وكفـت كف الكفـر ، وعلت اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهـم ايدي الأيد بالفتك ، وضاقت بهم رحاب الملك ، وطمـت للدين بـالسواحل بحـار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخـذلت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الأسرة تحـت الرق ، وطـالت ألوية الأولياء ، وسـالت أودية الاوداء ، ونال الاحمـاء فضـل رب السـماء ، وتجلت مـذاهب النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب مـن الخبيث ، وانتقـم التـوحيد مـن التثليث ، ودنت للدين اعانة المعين ، واغاثـة المغيث ، وشـاع في الدنيا بمحـاسن الأيام الصـلاحية حسـن الأحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثـروه في البـلاء مـن التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التـي فجـأتهم فعمتهـم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلي وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحـود وأقـر مـن دأبـه

الانكار ، وملكت من معاقل الكفر على مـــن بـاض فيهـــا وفـــرخ الأوكار ، واعترى ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحـــات في هـــذا العـــام عشي ايامـــه والابكار ، وكانوا كما قال الله تعـالى :« وتـرى الناس سـكارى وماهم بسكارى » فبالله ذلك العـذاب الشـديد والاسـكار ، وقـد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحـوال ، ووسـعت ووشعت الأقـوال ، وحليت الفتـوح ، وامليت الشروح ، واهـديت المذوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام باحياء ذكرها الروح

وانا أورد في هذا الكتاب ممـا أوردتـه جملتـه الجميلة وجـلالته الجليلة ، وحالته الحـــالية ، وقيمتـــه الغـــالية ، وفضـــيلته الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مبـــاركة ومـــكرمة مـــن لطـف الله متداركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغـرائب بالرغائب وقرب جنحية الأقارب والأقـاصي . . . ... مـظهرات مكرماته والجوهـــم على عادات علاء عداتـــه (١)٠ ... وســمات حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الأسـعاد ، وأمـد ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من الأطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصـاد في القصد من التفريط والافراط ، وبرز من دمشـق يوم السـبت أول محرم في العسكر العرمرم ، والعزم المصمم للفرض المحتـم والرعب الى العدو والباس المقدم ، ومضى بـأهل الجنة بـالجهاد الى أهـل جهنم ، فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها مذبع نحو الهيجـاء ومضمار خيل الاجراء ومثـار العجـاج المكرر على نهـار الروع ليل

الظلماء ، وجعلهـــا مـــطلع فلق فيالقـــة ، ومحيط مضـــارب سرادقة ، ومجال رواعده على بـوارقه ، ومجـر ســوابغه مجـرى سوابقة ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقائقة ، ومحشر معاشرة ، ومربض آســاده وقســاوره ، ومخيم جيوشــه ومجثـم عساكره ، وأمر ولده الملك الافضـــل نور الدين عليا بـالاقامة هناك ليستدني اليه الأمــراء الواصـــلين والامـــلاك ، ويجمــــع الأعراب والاعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣) فرط الاستدراك ولايفارق لما يلزمــــه الاحـــــاطة بعمله الادراك ، ويضـــــم لمجمــــع الاجناد الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الأوقـات ، وســار الســلطان الى بصرى ، وخيم على قصر الســلامة ، وقـــد اســــتقبل مــــن الله الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه للهدنة • واعتمــاده من قطع الطريق واخافة السبيل كل مافي المكنة • وهـــو على طــريق العسكر المصري والحــــاج • شـــــديد الالتجـــاج • وفي بحـــر اللجاج • وكان في الحج حسام الدين محمـــد بـــن عمـــر بـــن لاجين • ووالدته اخت الســـلطان مـــع جملة مــــن الخـــواص المقربين ، وأقــام الى تلقـي الحجيج • واســتقبل محيا لقـــائهم البهيج • وريا رؤاهـــم الأريج • وخـــلا مـــن منعلم سره • وتجلى لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صــفر • ووجـــه صــباحته لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فـرغ بــاله • جـم الى الكرك استقلاله • وتقدم بمن معه من العســاكر حتــى نزل على حصــنها نزول الحـــاص الحـــاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبــرق • ونوقــــد ونحرق • ونرمق ونومـــق ، ونهـــرق ونزمـــــق ، ونفـــــرب ونشرق ، ونضايق ونضـــيق ، ونجمـــع البــــلاء على تلك البـــلاد ونمزق ، حتى اجتثت اصـــولها وفــروعها ، واســتأصل كرومهــا

وزروعها ، وقطع ماوجده من لينة ، وأذهب ماراقه من زينة ، وفرى وقرى وفصم العـرى ، وابسـط الذرى ، وهجـم على ظهـر الثرى ، وحلب حر النجح هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد باشارة رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر المصري متصل المدد ، محتفل العـدد والعـدد متضـح الجـد والجدد ، ومضطرم للهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهـج الجمع ، آخذة بـوارقه ورواعده ، بـالبصر والسـمع ، فقـوي الاستظهار واستظهرت القوى ، وساقت وراقـت مـزاينه المجلوبـة ومحـاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحـالة الحـالية والجـلالة الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودهـا بالنصر الأكمل والغنم الأجزل .

أما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه من كل فج عميق وضاق بـوفودهم الفضـاء ، وفـاض بـوفورهم القضاء ، واجتمع من دجـى عثيرهـم ومشى بذورهـم الظـلام والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحـاب من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحـافل من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاماهم على حينه ، فرأى الملك الأفضل ان يشـغلهم بغـزوة يعـودون منهـا بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس والشدة والمراس ، ورتب علي خيل الجزيرة ومن جـاء مـن الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق ° وهو الذي بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق ° وعلى عسكر دمشـق وبلادها صارم الدين قايماز ° وهو يفوق عضاء مضاربه الصـارم

الهرماز والعضب الجراز • فأسرجوا الخيل • وأدلجوا الليل . وجروا من السابريات النيل • وأجروا من الأعوجيات السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخر صفر • وصباح النصر قد افتغر • فخرج اليهم الفرنج في حشود جهنم وريوديلملم • وجنود ابليس واسود تحمي العريس.
وسراحين على سراحيب • وأهاضيب تتحلحل أهاضيب • وتعتقل انابيب وتشتمل شآبيب • في الداوية بأدواتها • والاسبتار بأسوائها • والبارونية بلأوائها • والتركبولية وأرديائها • والفرنجية بضرضائها • ووثبوا في وثبات الآساد • وحملوا في ثبات الأجواد • فلولا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهدى أهل هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسلام لايعتز بالأجر • لكن أمرائه الكرام استطابوا الحمام • فلاقوهم بقلوب الصخور • وحبور الصقور • وباشروا بصدورهم صدور الأسنة • وغامروا بنحورهم نحور الأعنة ، فآتاهم الله النصر المني ، والظفر السني ، وسقوا منهم حنين الحنايا • وأدركوا فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحازوا وانتصروا • وقتلوا وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقد كبسوا وكسبوا • وسحبوا نيول الاختيال بصدق ماحسبوا •وكانت تلك النوبة الحلوة • والخطوة الصفوة • باكوره البركات • ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات • واندرج ان الله يعلي لأوليائه الدرجات • ويسوق زمر اعدائه الى الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك ندور ونجول • ونجور ونذور وعلى الأعداء منا الدحور والثبور • فلما قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللباث وعقدنا عزم الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعاث .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بـــالعساكر ، وانتـــظم عمـــــل الأوائل والأواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقـــدر يقـــول للســـلطان تعيش وترى ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشـــتمل المعســكر على فراسخ عرضا وطولا ، وملأ بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا خيل صفون رحض كأنهـــا حصـــون ، وزعف مـــوضون ، وعضـــب مســـنون ، وفيض مـــكنون ، وحـــركة وســـكون ، وركوب وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحـــر مـــن العســـكر في البـــر مشـــحون، وضـــاقت الأيام عن عرضـــها ، وتقـــاضت الليالي بقـــرضها ، ونزلت جنود ســـمائها الى جنود ارضـــها ، فللمقـــانب مناقب، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكتائب من الشـــجعان مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصـــائب ، وللريح سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللســـلاهب جنائب .وللحقائق حقائب، وللمواهب مـــذاهب ، وفي كل يوم انفـــاق وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتـــلاء واعتـــلاق ، واعتناء واعتناق ، واجتمـــاع لاافتـــراق ، وانطـــلاق واندلاق ، وامتـــراء وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفـــاق مـــن ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمر وعتاق ، وسمر ودقـــاق ، وبيض رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجود دهاق ، وعرض العســـكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشـــتمل على عدة جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بهـــا الرياح ، ورمـــاح شـــيلها المراح ، ورواسي ســـواري ، وأعلام جواري ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمـــام ، وضـــارب بضرام وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحـــاسم بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأســـد فـــارس ، وللروع ممار ممارس ، وللصبح بما يثيره حابس ، وبـــاشر بـــالكريهة غير عابس ، قادح لسنا السنابك قابس ، مناف لعداة الاســـلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله مظاهر ، ولمعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، وللفتخ الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجد حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع ° والتهب الجمر . واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت الضمر . وبرقت البيض والسمر . وردت بالردى العداة الزرق المنايا الحمر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنضرة ثمر النصرة أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغر الأيام الغبر . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر. واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحديده وحدته . وبيضه ومجره ولجبه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها . والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال . وعين الجاليشية من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير موضعه . ولكل منير مطلعه . ولكل اسل مركزه ولكل سحبل منهزه . ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم موكبه . وقرر مظانهن في الركوب والنزول والثبوت والحلول . ومعارج الصفوف . ومدارج الزحوف . ومناهج الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الالوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر . والأسد القساور . والفتخ الكواسر . والقضب البواتر . والفلك المواخر • والسحب المواطر • والسحم الدياجر • والحمس الزوائر • والغر السوافر • والبيض الزواهر • والسمر الشواجر • والبيض المغافر • والقوم المعاشر • والباد والحاضر • والخف والحافر • والصلب والمساجر • والأكارم والأكابر • والساعي والسائر • والعالي والفاخر في عاديات سفره . رعن الرعن لعاديات كفره . حزن الحزن وهي . مفاوير هدى . دان لها التقدير الخمائر عدى . دنا منها التدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتذقيبها محشورة عصائبها منشورة ذوائبها . سائلة أوديتها . جائلة ارضها . فهي تخرق الخرق . وتغرق الغرق على الفرق . تملأ الوهاد بهوائها . وتكلأ من العوادي بعواديها . وأناخت ليلة السبت على خسفين والكفر مخسوف . والشرك مكسوف . وكل جبل بلجبها منسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللاقدام في لج الاقدام رسوب ورسوف . واللدين في فضله وعدله والكفر عسوف . وباتت تلك الليلة والرماح مركوزه والصفاح مهزوزة . وللمقربات تصال . وللمضروبات صقال . وللمنسوجات اجراء . وللشريجيات اغراء . وللعوج رنان . وللأعوجيات رهان . وللقساطل اقساط . وللصواهل أصوات . وللسلامة امراط . وللاستقامة صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسنة اقراط . ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط . وللقيام اشتراط . وللقتاد اختراط ، وللعسكر بساط . وللعثير اضباط ، وللهمم اعباط . وللدهم ارتباط . وللبهم اختباط . وللأمم احتياط . وللعزم نشاط . وللحزم يشاط . وللغماغم اختلاط . وللصوارم اشتطاط . وللنجم مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في الارتجاج والجو في الارتياج . والدو في الامتزاج . وقلب الكفر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس الترائك لامعة في الأبراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سابحة في غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفة على الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيوش يخامر الدهر شاج . وذقود الرواحل من عقود الرواغب في رواج . والشوارع نازعة لالجاء واسراء من الجام واسراج . ونزلوا بثغر الاقحوانة حروض راء . وعقد غير واء . وعزم غير باء . وعز متباء ، وسعد متناء . وحكم أمر ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء الفضاء مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت الاقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر الانتقام . وحمي للتحزب الحمام . وشد للتخرم الحزام . وأقام الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف اكفاء الكفاح مراح الرماح . وتصافح الصفاح . وعرف كيف ركوب الجبال للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة ايام الى يوم الخميس . في ذلك الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قواعد التأسيس . وأساة المضايق بالتنفيس . وحماة الحقائق في طوري الايحاش والتأنيس . وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك بدار الدربيس . واقتداح زناد الأفراح . وانهاض جناح النجاح . الى ارداء اهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون اللقاء . وهل يفترق الأحباب . وقد اجتمع الأعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للاقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عداة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التغاير والتنافس الى التضافر والتوازن . وقالوا :نحن انصار النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب العصبية . وعمدة المعمودية . وداروا بدر افاويق الوفاق . ونزعوا الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا على مراده مطلع امانيه بالمخلص. ثم تزاوروا وتوازروا. وتضافروا وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا واشلأموا . وتذمروا وتذمموا . وتخطوا وتورطوا . واخترموا واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب الصلبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار باللجب الجرار . وار يفلح الأوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع اسرار . غمر من الأغمار . وكل مغو مغوار . وباد بادبار . وناز بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس ، وفارس للأساد فراس ، وداوي داء خبيثه عضال ، واسبثاري له دون تباره نضال . وباروني يبارى البوار . وتركبولي لا يترك الغوار ، وينزع النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز أفعوانا . وكل شيطان يجر لهتخ ماء الأرواح أشطانا . وكل متميز في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكعوب القنا متوقح . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يفض

الجمع الجم كأنه حمر الفضا . مقتحم الطبيعة النارية شواظ لظى . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري بصرامة . وناري يافح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف الشر ممازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم جار . عاس على العجم جاس في الهجم . خاس في الرجم . قاف اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على النشر والطي . حاف في الزعف راد بالزحف . ساق بالحتف .ناصب بالفعل جازم بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم مجترح محترف الموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ملثم القطوب ملتفح مصطلم لاثلم الخطوب مصطلح ، وكل ذي فضفاض وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثعلب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب جارح ، وزرق تمتش بزرق الأسنة ، وشقر تعبي الشقر بصرف الأعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشرك عظائم رئبال ، وامعط مغتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام الوغى ، وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج المنايا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى النقع بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة الوقع ، واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق • وأسمعوا الصواعق • وقربوا السوابق • وأبعدوا الخوانق • وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كما سلات النحل مسدساتها بالأبر ، وطال الشر وطار الشرار ، وشق الأمر ، وسقت المرار ، واخضرت الغبراء من الحديد ، واغبرت الخضراء من الصعيد ، وساحت السيول ، وسالت الشعاب ، وتفايضت البحار ، وتضايقت الرحاب ، وتموج بضراغمة الغاب ، وأرعبت ايماض البروق واصعاد الرعود ، فالكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختام القتام بالفضاء في فض ، وغدران الغران في فيض ، والنجوم في انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاض ، والعوامل في ارتعاض ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

ومازال السلطان لله مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه مستشيرا ، فأشار الأمراء ذووا الآراء بالصدود عن اللقاء والمحافظة على نضار الاسلام بصون الذماء وحقن الدماء وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاققة الحزم في الرقم ، ومابلغ الأملاك قبلك الا مابلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد ماأرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تغركم تنقال المعركة ، ولاتلق بأيديهم الى التهلكة، وهذه بلادهم قد خلت منهم، ونأت بقربهم ضياعهم ، فنشتغل بالاغارة على بلادهم الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، ونرجع بالغنائم والسبايا والمرباع والصفايا ، ومانزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد البلايا ، ونخلص من انسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقـال السـلطان : ان الأيام غير مـأمونة ، والأعمـار غير مضمونة ، والجهاد فـرض فـرضه رسـول الله في أرضـه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضه ، ولابد من هذا اللقـاء أمـا وإمـا وإن الله اصـدق القـائلين :« ولينصرن الله مـن ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فانا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سـار الخميس • وزحـف بـأسده العريس.وطابت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السـوابق على الأردن أرديان الوديان في الاجـراء.وا عتضـدت أمـلاك الأرض بمـلائكة السـماء • ولوت أولياء الله على العـدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقـداء • وحـارت غزالة الفلق من أسد الفيلق• وتقيد عنان الجو مـن عنان الجـواد • ولاح سنا الموت الأحمـر في السـنان الأزرق • وأشرف على الفـرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • ومـاج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر.وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسـمر • ووقـف مـع المثير المعشر • وحـال المغيث وهـال المحضر • وهـاب المنظـر والمخبر • وظهر الحق وحـق المظهـر • وارتفعـت الأصـوات بقول :« الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا ومـاذبضوا • وقعـدوا ومـا نهضـوا وأخلدوا الى الأرض • وشـدوا نواجـذ العض • ولم يدعوا مـرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتـوا ونبتـوا ، وسـكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز مـن الخـطر • وفي الخـروج مـن الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر .

فلما عرف السلطان أنهم لايبـرحون • ومـن قـرب صـفورية لاينزحون وأنهم لايهيجون الى الهياج • ولايخـوضون معـه بحـر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذمـوا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العبسية على مدينة طبرية • وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن من قتالهم • ويجهد في استئصالهم • فحضر طبرية وحصرها • وابتدأ بها وابتدرها وجمع الرجال على أحد أبراجها وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزع عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالم الاسلام • ودخلوها في جنح الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدودة من الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان واهراء غلال • فاحترقت أمتعة بأموال • وكبسوا رباعا وكسبوا متاعا • وأرهجوا وأوهجوا مرضا وضرما • وأحرجوا وأخرجوا نعما ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع الى ازدراد ماتحويها فاغرة • وتحصنت القومصية ست طبرية في قلعتها • ومعها بنوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهم ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصلبوا وصلبوا • وتعصبوا وتصعبوا • وثاروا وفاروا • ورازوا وزأروا • وجاءوا واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مدجين • وفي بحر اللام ملججين مدججين • والى حزب التوحيد بحزب التثليث مخرجين • ومن كل جبل تحرقه الريح • ومشيح شعاره المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيح ، ونصب الى الموت يستريح • ومشتاق الى ملاقاة المذون قد حثه التبريح • ومخرج الى التورط في الردى من هول ماهوله يصيح • ومرتجج يؤنسه المارق اللجج • ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطل مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي أنجـــز وعده • وأيد جنده وأدنا مـــن مــــرادنا القطاف • وأصفى من مـرامنا النطـاف • وأسـنى لنا الالطـاف ونهض بجباله الى جبـالهم • وبـرجاله الى رجـالهم • وسـار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقـدام قدامهم • ووقف بصفوفه امـامهم • وصد طـرقهم • وسـد فلقهم • ورد عن الزحـف فيلقهـم • وأغرى غرامهـم • وأضرى ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما الغيظ منهم غيض وقد وقد الحر ، واسـتشرى الشر • ووقـع الكر والفر • وللأوار تأجج • وللارام توهج ، وللعدى شـغل • والردى شغل • والسـعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شـايط غرار • ومالآل الشـيطان قـرار • والسراب طـافح • والظمـأ لاقح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من اللهـب لهث • وبـالعيث عبـث ، وفي ظنهـم أنهـم يردون الماء • ويردون الدماء • ،فحـلأتهم الحـالة الحـالية • وغالتهـم الغلة الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها • وذلك يوم الجمعـة بجمـوع أهلهـا المجتمعـة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قـطعت على الفرنج طـريق الورود • وبلوا مـن العـطش بـالنار « ذات الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضـابرين ، فـكلبوا على ضراوتهم • وشربوا مافي اداوتهم • وشفهوا مـاحولهم مـن موارد المصانع • واستنزفوا حتى مـاء المدامـع • وأشرفـوا على المصير الى المصارع • ودخل الليل وسكن السـيل • وبـاتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقـت ظنونهـم • ولم يبـق بهـم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفسـهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا من ماء الفرند • واكتفوا بمـاء جـداول الأغمـاد مـن الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد التقاضي • ونذبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء الأرواح نجاح النجاح،وشدوا حزم الانتخاء • وأعدوا حرم الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجترأت • ومن كل مايعوقها برئت • وهذا اسنانه شاحذ • وهذا شهم موفق • وهذا لحده ممه • وهذا لحده منه • وهذا اسهمه مفوق • وهذا شهم موفق • وهذا مكثر التكبير • ومنتظر التبكير • وهذا مجر ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز المناجز • والمحاجز للحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج للسعادة • فياله تلك من ليلة حرا سها الملائكة،ومن سحرة انعامها ألطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديع • ومن ظلام مملّه بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره مغفور • ومن ديجور مابعده لاشراق سنا النصر ديجور • ومن ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الحور • وقد قابل بها فيها ظلمة الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر يفوح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم :« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والاسنة مفروضة والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين متقاضي بالشفا عليلة • راع رياض الرضا رعيله • والله ناصر الاسلام ومديله .

ذكر النشاب ووصفه .

وسهرالسلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كل طلب بأسماء رجالها • وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات نصالها • وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل • فتنزل نص النصر منها على كل نصل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقي يأخذ منها من خلت جعابة • وفرغ نشابه من تفالق تفتح من باب الجنة المغالق • وتواضيح تخرق المضاعف النسيج• وناوكات ذوات نكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبأ لكل تبل • ونشاب في الأحداق ذي انشاب • وجروخ الجروح • وخروج الروح • وسهام الأشهر سهام الحمام وتنفير اقرانها .... الثعام .ونصل وصالها تقطع اوصال نافق بكل حمس صال.ومطالق نطاق بها سراح الارواح . ومعابل تكثر منها صعاب الجراح . ومهرقات موفقات مسدات ...الحارق...(٥) المبردات وصائبات الى المقل صابيات . وذواجز تعيد السباع قنافذ .وتجعل النجيع مناجع . وللمذون منافذ . وبوارق تمزق اهب المارق . وتطقم وتنتقم من المارد المارق . ومريشات اوكارها الحدق . وأوكائها الحلق . وفاصلات ناضحات اربية الردى . وناحلات فاضحات اوردة العدى . وقاضبات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات خروق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات راشفات شفاء المقاتل . وقائفات قانعات منذفار المناصل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعيات داعيات للاجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات الذكاية . ومضميات مصممات الفتك . ومدميات مديمات البتك .وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على الأسرار . هاتكات للذماء . سافكات الدماء . مثريات للثرى . مفريات للفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب الجراد. واريات وري الزناد . طائرات من الأكناد الى الأكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهفيف . خارجات من

طلوع الحنايا الى احناء الضـــلوع.مـــارجات لدى الروع الراد الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القـلاع . بـالغات الشعور . عالقات بالتامور . محاقات للحور . غاربات الغروب في النحـــور . ورادات الصـــدور الى الصـــدور . قـــاطعات للحجاب . واقعات بـالعذاب . مـدمجات على الالتهـاب. مغنيات بالدماء على الطعـــان والضراب . ومـــرا سيل تـــروى امـــام العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدى به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضــه مـن العين في الســواد ومعتدل تحذو له العـــوج .وبـــرق خـــاطف تحمس وراءهـــا المهوج . ومنزع لنزع المهـــج وقـــطع الود ٠ اخـــطف مـــن الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى مـن الحريض . واشبى من الطرف الغضـيض . وأعمـل مـن الســمر والبيض . والســلطان يأمـــر . والحنايا تــــوتر . والمنايا تـــؤثر . والأعنة تصرف . والأســـنة تـــرهف . والحقـــائب تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشـمر . والجـاووشـية تنصر . والســـوابق تضـــمر . والســـوابغ تذشر. والصـــلادم تنضى . والصـــوارم تنتضى . والســـلاهب تجمـــــع . والجنائب تمرح . وأيم الضراء تنساب . وغيم الغمـاء تنجـاب . والذفـوس مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن اللعب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حـطين وهـو يوم الســبت الخــامس والعشرون من شهر ربيع الآخر .

واصــبح الجيش على تعبيتــه . والنصر على تلبيتــه . ووقـف العسكر في قلبه وجناحيه وميمنتــه وميسرتــه أطــلابا متقــاربة متباعدة . وأنجادا متعاهدة متساعدة و آلافا متضافرة . وأضعافا متضاعفة متظاهرة . وبـرز رجـال الجـــاليش . وارتجـــز دعاء

التحريض والتحـــريش . وصـــفا لبـــاس الناس على الكمـــي الكميش . وشرعت ثعـــالب الشرع في رعي الحشــــاشات رعي الحشيش . وتطاير في الجو على سـنابك الهمـام جـراد النصــل المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجـب الأرواح للتقييش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرعت اعنة عتاقها . واشرعت اســنة دقـــاقها . وأطـــالت رقـــاب رقـــاقها . وأبـــانت غايات ســـياقها . وأعلت رياحـــات احتفـــالها . وأحلت مـــذاق مـــذاقها . وأغلت أوســـاق أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت ظـــلال رواقهـــا . ودارت كؤوس اصـــطباحها للاعتبـــاط باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فـرق مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفـرنج راكبـة الجـرد . متـراكبة المدد . متكاثفة العدد . آخذة طـريق البحيرة.بـطوارق الحيرة. قـد احاط رجلها بخيلها . جـارية الى القـرار بسـيلها . أمـــواجها ملتطمة . وأفواجها مزدحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبـة ملتهمة . ودفعها مديد . ووقعها شديد . وحـدها حـديد . وجـدها جـديد . يأمذون المذون . ويجذون الجذون . ويجـرون الشـمول والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهـم صـدنا . وردت سـيولهم بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبـالنا . وشـوتهم بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا ســلوك نهـج الموت . وأنه لا مـــطمع في البقـــاء الا بـــاستحلاء مـــطعم الفوت . والسلطان قد رفق قلبــه . ووقـف الى الوثـوق بنصر الله قلبه . وهـو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضـهم على حظهم من الفتوح او الحتوف . ويعدهـم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين يالألوف . وهـم بمشاهدته اياهـم يجيدون ويجدون . ويصدون العـدو ويردون . وكان له مملوك اسمه منكورس من اقمـار الفلك . ومـن شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قـد علقته الحور العين لحسنه.واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القيول في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الاتـراب يشـتقنه في جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والدور الحسان . وكان ظريفا طريفا . نظيفا عفيفا . طاهر الذيل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق ° وركب عنقه في الرق ° وألهمه نصرة الحق ° وهو راكب امام العسكر . شائم غمام العثير . ناشق عرف الكوثر مستعفر تحت المغفر° مستنير في سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق في الأقدام .فوثب بحصانه وثوب الضرغام . معتقلا الى الردى ردينيا . ومشتملا للترف مشرفيا . وممتطيا للاستقامة اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها ميدانه . وشكر لها احسانه . وذكل عنها اقرانه . وذفذ طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجذبه لقوة رأسه حصانه . وخلا خلانه . وخانه اخوانه . فلما رآه الفرنج وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفوا عليه . وزحفوا اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مكانه . فأثبت في مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسه ظنوا انه احد اولاد السلطان . وزعموا ظهور الكفر على الأيمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جوار الرحمن في غرفات الغفران . وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصت الله في ارداء اعدائه بنيتها . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي اهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوافحها . وتقدحهم بقوادحها . وتسقيهم بجداول مناصلها . وترميهم بجنادل صواهلها . وترديهم بأردية رداها . وتغريهم بما يفرون من المذون عن مناها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمور من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرح بالفرنج العطش . وأبت عثرتها تنتعش . ولاذت تتشور وتتشوش . وتتحرى وتتحرش . وتتوشح بالضراء والضراب وتتوحش . وتنشط على أنها تبطش . فتجد الطرق مصدودة . والسبل مسدودة . والمسالك محدودة والمهالك موروده . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فرمى

بعض مـــطوعة المجـــاهدين النار في الحشـــــيش . فتـــأجج استعارها . وتوهج أوارها . فبلوا وهم اهل التثليث من نار الدنيا بـالثلاثة الاقسـام : في الاصـطلاء والاصــطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصـــوا مـــن ورطـــة الاحتـــواء والاجترام . وضايقت ذمائهم دماء الضراغم . وعارضـت صـقور بأستهم القشاعم . ولقيت العـظائم العـظائم . ودارت بمسـاعير الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بهـا وأزعجوا . وهاجوا وأوهجـوا . ومـــاجوا ومـــوجوا وأجـــوا وأججوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسـينا الرواسـخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . واراه غيه انه متـورط في غيايته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السـقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واوهـت اصلابها صلبانهم . فافكر القـومص كيف ينجـو ويتخلص . فقـال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصـلهم مـن الجملة . فـاجتمع هــو ومواززوه . وجملة من المقدمين هم مضـافروه . وصـحبه صـاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتـوامروا على انهـم يحملون ويلغـون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بنفوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفـوا ان القـومص اخـذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهنوا وهانوا ثـم اشـتدوا ومـا لاذوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرذمـة هــم شر ذمـة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واسـتقبلوا واسـتقتلوا . واسـتلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجـا . ولا اصـابوا لمن جـاء لمصـابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيهـا غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغـدر . بـل طـاعة القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفـاء . وصـببنا مـــاء الحـــديد

للاطفاء . فزاد في الاذكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام . وازللنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلأ الكلا . واكتست عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . فالهب عليهم يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيظ . ومنابع الكفر تفيض . وملاحم الاسلام تغيظ . والنفوس تقع . والرؤوس تطير . والقضب تدير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراجل الراجل والفارس تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورست منا الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى بطون النمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب والذئاب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك . وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه . وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كماته وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملأهم جهنم . وملك عليهم الصليب الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب سليبا . ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون وللوثوب يخفون . وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون . ويردون وهم لايدرون . ويعقلون وهم لايعقلون . وقرم بقوي القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلها . واونه بالبري يعــرها . ومــرة بــالسبي يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهــم وابرنسهم . فتم اسر الملك . وابرنس الكرك . واخي الملك جفـري . واوك صاحب جبيل.وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية ، واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن الاسبتارية ومعظمها . ومن البارونية مــن اخــطا بــه البـال لما عز الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس ° وقوي بنا الرجاء ومنهم اليأس ° وعروا من ملابس العز . وضفا عليهــم مــن ملابس الصغار البــاس . وتعــرضت للســوء في الســـوافي طاول حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد بهم حكم القضاء لم يجــدهم الاحتــراز والاحتــراس . ورســـفت وارسفت الانفس والانفــاس . وانعقــد الاجمــاع بتحليل تــركيب جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاســلام بــكسرهم . وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتلى قال : ما هناك اسـير . ومن عاين الاسرى قال : مــا هناك قتيل . ومــذ اســتولى الفــرنج بساحل الشام ما شفي المسلمين كيوم حطين غليل . فالله عز وجــل سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهداه من التوفيق لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المســلوك . ونظــم له في حتــوف اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر الأبر . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو والسوم . غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القــدسي مقــدمة . ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الوقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم مــا دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كأنه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمــي اليه غير مفيد . لكن فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهــم ــ وكانت الوفا ــ ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولامــورد الــروح سـائبة

ولالنار الروح شابة . وغذمنا ما لا يحصى من بيض مكنون وزغف موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح كل اقليم مصون . وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون . واستخرج من كنز مدفون . و .... حاصلة . و ...(٦)تحقق اهله . ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من عدة ورحال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجاءنا هذا الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال : لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفروا بجناح غادروه محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من العمارة ليتوصلوا الخارجين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال التي احضرتها . وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها . فتاملتها واذا جمالي بأعيانها . فشكرت همته الكريمة على احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التي حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تزل الثغور بسداده مسدودة والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممدودة . والرعايا بسياسته محروسة . والبلاد بحراسته مسوسة . ورايات الكفر بذكاياته مذكوسة . وايات الدين بهدايته مانوسة . والمواضع معمورة . والمنافع موفورة . والصنائع مشكورة . والشرائع مشهورة .

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرقتهم تنكرت معرفتهم . وتكدرت صفوتهم بعد الايام السلطانية . وانقلبت سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صادقوني لصدق الحاجة . وصادفوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائصا لاستخراج جواهر مقاصدهم لجج اللجاجة . فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخلاء الدنيا في دين الاخلال . ومله الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فما ابدعوا غريبا وما ابعدوا قريبا.ولا اعجبوا بانيا،ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

للعماد الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد مايبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن الرشد مايكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذي بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(فصلت : ٣٤) . والحمد لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله الموفور . وقبل منا عفو خواطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة . ولايطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيا وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير ذكرنا،وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا . ومتجرعنا ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمجما . وتارة يحيط به قولا مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات مسموعه . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه مسارحه . وكيف لايعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنا لانرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترابه .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولاصدق المراد . وأين مــن أخبـر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمــن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح . ونصلي على آله وأصـحابه ولاة الحــق . وقضــاة الخلق . ورتقــة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفــرق . وفتحــة الغــرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم مــن اســتنزل أرجــل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هــامها . وأخمــد عبــدة نيرانه أن يطعموها حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشــداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصــار . ومنهــم الســاجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهــم نحــن أهــل الزمن الآخر . وقد ســلم علينا ســلام الله عليه في زمنه الحــاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنمــا نرد عليه تحيته والبادىء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بــالمودة التــي قــدمها والفضل للاقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدبــاء الذين يتــطلعون الى الغــرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلي الســير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التي نوردها . وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إمــا أن تــكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقــب مــن الدول الأخرى . فلا أمة مــن الأمــم ذوات الملل . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . ينقله خالفها عن ســالفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصــب بــه معــالم الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الأخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الاصلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم . لآدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أراده من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر . وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرا بعد دهر . وثوى وأنشر في ألف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها . وجهل ماوراء صعوبة الأيام من سهولتها وماوراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه . ثم أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه ينسق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج إيوانه . واطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلو بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل . وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخــوا بحــرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين ســنة . ثــم أرخوا بعام الخنان قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتيان في عام الخنان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعــام المخــالق وعام الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربــع حــروب ذكرهــا المؤرخون . وأسندها الراوون ، وأدنى ما أرخوا به قبــل الاســلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام . وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلهــا جــب الأذوار للظلم . ودفــع الله الناس بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهيأتــه يوم خلق الله الســموات والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأمــوال والأنفس ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي مــا ولدت الليالي مثله مــن بنيها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعــد مــن عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمــدها بالقيامة معذوق . وبــأن مــوعدها الموعد الصــحيح غير المدفـــوع والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوســف بــن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . وتســفر عن أهلتهــا دادىء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاســلام إلى القــدس

ثانية . فقد كان انثني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهـذه الهجرة أبقى الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد . والوحي ماكاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها . ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردمه . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الارض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفرس يومئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعة . ولاطبعت سيوفه هذه القاطعة . ولانسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف إلا مشيدة لامجلدة . والمنجنيقات لايتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لاتتراجم بالنيران المذكاه. والأسوار لاتتناطح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة عزلا . وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء . وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهي للملك المعترك . وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب . ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست ورانت الفتن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا القتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح . واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلا مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولامزج . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون . زرقا كأنما عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم . واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم . تستعيذ المردة من مردتهم . ويدعى النار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ . جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف : ١٧٩) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة لاتستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الاظلام . وزانت أيامهم الأيام خبالا فتنازع الناس طرائف الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨) و(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام تمخض وتمطل بالزبدة . والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخـروج ولكن مـا أعدوا له عدة . والعـذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفـى بلافـظة النبـوة لومـا صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتهـا . وأظهـر الآية التي لا اخت لها فذقول هي أكبر من أختهـا . أفضـت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمـام شـهرها . وجـاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد . ومالكها الذي له السماء خيمـة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتـاد . والشـمس دينار . والقطر دراهم . والأفـلاك خـدم . والنجـوم أولاد . صـلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق اليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهـو سـبحانه أكرم بـالنوال . منا بـالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجـر مـن أحسـن عمـلا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاه الله بالاحسان فقـد قـال : (هـل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قـال : (والذين جـاهدوا فينا لنهـديهم سـبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فـاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل) (آل عمـران : ١٩٥) وإن قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قـال : (مـا على المحسـنين مـن سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل
في معاليه قد كمل
لايسل فيه سائل
سبق الجود ما سأل

وليصحح تأملا

يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجـاد إلى أن لم يبـق مـال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتـح وما هـو فتح واحد ما هـو إلا فتحان فتح والدم ذائب وفتـح والذهـب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فـرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جـديدا وزاد لأنه ضرب بالسيوف التي كسرها ثم ضربها . واستوعب جوده مـا ولدت المعادن ذهبا وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع تم نهبها فـوهبها . فكل معاد معادى إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسـود إلا هــذا المداد . (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجـود من قبول المدائح .

الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا .

ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصـادقين الذين أمـر الذين آمنوا ان يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسـنين لأنا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بـانه فروقه . ولسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقـول للقلم إذا فاخره السيف (إن شانئك هـو الأبتر) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولسـت ببعيد في تقييد هــذه المفاخر . وتشييد هذه المآثـر . مـن رجـال الطعـن والضرب الذين

فتحوا بين يديه . واوجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه واوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى واخطب . ومن سهامهم انجي وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب . ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من نقعهم أغلى وأغلب . وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد . وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وآثاري من الذكر لاتخمل ولاتخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام سحبا . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا . فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية . وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى ايوان كسرى وسينية البحتري في وصفه تجدوا الايوان قد خرت شعفاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح بين الأوصاف الغالية . ونناوب بين السمات السامية . للاشارة إلى من ينبه على مسماه . وينوه بسيماه . فأما من يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفـر ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشـيد بـالله أبي جعفر هرون بن الامام المهدى بالله أبي عبد الله محمد بن الامام المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبـاس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهـي الأيام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاربها للقضاء مضاه . فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا . وأقبلها جدا وأجدها قبـالا وأقـربها ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى جني رفـدها . وأفغـم ريا رياض فضـائلها . وأفعـم حيا حياض فواضلها . واسح سماء سماحها أمطارا . وأصـح جناح نجـاحها مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بـن أيوب ناصر دعوته . وداعي نصرتـه . ووليه الطـائع . وسـيفه القـاطع والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب . وقيدت شوارد معـانيها وسـيرت محـامد معاليها بهذا الكتاب . وأودعته مـن فـوائد الكلام والفـرائد الفـذ والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على جلالة قدره . وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القـاضي الأجـل الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقـال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقـد فتـح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صـيغة بيانك فيه مـا يعجـز ذوو القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتـح في سـنة ثـلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وأنشـأت رياضي بسـحبها . ومـا شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القـاعدة الا على أس ما تبينته فبينته،وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمـدت إلا مـا يرضي الله ولا يسـخط . وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة:وكتب الملك الناصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبـلاد . يسـتدعي مـن جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهــل للاســتدعاء أهــل الاســتعداد . واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبـل اسـتنجاد الجنود . واسـتحشاد الحشـود . وإصحار الأسود . واحضار البيض والسـود . مضيء العـز مـاضى العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود . وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتـراب الحجـاج . وقـد رتـب الفرنج من الارصاد أفـواجا على تلك الفجـاج . لاسـيما ابـرنس الكرك . فانه كان حـريصا على الدرك . ناصـبا شر الشرك نصـب الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقـد قضـوا حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخـرجوا عن فـرضهم . ودخلوا إلى أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتـظر السلطان وصول العسكر المصري المسـتدعى . ورعى منه حصـول العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده . فأمر ولده الأكبر الملك الافضل نور الدين عليا . ولم يزل مـكانه عنده عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمـع العسـاكر الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحـرب . ويحـرق . ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجـود بـالمعدوم . وأتـي بـالقطع على البسـاتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع . واستأصل الأصول والفروع. حتي أقوت من الأقـوات . واسـتعرت الغلة بغـلاء سـعر الغـلات . وحلت آجـال الارزاق . وانحلت عرا الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وسـار إلي الشوبك فأسار به شوبا . وألحفه من عريه ثوبا . وأخلاه مـن زرع ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهـب ضـياء تلك الضـياع . وأزال بقاء تلك البقاع . وجـاس الخـلال . وداس الغـلال . وقشر الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسـكون مسكونها . وفجع الفرنج بـكرمها وزيتـونها . فقـد عدم ليلهـا المصباح . وصباحها الاصـباح . ووصـل عسـكر مصر فتلقـاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحـالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصـلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتـره . والخضرم الضرم . والعرمرم العـرم . والهـام الملتهـم . والجيش الجائش . والترك والأكادش . والجنود والبنود . والاسود السود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن مـن خدورها حبا لمعانقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد ومـا أحسـن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يسـتنهضه . والعـز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقـدر يحـركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه مـن رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر إستمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهـز الفـرصة واحـرز الحصـة . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجـك المقـدم المقـدام . والهمـام الهمام . والأسد الأسد . والأرشد الأشـد . وعلى عسـكر دمشـق قايماز النجمـي ، وعلى عسـكر حلب دلدرم الياروقـي . فسـاروا مدججين . وسروا مدلجين . وصـبحوا صـفورية (فسـاء صـباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهـم الفـرنج في جمـع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسـابريات سـابغات . وللداوى دوي وللاسبتاري هـوي . والبـاروني يقـدم على البـوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجـو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجـز عجـاج العجـاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمـع ويجمعـون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قـايماز النجمـي في صدورهم . وأشرع الأسـنة الى نحـورهم . وروى اللهـازم مـن تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكترث بـكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدرم بالوجه الأبيض . والعزم الأنهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلى الغبار . وقد عم الفرنج القتل والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك محاص . واخلفت رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه النوبة بلا نبوة . والهبة بلا هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة بالنصر . وأحسنت الألسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم يغدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من النكاية في العدو يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا . فغصت بسيول الخيول الوهاد والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا . وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت . وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض . وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث . وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم . وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلوم . وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث . وحلف منتكث . ووقوع نفار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استندوا

حين حينهم . سعوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأنسة . فاصطحبا بعدما اصطلحا . وأصحبا بعد ما جمحا . وتزاور الفرنج وتوازروا . وتآمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوها هوى . وعود إذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لوائنا اللاواء . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وبيارقنا البوائق . وسيف الاسبتار بتار . ولقرن البارونى من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاقد والمعاقل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسالموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادنونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لايقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغه والمفاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك :أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت للخور رخو . وللخشية حشو . وأنا لابد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأرادده حتي أرده . وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحشد والحشر والطي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما. وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفخوا في ضرمه • وتسمذوا بورمه • وصحوا بسقمه، ورقوا في سلامه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١) ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطرك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفله مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لايستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • وراش غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليسه بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالى مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق النخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال الذشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراج للاسراء • وألجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما يقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالى مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق الذخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال النشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهذبة • والسلاهب المجنبة • والصوائب المجعبة • والقواضب المقربة • والثعالب المذربة • واللهاذم الهاذمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على خسفين . وقد ادنى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر وكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة • والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة • والقلوب بالاخلاص عامرة • والانفس للانس مسامرة • والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانة . بعزم الصيال وعز الصيانة • واحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط • وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج • وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج • واعاد الاقحوانة رياضا نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات كأشجار البساتين • ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين • والوية حمر كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران • ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقحوان • وجبب ترائك على بحور الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين • والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على حدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام الثائر سروج السريجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاوباش • ورتبوا الجيش • وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل • ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نوادي اقـاليم اهـل الاقـانيم • وصـالبوا الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخـرجوا عن العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهـاء خمسـين الفا ويزيدون • ويكيدون مـايكيدون • قـد تـوافوا على صـعيد • ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمـون • لايرومـون حـركة ولايريمون • والسلطان صـلاح الدين في كل صـباح يسـير اليهـم ويشرف عليهم • ويراميهـم • وينكى فيهـم • ويتعـرض لهـم ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شـعابهم سـيوله • فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبـرز اليهـم القتل في مضاجعهم • وعايذوا مقـام صـارعهم • في سـوقهم الى مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبذوا عمـا له تشـجعوا • فرأى السلطان ان يطيب ريه • مـن طبـرية ويشرف على خـطتها بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتهـا • فجـر على الاردن اردان الردينيات • واطلع النقع المثار مـن البحـر بحـوافر الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يسـتوعر عربيات العـربيات • فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج • ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصـاف بـادروا الى الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب . وثبوا بهم وثوب الاسود بالارانب . وان قصدوا طبرية لصونها وان يكونوا في عونها . عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبـرية في خـواصه ، وذوي اسـتخلاصه . واحضر الجاندارية والنقـابين . والخـراسانية . والحجـارين . واطـاف بسورها • وشرع في هدم معمورها . وصدقها القتـال . ومـاصدف عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهـو يؤم الخميس . واخـذ النقابون النقب في برج فهدوه وهـدموه . وتسـلقوا فيه وتسـلموه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العــدو معتــكر . وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيهـــا . ولما سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد جلده . وسمح للفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا قعــود بعــد اليوم • ولابد لنا من وقم القوم • واذا اخذت طبرية اخذت البلاد • وذهبــت الطراف والتلاد • ومابقي لي من صبر . ومابعد هذا الكسر لي جبــر وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافقه . فما نافقه . وماحضه فما ماذقه ووادده فما رادده . وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحينه . واتبــاع غيه . واشياع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبــرته . ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبــات ثبــاتهم ووثبــوا. وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبــوا . وشــبوا النار . ولبــوا الثــأر . وقدموا النزل بالدار البــدار . وذلك يوم الجمعــة رابــع عشري ربيع الاخر. فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه، وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل المخطوب . وجاءنا مانريد . ولنا بحمد الله الجد الجــديد . والحــد الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صــحت كسرتهــم . وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع . ولا عن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الاخر والفرنج سائرون الى طبــرية بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد مــاجت خضارمهم . وهاجت ضراغمهم. وطارت قشاعمهم . وثارت غماغمهم وسدت الافاق غمائمهم . وشاقت ضاربيها جماجمهم . وهم كالجبال السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء مذقض . والثريا قد استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحــوافز للارض حــوافر . والفــوارس اللوابس في البيض ســوافر . وذئاب النياد واجلاد الجــلاد قــد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فــرتب السلطان في مقابلتهم اطراطــلابه . وقصر على مقــاتلتهم اراربــه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم
وبين الماء . ومنع ذمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم
بالصد . ذاك واليوم قيظ . والقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة .
فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير
صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين .
وبات الاسلام الكفر مقابلا . والتوحيد التثليث مقاتلا . والهدى
الضلال مراقبا . والايمان الشرك محاربا . وهيئت دركات النيران .
وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا
اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . ونفر
النفير غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في
الضوامر الضوارم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار .
وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار .
ورنت القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس
الجلاد . وبرزت البيض من ملائها في الملأ عارية . ورتعت السمر
لكلئها من الكلى راعية . فرجا الفرنج فرجا . وطلب طلبهم المحرج
مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا .
وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى مابأيديهم من ماء الفرند ماء .
فشوتهم نار السهام وأشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية
واصمتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا
ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم
نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا .
ونا شبهم النشاب فعادت اسودهم تنقذ . وضايقتهم السهام
فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من
طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا .
وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا .
وقرشتهم البلايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا الردى درايا .
والقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع
الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل
اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر .
فخرج بطلبه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخـرق . وافلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حـالة حضـور الوعي . ونابه الرعب الذي ذوى الهزيمة به وماونى . ثـم استجرت الحرب . واشتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وفلت حدود الرمـاة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشـغلوا عن اصـل الحياة وفـرعها . وتـرجوا خيرا فتـــرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حـزامهم الطبيين مـن سـهلها . واسر الشـيطان وجنوده . وملك الملك وكنوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهـم يتهـادون في القيود تهـادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعـه عدة كثيرة منهـم ومـن الاسبتارية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صـاحب جبيل وهنفري . والابرنس ارناط صاحب الكرك . وهو اول مـن وقـع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لاعجلن عند وجدانه عدمـه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجذبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له:كم تحلف وتحنث . وتعهد وتنكث . وتبـرم الميثاق وتنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال التـرجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وماسلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من سـكرة الرعب منتشـيا . فـأنسه السلطان وحاوره . وفثأ سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبـه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثةوأزاح من العطش مـاكرثه . وناوله الابرنس ليخمد ايضا لهبه . فأخذه مـن يده وشربـه. فقـال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أذنا • فلا يوجـب ذلك له مني أمنا • ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصـلاهما • ولم ينزل الى ضرب سرادقه • وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحـومة الى الحمى فيالقه • فلما دخل سرادقه • استحضر الابرنس فقـام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع . امر برأسه فقطع وجـر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السـلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته . وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونبازند حياته ووردها عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودا فعادوا من النقد . فما افلت من تلك الالاف الا احاد . وما نجا من اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى . وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت حطين تلك الجيف عن متنها • وطاب نشر النصر بنتنها • وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه • بالعراء عراة • ممزقة بالمازق • مفصلة المفاصل • مفرقة المرافق • مفلقة المفارق • محذوفة الرقاب • مقصوفة الاصلاب • مقطعة الهام . موزعة الاقدام .مجدوعة الآناف • منزوعة الاطراف • معضاة الأعضاء • مجزاة الاجزاء • مفقوءة العيون مبعوجة البطون • مخصوبة الضفائر • معضوبة المرائر، مبرية البنان• مفرية اللبان مقصومة الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة النحور . منصفة الاجساد .مقصفة الأعضاد • مقلصة الشفاه • مخلصة الجباه • قانية الذوائب • دامية الترائب• مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع • مكسورة العظام • محسورة اللثام • بائدة الوجوه • بادية المكروه • مبشورة الابشار • معشورة الاعشار • منشورة الشعور• مقشورة الظهور • مهدومة البنيان • مهتومة الاسنان • مهرقة الدماء • مرهقة الذماء • هاوية الذرى • واهية العرى • سائلة الاحداق • مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبات • عديمة الارواح • هشيمة الاشباح . كالاحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار . وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء • وعادت الغبرة حمراء . وجرت انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر• فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث • وما الهب عذابات العذاب في تلك الجثث • وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث • وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذاوحساب من قتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده • وأما من أسر فلم تكف اطناب الخيم لقيده وشده• ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس • وهنالك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الاسرة أسرى • وأولو الاثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس . والرؤوس تحت الاخامص . ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم اصيد صيد . وقائد وقيد . ومشرك مكشر . وكافر مفكر . ومثلث منصف • ومكيف مكتف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملك مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب في الكبول • ومغتال في الغلول . وحر في الرق . ومبطل في يد المحق .

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صليب الصلبوت . واهلك دونه اهل الطاغوت . وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع . سجد له كل نصراني وركع . وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها معبودهم ومسجودهم . وقد غلفوه بالذهب الاحمر . وكللوه بالدر والجوهر . واعدوه ليوم الروع المشهود . ولموسم عيدهم الموعود • فاذا اخرجته القسوس . وحملته الرؤوس . تبادروا اليه . واندثالوا عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف . واخذه اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب لهم في ذلك المعترك . فان الصليب السليب ماله عوض . ولا لهم في سواه غرض والتأله له عليهم مفترض . فهو إلههم • وتعفر له جباههم . وتسبح له افواههم . يتغاشون عند احضاره . يتعاشون لابصاره . ويتلاشون لاظهاره . ويتفاضون اذا شاهدوه ، ويتواجدون اذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج . ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها . ويخشعون لها في بيوتهم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم . ووهت اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما . فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر. والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

وندب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها . وغادرت طبرية آهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طبق البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسسبتارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتارية ، وقال : أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وامر بضرب اعناقهم . واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من ابى ونبا وعذر . ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد انجزه . وحمد احرزه . واجر استدامه بدم اجراه . وبر اعذق اليه بعذق براه . ونصل خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للاواء طواها • وكفر اماته لاسلام أحياه • وشرك هدمه لتوحيد بناه • وعزما مضاها • لأمة ارضاها• وعدو قصمه • لولي عصمة• وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون • وتستبدل حركاتهم السكون• وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا •

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مديلا الطيب • مزيلا الخبث• وسار عسكره• وثار عثيره• وظهرت راياته• وبهرت آياته• ونعرت كوساته• وصاحت بوقاته• وجالت خيوله• وسالت سيوله• وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصاته وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه • وحفرت حوافر الصلاد م أصلاب الصلاد الصلاب• وفصحت باعراب الحماحم صواهل الجياد العراب• والاسنة مشرعة• والأعنة مسرعة• وبحور السوابح متموجة وغدران السوابغ مترجرجة• وبوارق البيارق متبرجة• وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة• ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح ملبيا • ولجيش النصر معبيا• ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا • وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر• جانيا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر• وأصبح وقد اصحب جماح الدهر• وصح نجاح الأمر• وحص جناح الكفر• واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج• وسار سارا سره بارا بأرباب الدين بره• زائرة أسوده• طائرة بذوده• ظاهرة جذوده زاهرة جدوده• سامية أضواؤه• هامية أنواؤه• رائعة مواكبه• رائقة مراكبه• مجنبة عتاقه• فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير الفقير الى نصرته من يثري به• وهذا الأمير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج• وهو ذو شيبة تقد كالسراج وما برح مع الملك الناصر• مأثور المآثر• ميمون الصحبة• مأمون المحبة• مبارك الطلعة• مشاركا في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره • ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره• فرأيته ذاك اليوم للسلطان مسايرا • ورأيت السلطان له مشاورا محاورا• وأنا أسير معهما• وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما• ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى• وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها• وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها• فلما قرب منها خيم وراء تلها• وأننت عروش معاشر الشرك بذلها• وعقود معاقدي الكفر بحلها• وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه• ووقف كالأسد في عريسه • فخرج أهل البلد يطلبون الامان • ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام والانتقال• ووهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونسائهم • وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة • واغتنموا تلك المهلة • وفتح الباب الخاصة • واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة•

فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المحرج • كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم انهم يغنمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة•

الا من ركب السفينة • وذلك ان الجند لما دخلوها • استولوا على الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار• وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع •

ومواضع ورباع • فاخذها بما فيها من غلال ومتـاع. ووهـب عكا لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظـره على الاحسـن الاجمـل • ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعـة • ووصلنا فريضتها المنقـطعة • وأعدنا الكنيسـة العـظمى مسـجدا جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القـاضي الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبـد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السـهروردي ، فإنه تـولى بهـا القضـاء والخطابة ، وملأنا بعـد الذئاب بـالآساد السـادة السـادة تلك الغابة ، وخلى سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومنخورهم وتركوها لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها مانبذها ، وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخـرت تلك الحـواصل وحصـلت تلك الذخـائر ، وجمـع لبيت المال ذلك المال المجمـوع الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لمستحليها ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل مخيما ، وعلى فتح سائر بـلاد السـاحل مصـمما ، ولملكتهـا متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبـي بـكر وهو بمصر ، بما أتاحه الله من النصر ، وقيضه له مـن افتضـاض الفتح البكر ، فـوصلت البشرى بـوصوله بـاشرا ، وللواء الحمـد ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مبـاشرا ، وأنه فتـح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمهـا غزوة ، وتسـلمها حظوة ، فقصده من عسـاكرنا القصـاد ، ووفـد اليه مـن عندنا الوفاد ، فحباهم بالحباء مـن السـبايا ، وآتـاهم المربـاع والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالذقود ، ووعدهم مما سـيحصل بالنسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويسـتفيض حسـنى وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويسـتزيل مـن الكفـر يدا ، ويستميل الى الهـدى هـدى ، والدين بسـيف سـيفه منصور ، والاسـلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العـادل مـالك بعدله ، سالك نهج النجح بفضـله ، فـائز العـزيمة حـائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتيبة ، ميمون النقيبة مأمول الرغبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغنمه ظاهرا بكرمه ، شاكرا عرام عرمرمه ، ملهبا ضرام مخذمه ، مرويا أوار لهذمه ، وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاورة .

فتح الناصرة وصفورية

فسار مظفر الدين كوكبوري الى الناصرة فاستباح حماها ، واستبي دماها ، وحلها واستحلها ، وأزالها وازلها ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشفها ، وشافهها بشفار البواتر ، فشفه منها موارد الذخائر ، واجتلى عرائسها ، واجتني مفارسها ، وجمع نفائسها ونزع ملابسها ، واستدر طبيها ، واسترد سبيها ، واستقل منها بما استقل به من كل غانية عانية • ورقيقة رقيقة • ومصابة مصيبة ، ومسبية مصبية ، ومجلوة مجلوبة ، وسالبة مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، واسيرة من أسره ، وحاسرة عن حسره ، وثاكلة لواحدها ، وآكلة لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خديها • وناهدة متنهدة ، وفريدة متفردة ، وناعمة شقية ، وقينة نقية ، وعذراء مفترعة ، وحسناء منتزعة ، ومخطفة ، وقوية مستضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصحيحة عليلة ، وساجية عبرى ، وصاحية سكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

ظمياء ، وغضيضة غضـــة ، وفضـــة منفضـــة ، وخمـــارة مخمورة ، وسحارة مسحورة ، ومخـدرة مهتـوكة ، ومـــوقرة منهوكة ، وجاءوا بالأسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الأقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الأعناق والسوق وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بهـا مـن الذخائر مبلغ وافر .

فتح قيسارية

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة مـن الأمـراء الى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وسـلطوا على الأنفس بهـا حـــاكمي الحتـــف والحيف ، وســـبوا ، وحبـــوا وسلبوا ، وجلبوا ° وجالوا ، ونالوا ووقذوا ، وأخذوا ، واحتووا وارتووا ، وربـــطوا ، وضـــبطوا واســـتفادوا ، وفـــرسوا الفـــوارس ، وكنســـوا الكنائس ، واســـتبوا الأبـــكار العرائس ، والعون العـــوانس ، وتســـلمت بعـــدها حيفـــا وأرسوف ، واســتولى على تلك الشـموس والأقمـار الكســـوف والخسوف ..

فتح نابلس

وسار حسام الدين محمد بن عمر بـن لاجين على سـمت نابلس حاسما بحسامه داء الشرك ، مـــالئا بســـهام الفتـــك جعـــاب الترك . تاليا آي الفتح . جاليا رأي النجح ، ووصل الى ســمسطية فتسلمها ، وتعجل مغنمها . ووجد مشـهد زكريا عليه الســلام قـد اتخذه القسوس كنيســة ، واعادوهـا بـالصور والآلات النفيســة اميسة . فاستخرج المصـونات والمصـوغات ، واســتوعب العـدد

والالات . وأعاده مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا ، واصبح الدين به مثريا والكفر مقترا ، ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف جده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم ان اقاموا لايأمنون المنون ، فان المسلمين بها وباعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أماكنهم ، وخلوا دورهم واخلوها ، وتسللوا منها وسلوها ، وتحول الاقوياء الى قلعتها ، وتحصنوا بتلعتها . ونازلها حسام الدين وحاصرها . وطال عليه حصرها وصابرها ، ولم يزل عليها مقيما. ولقتالها مديما ، الى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا باحسانه . وسلموا وسلموا . واستأمنوا وأمنوا ، وخلصت له نابلس واعمالها . وحليت به احوالها . ولكون معظم اهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مسلمين ، فانمحى بالسعود رسم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه اهلها بعد العبوس . وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعدد واشحنها . وهي للداوية حصن حصين . ومكان مكين وركن ركين . وفيها مشتاهم ومصيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم . ومجر نيولهم . ومجرى سيولهم . ومجمع اخوانهم . ومشروع شيطانهم . وموضع صلبانهم . ومورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا واسروا . وخسروا وتحسروا . خلت طاول الفولة . بحدود

اهلها المفلولة . وماء داويتها المطلولة . ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة . ولم يبق بها الا رعايا رعاع . وغلمان واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حماية المكان . ووجدوا امنهم في الاستئمان . فسلموا الحصن بما فيه الى السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . وذفائس الأعلاق . فوثقوا بما احكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين . ودخلوا في الذمام لاجين . وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور والجون . وبيسان والقيمون . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات .

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ، وقلصت من الضلال تلك الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابن أخيه الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه تقي الدين بقصد حصن تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين ، فالقى عليه جران بأسه ، ولقي بالتذليل حران ناسه ، وأخذ في مضايقته بأنفاسه ، ولمح مالمع من قبس فتحه فشفعت باقتباسه ، وسنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على الوصول اليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره • فضرب الكوس ، وسمت النفوس ، والنهوض في ظلام القتام من الترك والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل النقا ، واشتبك على الآساد غيل القنا ، وسالت الاودية بالسابحات العتاق ، وطالت على السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق ، وجرت الفجاج ، وتموجت الأفواج ، وتفوجت الأمواج وتحركت غدران السوابغ ، من رياح السوابق ، وتدركت ضوامن الضوامر بالأرفاد في اردافـ الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث مراحل ، فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالنوازل ، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل ، فتبلدوا من الرعب ، وتجلدوا على الحرب ، ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا ، ورغبوا ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحوا ، وعجزوا فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب.وندبوا فدانوا ودنوا ، وأذغنوا إذعنوا ، واعتذروا مما جنوا ، وراسلوا السلطان ،وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين ، فخرج المأسورون مسرورين ، وأصبح الصحب المكسورين مجبورين ، محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين ، وسر بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم ، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه وملك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف اسير للقيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدووي ، فأرشد به ذلك الصقع الغوي ، فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيس النافر ، وتعكيس الكافر ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخندقها كل مايمكن من التوثيق والتعميق ، ورحل ومعه رفيق التوفيق ، وكان النزول على تبنين يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر منه .

-٥٨٤٧-

فتح صيدا

يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد،والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لمناشق اهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، واوجهنا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة ، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للممالك من الملائك أمداد النصرة المتواتية المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين ، وعن حمي الحق دونها لأهل الباطل صادين ، ولما نزلنا من الوعز الى السهل سهل ماتوعر ، وصدفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة الى صرفند ، وأسمنا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروثة المناهل ، ذات بساتين ، وأزهار ورياحين ، وأشجار النارنج والاترنج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج ، فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية ، ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بنوارها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آرابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدح منبرها ، وصدق مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني عشري جمادي الاول وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين ، وجمع لهما التحصين والتحسين ، قال لعصمة الله شيدي مابصيدا وتبنين تبنين ، والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولايطرق ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سنانه ، ورحل على سمت بيروت ، مالئا بعسكره الآكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك الجحافل ، يجر على البحر مائج ، ومجر مجر الى الهياج هائج ، ونقد من عقد الجد رائج ، وعزم على صدق القصد عائج ، ووصل اليها ونزل عليها ، وبنيت القباب ، وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب ، وزحف الى الأعداء الاخباب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد ، وأحاط الرجال بأرجائه ، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجل نحوه الباس ، واصطفت التراس ، واشتد المراس ، واحتد القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خروج الجروخ للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، ومدت الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد النصر الموافي المواتي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل الذفط ، واشتغل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأتي الوادي فطم على القرى ، ودبت الدبابة بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث النبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجزت مواعد الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالذوازل ذوازي الأهوال ، ورعدت بوارق البوار ، واسعدت الأقدار ، بالأقدار ، وشغلت الرقاب، قواضي القواضب ، وحملت الذواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الأشراك ، ودام القتال اياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا واضطراما ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت بشهب الذفاطات شياطين الداوية المردة ، وتعادت الأسود العادية ، على أولئك القردة ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق ، وكاد النقب يتسع ، والبرج يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض وترفض ، وسوار السور ينكسر ، وقناع الذقع لاينحسر ، وخرج من البلد رجال ، الى الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤوس المذون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا بالقواطع ،وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا وتجالدوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض يقد ، والبيض تقد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللدد ، وضافهم الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدموا سكينتهم ، ليركبوا سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يستدعي الأمان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما

يحرمهم ، وعهدا يسلمون به ويسـلمهم ، وعقـدا في عقـد الأمـن ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قـد أزعجني وأعجـزني ، ومضض أجفاني ولعيون العـواد ابـرزني ، وانقـطعت عن الحضـور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامـان ، فـطلب السـلطان كل كاتب في ديواني ، وكل من يمسـك قلمـا مـن أفـاضل الملك وأعيانه ، فلم يرضه ماكتبوه ، ولم يكفه مـارتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومـرضت اذهـان الأصحـاء ولم يمـرض ذهني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان الناس قد انسوا بما اسطره وأزبـره ، وأنسـوا سـوى مـاأذكره وأحبره ، وألفوا الصـحة فيه فـألفوه ، ولقـوا السـقم في غيره فأنفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بـل كله بتـوفيق مـن الله توثيق ، فما فتح الا بمفتاحه ، ولارتق فتق الا باصلاحه ، ولاجلي ظلام الا باصباحه ، ولا وري زند الا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمرة الحر متـوهجة ، ووقـدة القيظ متـأججة ، وضرم مـرضي ملتهب ، وروح روحي منتهبا ، وبقيت مضـطربا ، ولقيت مـن ذلك الوصب نصبا ٠ وحصلت مـن الاقـامة أو السـفر على الخـطر أو الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن آلاء شغلي بالآلام،
وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصـبي ، وعزت علي مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت على مضض وانصرفـت بمضرة ومـرض ، وحملت الى دمشـق في محفة ، وحصلت بفضـل الله مـن طيب هـوائها بعـد الثقل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبدل الكدر بالصفاء ، وعدت الى السلطان يوم فتـح القـدس ، وانتهـت الوحشـة الى الأنس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى مطاع الأمر ، مذاع السر في تضوع النشر ٠ وتوضح البشر ، مستفيض الزيادة ، ناجح الارادة ، راجح العبادة ، رابـح المتجر ، واضح المفخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العـدى واستجدى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد ملكا ، واستزاد ملكا ، وبـر بيروت اذ بـرت ، وحفلت له اخـلاف

الفتوحات فدرت • واستمرى صوب من عزائمه وصرائمه فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل أسر اليه في أسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت . وابحتها لكم وتحرمت . واخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وازيلها من وثاقي اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيده . واحضاره في قيده . فأحضر في صفده وسمح ببلده . فخلص ناجيا وملص راجيا . وملكت مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون . ولاعداء الله مصابرون مكابرون . وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين . مساكين لساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصدحت المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت الآيات . وجليت الغيايات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط الشيطان . ونطقت الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست الذواقيس . وبطلت الذواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا دفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . وانتفشوا من شوكة عارهم . وقروا في ديارهم . وقروا ابصار بانصارهم . وكان كل من استأمن من الكفار . يمضي الى صور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجا شريدهم . ومأمن خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم حسرتهم .

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها . وآوى الى طرابلس وتوافى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغي نجوة   من هلاك فهلك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلاده فوقع في البلاء. وظن ان صور خلت . وان مجانيها حلت . وان جماحها اذعن . وان كفاحها امكن. وان فرصتها انتهزت . وان حصتها احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس .فادرك ذماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروع بعدما اغفى . وضبط صور بمن فيها . من مهزموي الفرنج وبمذفييها . وكان المركيس من اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . وأضرى سراحينه . وأخبث ذئابه . وانجس كلابه . وأنهش صلاله . وافحش ضلاله . وأعوى اعوانه . وأخون اخوانه . وأبغى بغاته . وأجفى جفاته . وأرعى حماته . وأحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وافجر فجاره . وأروغ ثعالبه . والسب عقاربه . وأحنث معاهديه . وأنكث معاقديه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن فيها من المسلمين ذاهل . فعزم على ارساء الشيني بالمينا .ثم

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة. ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها .ولا معتقد في تعقدها .ولا متئد في تـوردها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحصن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محسور محصور . فلما أرخي من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لفواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقد المعاقل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشديدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة. ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض الذيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها .ولا معتقد في تعقدها .ولا متئد في تـوردها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحصن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محسور محصور . فلما أرخي من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقد المعاقل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشديدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

واستقتلوا . وتعقدوا على الفتح وماتحللوا . واحزنوا في الاباء وما اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقها . وفرجت بالحجار طريقها . ورجت بالتفريق فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق وثوقها . وجمع شمل الحجارة ب (النار التي وقودها الناس والحجارة)(البقرة ٢٤)ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة منا لهم الخسارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عبث بورهم بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع الحجاب . واشتد القتال .واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا تخلصت خلصت . واذا استنقذت استنقذت . وخرج . مقدمون وشاوروا الملك . ونهجوا في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة .وتلألأت السعود في أوجها بالاوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح بالشهادة . واختتم بالسعادة . وكان السلطان قد أخذ في طريقه اليها: الرملة،ويبنى،وبيت لحم،والخليل . واقام بها حتى تسلم حصون الداوية:غزة،والنطرون،وبيت جبريل . وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم اطلقه • فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه . واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة وبشارة . وراية وآية . وهيأة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعده . وجدة وجده .وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغه . وروعه . ونخوه . وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساعير .

ومغاوير . ودهم . وذهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب وانجاد . وجلب ولجب • وبيض ويلب . وبيض وسود واساود وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعتاق . وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف وثقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحد لا يكل . وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك . وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقرت عينه بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر . بالفلك المواخر . وجاءت كأنها امواجا تلاطم امواجا . وافواجا تزاحم افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها • وضرغام غابها وهمامها • فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا . قد اصحب ريض مناه . واخصب روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الارجاء سيب العرف . طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملا فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فياقه ملاءته على الفلق . وكأنما اعاد العجاج وأد الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل • والسماء حاظية بأقساط القساطل • وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على ماتنشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعمي ليحمل عنها بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع زهر المصابيح في سمائها . واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء الذين اقصاهم الله بلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان . وكف الكفر عنه بايمان الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . وادناس ادنى الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار انها ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل بال باليان . واشتعل بالنيران . وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها مقامتنا ٠ ومنها قيامتنا ٠ وتصحيح هامتنا ٠ وتصحح

نداماتنا . وتسيح علاماتنا . وتسح عماماتنا . وبها غرامنا . وعليها غرامتنا . وباكرامها كراماتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وان تخلينا عنها لزمت لامتنا . ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي والمرقب . والمشرب والملعب . والمموه والمذهب . والمطلع والمقطع . والمربي والمربع . والمرخم والمخرم . والمحال والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في احبارهم . والرهابين في صوامعهم . والاقساء في مجامعهم والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة والسيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحوت . والمنعوت والمنحوت . والتلميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة الكبش والحمار . والجنة والنار . والنواقيس . والنواميس.قالوا: وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتأله الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل النور . وزال الديجور . وازدوجت الطبيعة بالاقنوم . وامتزج الموجود بالمعدوم . وعمدت معمودية المعبود . ومخضت البتول بالمولود . وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات .ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت . وعنها ندافع . وعليها نقارع . وما لنا لا نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا . وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا وتباهوا . ومالنتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق امات الاسواء على الاسوار . وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطفت طواغيتهم . وأصلتت مصاليتهم . ونشرت طواميرهم . وتسعرت مساعيرهم . وهاج هائجهم . وماج مائجهم . ودعت دواعيهم . وعدت عواديهم . وسعت افاعيهم . وحضتهم

قسوسهم . وحرضتهم رؤوسهم . وحركتهم نفوسهم . وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود . منشورة البنود . موصولة القواطع بالاشاجع مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهودة الكتائب . مقودة الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة العزائم . مجذونة الصلادم . مسلولة الظبا . مطاولة الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسنونة اسنة صعادها . مطلقة اعنة جيادها . محققة مظنة طرادها . قد سالت الوهاد باكامها . وجالت الأعلام في اعلامها . وسدت الفجاج امواجها . وحجبت الغزالة عقبانها . والهبت الذبالة خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجرت كالحبال رماحها واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بالعظائم قبيلها . ووافى كل واف بعهد ربه . كاف اكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضاف بفيض شربه . خاف في لبوسه . باسل بباسه . عاسل بأمراسه . ناسل بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند بسواعده . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده . جاد بجده . وكل شاب لنار الحرب شاب . ورب دين لدين الرب راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي ذباب عن الهدى ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مال . واقبل السلطان باقبال سلطانه . وابطال شجعانه . واقيال أولاده واخوانه . واشبال مماليكه وغلمانه . وكرام امرائه . وعظام أوليائه . في مقانب بالمناقب مقنبه . وكتائب بالمواكب مكتبة . وذوابل بالكواكب منصله . وجحافل بمضاء المضارب محفله . وألوية صفر للاواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصوافن صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى . وفريقه الاسنى . يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى .

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا .وأي يد له عندنا اذا ايدنا . فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما ادخر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الاقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . وموقف الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ». وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تؤثر انباء الأنبياء وآلاء الاولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالت القدم النبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندها صـلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين . وصحب الروح الامين . وصعد منها الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السـلام الذي قـال الله فيه : « كلما دخـل عليهـا زكريا » . ولنهـاره التعبـد والليله المحيا . وهو الذي اسسـه داود واوصى ببنائه سـليمان . ولأجـل اجلاله انزل الله « سبحان ».وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت بـه سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمـه . واعلاه واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن حالاته واحلى محاسنه . وأزين مباهجه وابهج مزاينه . وقد اظهـر الله طوله وطوله .بقوله : «الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومـزاياه . مـا وثـق على اسـتعادة آلائه مواثيقه والاياه . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفـع بـأعلاه علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصـفي الى صرخة الصخرة .ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقـا بكمال النصرة وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع ألحسرة . ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفـر قـد وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشـجب . والقـدر قـد اظهر العجب . وكان في القـدس حينئذ مـن الفـرنج سـتون الف مقاتل . من سائف ونابـل . وبـطل البـاطل . وعاس عاسـل بالعاسل .قد وقفوا دون البلد يبـارزون ويحـاجزون . ويعـاجزون ويناجزون . ويرمون ويدمـون . ويحمـونه ويحمـون . ويحتـدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشـبون ويسبون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتغـوثون . ويلوذون ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمـون . ويتململون ويألمون . ويتعاوون . ويتضاعون ويحترقون للبـلايا . ويقتـرحون المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضـال . ونازلوا اجـد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح . لارواء الظبا الظمـاء مـن مـاء الأرواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الآجال . وصالوا لقطع

الاوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبوا ونشبوا . واستهدفوا للسهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق . ومري من آفاتها الافاويق . واصرخ الصخرة بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم العبوس . ويلقون على الردى النفوس . فللداوية دوي . وللبارونية من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . وما للفريرية من الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب . وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكائن المجانيق مجانين يرامون . ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال . ورجال تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكم نجم من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها ينفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات نكاياتها . وركات اد راكاتها . ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تقلع بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتح بأشطانها . وتمرح في ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصدع . وتنهز بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد بضربها من اساها . وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف . واخذ النقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنار خندقه . وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وابى في تأمينهم الا الاباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري بالشر . ونقتحم اقتحام المستضري من الضر . ونلقي انفسنا على النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فإنا نعطبها ولا نعطيها . واما الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا نستبطيها . فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد السلطان محضرا المشورة . وأحضر كبراء عساكره المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاورهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستشكف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصالحة المربحة . وقال ان الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها . وأن فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه العبادة . ورأيك حاشد .وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد . واستقر بعد مراودات ومعاودات . ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امراة خمسة وكل صغير او صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء . فمن سلم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الابواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب . ووكل بكل باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى . وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلي من السور بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهبة . وفي التمسك بملتها متعصبة . انفاسها متصاعدة الحزن . وعبراتها منحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال وا شياء وا شياع ومتاع واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن أدعى انه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ من أحد الدواوين خطا بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا امناء . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والذفع وبقي من بقي تحت رق واسار • ينتظر به انقضاء المدة المضروبة • والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة •

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج . وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيأة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الابرار . ووجهه بذور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه مفتوح ورفده ممنوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبته تروق ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة الامل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسته به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف ينشدون وينشدون . والأعلام تبرز لتنشر . والاقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة تخشع . والالسنة بالابتهال بالله تضرع . والكاتب يذشي ويوشي ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلمي الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي الطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعي الرسائل . ويشيع الفواضل . ويشبع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر . ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر . ويسمن الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلاف والوفاق . والارقاق والاعناق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع العروش . ويوحش المستأنس المستوحش . وينعش العاثر ويعثر المتنعش • يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء •. فبشرت باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت فضيلتها وبينت . واديت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من النوبة فأقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدبيري وادبر علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة في النفس وأنست بابلالي بعض الانس وامنت لو ثوقي بالصحة والاستقامة من النكس ، فاوجهت الى تلك الجهة وسرت بطاعة النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المنكرهة واخترت تعب السفر على راحة الاقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة وسرى عنه وسر وابر وبر وقال:اين كنت.ولم ابطأت.وحيث اصبت في المجيء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك.والسؤال عن اخبارك.وهذا اوان احسانك.فاين احسان اوانك.فاجر بنانك بجرأة بيانك.واجر في ميدانك.وما للبشائر الا واصفها.وللفرائد الا راصفها . وللفصاحة الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها . واقتضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز.فقال لهذا من هو اقوم بـه وعناني.فلما رآني ناداني واستدناني • فصرفت الى امتثال أمره عناني • وسلم إلى الكتب التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :
غيرها . ولا تسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها . وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بـايات الذكر . فاستجديتها فما استجدتها . واستجدبتها فما استملحتها . وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في افتضاض الابكار . واقتضاء الافكار . واقتراح القريحة . واقتراء رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت واشبعت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت . واطربت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت وجانست . ووافقت وانست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه . وذكرت من هذا كل ماراق وشاق . وذور الافاق . وان هذه الفتوح تفوح بارج نشره . وتحيى بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه . وماا سعد امالنا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف . ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي . وحليت المعالي . وقرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت : (شرع لكم من الدين ماوصى)(الشورى ٤٢) وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق . وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مـايساوى اكثـر مـن عشرة . وجدوا في ضم ماوجدوا من امـور لهـم منتشره. وكنسـوا كنائسهم . واخـذوا مـن نفـائسهم . ونقلوا منهـا الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحـريريات والمذهبـات . مـن الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ماكان على القبـر مـن صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجمع ماكان في قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للسلطان،هـذه امـوال وافره. واحـوال ظـاهرة . تبلغ مـائتي الف دينار . والامـان على امـوالهم لاامـوال الكنائس والاديار . فـلا تتـركها في ايدي هؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولانتركهم يرمـون اهـل الايمان بنكث الايمان بل يتحدثون بمـا افضـناه مـن الاحسـان . فتركوا ماثقل وحملوا ماعز . وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور .وكتفوا بالديجور . وبقـي منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحـق فـاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقـدير سـبعة آلاف فـانهم الفوا نلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي أيدي سبأ . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهـاد والربـا . واحصـيت النسـاء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسـمة • واصـبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكه ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت .وفارغة شغلت • وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحنت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولمياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة أصحبت . ورضية أصبحت . فـكم تسرى منهن سري . وتجرأ عليهن جري . وقضى وطره عزب . ونفى نهمـه سـغب • وفثـأسورته شـغب . وكم غانية اسـتخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت .ووحشية صـيدت، وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

- ٥٨٧٠ -

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القـطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبـذلوا خـدما وخدموا ببذول . وقابلوا كل مالزموا به بـالتزام وقبـول . واعطـوا الجزية عن يد وهـم صاغرون . وشحت افواهم بما شـجاهم فـزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصـمه . وشـغلوا بـالخدمه . واسـتعملوا في المهنه . وعدوا المنحـة في تلك المحنة .

ذكر ماظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحـراب . وحتـم بـه امـر الايجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذوه مسـتراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قـد بنوا مـن غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسـة رفيعـة . فـاوعز بـرفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف مـاحوله مـن الافنية . بحيث يجتمـع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصـب المنبـر واظهـر المحـراب المطهر • ونقض ماحدثوه بين السواري . وفـرشوا تلك البسـيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقـت القناديل . وتلي التنزيل . وحق الحق وبـطلت الابـاطيل . وتـولى الفـرقان وعزل الانجيل . وصفت السـجادات . وصـفت العبـادات . واقيمـت الصـلوات . واديمـت الدعوات . وتجلت البـركات . وانجلت الكربات • وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبـوس والبـوس . وطـابت الانفـاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من معدنه . وورد القـراء وقـرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد . وعبد الواحد . ووحد العابد . وتـوافد الراكع والسـاجد . والخـاشع والواجـد . والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم والقاعد • والمتهجد الساهد . والزائر والوافد . وصـدح المنبـر • وصـدع المذكر . وانبعـث المعشر . وذكر البعـث والمحشر . واملى الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث الرواة . وروى المحـدثون . وتحذف الهـداة وهـدى المتحذفـون . واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المتـرخصون . ولخص المفسرون • وفسر الملخصون . وانتدى الفضـلاء وانتـدب الخطباء . وكثر المتـرشحون للخـطابة . المتـوشحون بـالاصابة . المعروفون بالفصاحة •الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب الرتبة • ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقـا . وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا مـن البـلاغة فـائقا . وفيهم من عرض علي خطبته . وطلب مني نصبته • وتمنى ان ترجح فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهـم طـال الى الالتهاء بها عذقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . ومامنهم الا من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقـرب . وفيهـم مـن يتعـرض ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقـر لبـاسه . وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهـم مـن يقـول ليتني خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعـة رابـع شـعبان . اصبح الناس يسـألون في تعيين الخـطيب السـلطان • وامتـلأ الجامع • واحتفلت المجامع • وتـوجست الابصـار والمسـامع • وفاضت لرقة القلوب المدامع • وراعت لحلية تلك الحالة وبهـاء تلك البهجة الروائع • وشـاعت مـن سر السرور بلبس حبـر الحبـور الشوائع • وغصت بالسابقين اليها المواضع • وتوسعت العيون • وتقسمت الظنون • وقال الناس:هـذا يوم كريم • وفضـل عميم • وموسم عظيم • هذا يوم تجاب فيه الدعوات • وتصاب البركات • وتسال العبرات • وتقال العثرات • ويتيقظ الغـافلون • ويتعـظ العاملون • وطـوبى لمن عاش • حتـى حضر هـذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وما افضل هـذه الطـائفة الحـاضرة • والعصبة الطاهرة • والامـة الظـاهرة • ومـا اكرم هـذه النصرة الناصرية • والاسرة الامـامية • والدعوة العبـاسية • والمملكة الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا فيمن يخطب • ولمن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفـويض • وتحدثوا بـالتصريح والتعـريض • والاعلام تعلى • والمنبـر يكسى ويجلى • والاصوات تـرتفع • والجمـاعات تجتمـع • والافـواج تزدحم • والامواج تلتطم • وللعارفين من الضجيج • ما في عرفات الحجيج . حتـى حـان الزوال . وزال الاعتـدال • وحيعـل الداعي (١) • واعجل السـاعي • فنصـب السـلطان الخـطيب بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القـاضي محيي الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بـان يرقـى ذلك المرقى • وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى • فأعرته من عندي اهبة سوداء من تشريف الخـلافة • حتـى تـكتمل له شرف الافـاضة والاضافة . فرقى العود . ولقى السعود . واهتزت اعطاف المنبـر . واعتزت اطراف المعشر . وخطب وانصتوا . ونطق وسكتوا . وافصح واعرب . وابدع واغرب . وابدع واغرب . واعجز واعجب .

واوجز واسهب . ووعز في خطيتبه . وخطب بمـوعظتيه . وابـان عن فضل البيت المقدس وتقديسه . والمسجد الاقصى من اول تـأسيسه . وطهيره بعد تنجيسه . واخراس ناقوسه واخـراج قسـيسه . ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقـوله تعـالى « ان الله يأمـر بـالعدل والاحسان . (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب . وافتتح ببسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك الامة . وثم نزول الرحمـه . وكمـل وصول النعمـة . ولما قضـيت الصـلاة انتشر الناس . واشـهر الايناس . وانعقد الاجتماع واطرد القياس . وكان قد نصـب للوعظ تجاه القبلة سرير . ليفرعه كبير . فجلس عليه زين الدين ابو الحسن علي بن نجا . فذكر من خاف ومن رجا . ومن سعد ومن شقي ومـن هلك ومن نجا . وخوف بالحجة ذوي الحجا . وجلا بنور عظاته مـن ظلمات الشبهات مادجا . واتى بكل عظه للراقدين موقظة . والظالمين

محفظة . ولاولياء الله مرققة ولاعداء الله مغلظة . وضج المتباكون . وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت النعرات . وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون . واناب المتحوبون . وصاح التوابون . وناح الاوابون • وجرت حالات جلت . وجلوات حلت . ودعوات علت • وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة . والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولاالعيون المدركة ملمسا ولامطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبه . وقالوا محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير. والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة• فامر السلطان بكشف نقابها . ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها ونقض بنائها . وفض غطائها . وابرزها للزائرين . وأظهرها للناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراءة حسنها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجلاء شرفها الصريح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازينهم طلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والنشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى اليه معروفا دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات . وربعات معظمات . ولاتزال بين ايدي الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه • قومه تشمل مصالحها ضامه • فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون • فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع • وزهرت الشموع • وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين الدموع • واستعبرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايوبه له لو اقسم على الله لابره • وهناك كل من يحيي الليل ويقومه • ويسمو بالحق ويسومه • وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسحار • ومن الفته لتهجده الاوراد والاذكار . وماا سعد نهارها • حين تستقبل الملائكة زوارها • وتلحف الشمس انوارها أنوارها • وتحمل القلوب اليها اسرارها • وتضع الجناة عندها اوزارها • وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها • وماا ظهر من تولى اظهارها • واطهر من باشر اطهارها • وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية . ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بانت مقاطعها . فهي الان مبرزة للعيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهـذا كله تـم بعـد انفصـال السلطان . والشروع في العمران • وامر بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثـر بهـا مـن الاثار الحسنة . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشـكر الالسـنة . فمـا منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ماامكن . وجلى وبين وحلى وزين.

واشـفق وانفـق . واغنى واقنى . واعتني وابتني . ووفى واوفي . واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمـة . وفضـيلة بهـا تـرجع . ووسيلة بها نجح . واتي الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم بـه العرف وغمر . ونهى وامـر . وبنى وعمـر . ومـن جملة افعـاله المشكورة • ومكرماته المشهورة • انه حضر يوما في قبة الصـخرة . مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولاجـل الصدقة والرفد مال . فانتهز فرصة هـذه الفضـيلة التـي ابتـكرها بالافتراض . وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسـلها بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت،

وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتـى بمجـامر الطيب فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى • وأرغمت آناف العدى • ومازال مع قوته • في تطهير البقعـة المبـاركة طـول يومه • حتـى تيقنت طهـارتها • وبينت عمـارتها • وراقـب نضارتها • ووقفت عليها الاستحسان نظارتها • ثم فـرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق • وافتخر بأن فـاق الكرام بـالانفاق • وجاء الملك الافضـل نور الدين علي .بـكل نور جلي • وكرم ملي • واحسان سني • وانعـام هني وعرف زكي وعرف ذكي • وعطـاء مبتدع • وانطلاق بحمده الالسن • وبسط بها الصنيعة وفرش فيهـا البسط الرفيعة • وهدي واهـدى • واعاد بعـد مـاابدى • وانار واسدى • وافاض الندى • وفض الجدا • ونفض الاكياس • حتى خلنا به الانفاض والافلاس • وسيأتي ذكر ماعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه • واعجز بما اعجـب مـن سـوابق معـروفة

ولواحقة ٠ مالم يشق احد فيه غبارة ٠ ولا ملك سابق فيه مضماره ٠
واما الملك العزيز عثمان ٠ فانه اتى بـالاحسان الذي اسـتظهر بـه
الايمان ٠ وذلك انه لما عاد الى مصر ٠ وقد شاهد الفتـح والنصر ٠
ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ٠ ولم ير بعد حصولها به نقلهـا ٠
وكانت احمالا باموال ٠ واثقالا كجبـال ٠ وذخـائر وافية ٠ وعددا
واقية ودروعا سوابغ ٠ ونصـولا دوامـغ ٠ وخـوذا وتـرائك ٠
ورماحات ونيازك ٠ وقنا وقنابل ٠ وصدواقل وذوابـل ٠ وجـروخا
وقسيا ٠ ويمانيا وهنديا ٠ يزنيا ٠ وردينيا ومشرفيا ٠ وزيارات ٠
وذفـاطات وقـطاعات٠ وعدد النقـوب . وجميع ادوات الحـروب .
فاستظهرت بها المدينة . وتوثقت بها عراها المتينة . وكان مـن جملة
ماشرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم . ويخرجوا قبل ان
يستوفي الباقون في اداء القطيعة مدتهم . فتـوفرت بـذلك عدد البلد .
واستغني بذلك عما يصل من المدد .

ذكر محراب داود عليه السلام . وغيره مـن المشـاهد الكرام وتبطيل الكنائس . وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصـن
عند باب المدينة منيع-وموضع عال رفيع . وهو الحصن الذي يقيم به
الوالي . فاعتنى السلطان بـاحواله الحـوالي ورتـب له امــاما .
ومؤذنين وقواما . وهو بمثـابة الصـالحين . ومـزار الغـادين
والرائحين . فاحياه وجدده . ونهج لقاصديه جدده . وامـر بعمـارة
جميع المساجد . وصون المشاهد وانجاح المقاصد . واصفاء الموارد
للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما
السلام . وكان ينتـابهما فيهـا الانام . وكان الملك العـادل نازلا في
كنيسة صهيون . واجناده على بابها مخيمون . وفـاوض السـلطان
جلساؤه من العلماء الابـرار والاتقياء الاخيار في مـدرسة للفقهـاء
الشافعية . ورباط الصـلحاءالصوفية . فعين للمـدرسة الكنيسـة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط • وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ماولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة • وحرم على النصارى زيارتها ولاالالمامة • وتفاوض الناس عنده فيها •

فمنهم من اشار بهدم مبانيها .وتعفية آثارها . وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة أباطيلها . واطفاء قناديلها . واعفاء اناجيلها • واذهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليها . ونبشت المقبرة وعفيت . وأخمدت نيرانها وأطفيت . ومحيت رسومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضها . انقطعت عنها امداد الزوار . وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها ولا هدها . ولايؤذن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء . ولاينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولونسفت ارضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الأعز الكريم . والشرف الذي نخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . وافتضاض عذرته . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى بــه مــن سراره . وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى مــاكانت موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس . وقد اقصي عن المســجد الاقصى الاقصــون من الله الابعدون . وتــوافد اليه المصــطفون الاقــربون . والملائكة المقربون . وخرس الناقوس بزجل المســبحين . وخــرج المفســدون بدخول المصلحين . وقال المحــراب لأهله مــرحبا وأهــلا . وشــمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة مــاجمع للاســلام فيه شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت مــن بــره أوفى نصيب . وتلت بالسنة عذبــة : « نصر مــن الله وفتــح قــريب» . (الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بــدموع المتقين مــن دنس المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد يذسي من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجــاز المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجــدد لهــا مــن البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثــاني المســجدين . بــل ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر.وتــطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أدناس الارجاس . وتضــوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحــاش بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمــة عليه لبــاس البــاس . وجعــل عصر مــولانا أمير المؤمنين صــلوات الله عليه على الاعصر مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخــر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامــه فتــح البــلاد الســـاحلية بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطــاغية مــن الفــرنج بقتلهــا وأسرها . ولقد حــل الكفــر عروة عروة . وهــد ذروة ذروة وعادت حباله رثاثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعــد أن شوهد اهل الذمة أحــداثا . فــالرتاج مســـتفتح . والرجـــاء مستنجح . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة . والعقائل مفتضه .والمعاقل منفضــة . ومناهــل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسـيوف أهل الايمان منقضه . والثغـور مبتسـمه . والأمـور منتـظمة . والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مسـتسلمة . وأرض الكفـر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يسـتولى على اوسـاطها وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعهـا وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي فـي جميع أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جـلالة العـظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربـي ولو جئنا بمثله مددا ° » (الكهف:١٠٩) والقاضي ضياء الدين القاسم الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العـرف مـن كان بـأوصافه عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة مـن تفـي بشرح الصـدور مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بـانهاء مـاتسنى من فتحه . ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه .

عادالحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتي تسلم مـابقربها مـن حصـون . واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسة وجوده ذائدا . ثـم تبعـه الملك المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما جمعه ففرقه . وأخـرجه في ذوي الاسـتحقاق وأنفقـه . وفـرضه بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسـهم منه ابـن السبيل . وحمل به عن الغارم . واحيى بـه سنن المكارم . ووضـعه في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي الاضافة . والانفاق في أهل الفـاقه . واجنى الاجناد منه مقـاطف .

وجعل المجاهدين منه وظائف . وابقاه بافنائه ذخرا للاخرة . وكسبا المحامد الفاخرة . فاكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما فضه بفضله . فقال كيف أمنع الحق مستحقيه . وهذا الذي أنفقه هو الذي أبقيه . واذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فانه يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة احفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتفيأ كل فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل . والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوارد . والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون للطرائق . والمالكون للحقائق . فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح . وراويا للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحصا عن مشكلة وموردا لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي . ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا بتعريض أو جالبا لمدحه . أو طالبا لمنحه . او مستضعفا بفاقه . او مستسعفا بافاقه . أو ناشدا بنشيده . أو مسمعا بتغريب وتغريد . وما فيهم الا من أحظي بسهم . أو ارضي بقسم . وأصيب وأجيب . واجيز بتقرير وتقريب ، فقيل له لو نخرت هذا المال للمآل . لاشفيت به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال . فقال أملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء المطلقين . وكانوا ألوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم . وواساهم . وأذهب اساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره . ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في مصالحه مستديما . فقيل ما قعودك عن صور . فأنهض اليها عسكرك المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظى منها بمرادك وسؤالك ، فأذو السير . وآخو الخير . وأحصر الخبر . واحظر التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضة . وفي بدار الامام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بابدارها . فأسر بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال وأقطع . وأكثر من كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

بالمشطوب . وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وبيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحض . وحرض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها. وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا . وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق اليها مضيقا .واحكم اسباب الاحكام . وأخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان .وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة .ثم اوصاه وشيعه واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظهرا بأخائه . ومستبشرا بآلائه . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستغنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل .وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضه .وللخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة ٠ ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه .باهرا بتاخيره وتقديمه .قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره .وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهله .ويحرض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه ملبيا . ولجيش النصر معبيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة . بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها . سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . منشورة راياته منصورة آراؤه . خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجح في الانحاء ثرات صوب صوابه.قد كست خيامه عري العراء . وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء . واحتوت مضاربه المضيئة بالائه وآرائه على مضارب المضاء . وباحت استباحه حمى المشركين الموحدين بسر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المدد . وتكامل العدد . واستحضر الات الحصار . واستكثر من المجانيق الصغار والكبار .ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس .في خميس يسير في الوشيج كالاسد في الخيس .ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس .فوقع في الدردبيس .والعذاب البيئس . فكانما نفخ في صور صور . فحشر أهل جهنم وملأوا السور *. واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروخ . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت الحجارات حاجرة جاجزه . وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا . وعاجوا وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا .وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا من الشرافات الشرفات . بالشرور والافات . وسلب الحجار حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت * ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نزفت . وطود نسفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صغيرة . وانهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتي . فصدف اتيها الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبط رجالهم برجاله . وقابل الابراج بالابراج . وحاول بالردى علاج العلاج . ووالاها حجارات وصخورا . حتى جعلت سور صور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي . فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام المغصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لصم الصفاح مصافح ، وكل جاندار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار ، وكل منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال بالهدى لاصماء أهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الافق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدام قرنه دام ، وكل ضرغام صريعه في رغام ، وكل قمقام ضارب بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل زمر مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح مزيح ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد ساع ، وللاسلام راع ، وللاشراك ناع ، وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر الناس بشجاعته ناج، وبباغت المذون لمن يلاقيه شاج ، وكل عتال عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين . فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا . وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الاقواس الى أوكار الاحداق أفراخا . واستصرخوا الاقدار لاقدارهم فحبتهم حين أحبتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا الشقاء لاولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والان الشديد . وأعان

السيد . وأفلح فقلع الحديد بـالحديد . أوجـد الجـديد ومـد المديد وصور مرتجة أبوابها. مرتجة أربابها. مفتصة جـوانبها . ومـرتصة عصائبها . مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابهـا . محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشوة كتـائبها. والمركيس بهـا متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسـخط لبلده . وارتبط بجلده واختلط بـكمده . وغلت مـراجل غلوائه وعدت غوائل عدوانه . وطـاش وجـاش وأوخش الاوبـاش والأوخـاش(٢) . وتوشح بالشر وتوحش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره . وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجله في مكر مكره . وكر في وكره وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعسر وتسعر . وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . مـاض عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسـه . قـد اتسـقت اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فـازدحم على بـابه وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجـار جـار . وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب . وكل هـاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب مجرد وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشـكور . وكل ليث مـلاث . وكل غيث غياث .وكل سفاك لدم الكفر سفاح . وكل جـراد اسـيف الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتمن في نقعه .ملتم بزغفه . مثلم بحرفه .مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سابح في بحر الموت بسـابحة . سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمـراءه . واسـتحضر عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه مـن الارض مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطـريقه الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه.. وقد قطعو بخندق في عرضه . وعمقـوا ونزلوا في أرضـه . وكان مـن احـكام الحزم . واتمام العـزم . تـكميل الالات وتتميمهـا ، وتحصـيل المنجنيقات وتقديمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها . وتقريب الجفاتي وتصفيفها ، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها ، وتنحية أثقال العسـكر وتخفيفهـا ، وتنخية نخـب الرجـال

وتصريفها ، وتسنية الاسباب ، وتهيئة الاخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الانصار ، فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياع ، وتيسرت وتوفرت الاصول والاتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، واذا حالت الاحوال وضاعت الاوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وازاله الخلل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الامل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل مابتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصفت من سور صور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لقلاع ، ومدبر بايجاف.ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارهاعقبان الجروخ ، واطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد الف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله.والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شده شدة ، وفي جده جدة ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولامصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكا ن السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا ماكان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان وللردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل ، فاستشعر المركيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها مناكب ، وسفننا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريها ، وتجري سواريها وتسري جواريها ، وتطير للقنص بزاتها ، وتغير للفرس غزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتلاطم الأمواج بأمواجها ، وتزاحم الأثباج بأثباجها ، وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواه بأقلاعها ، وتنقض على شياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآبيب الذعر سحبها ، فكأنها الاساود والسود ، وركبتها الاسود ، من كل افعوان يحمله افعوان ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشتات العدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالها من اغربة دارت بعقبان . وأجنحة طارت بظلمان . ورواس سوار ، وغواز بغوار ، وقد ملئت برماة الحدق وحماة الحلق ، وزراقي النار وطراقي الثار ، والخاطفين بالخطاطيف . والقاذفين بالمقانيف والكالمين بالكلاليب . والسالبين بالاساليب والحاربين بالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فانشقت مرائر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصت جناة الجنوية ، وكرثت ادواء الداوية.وكثرت اسواء الاسبتارية . وزادت آلام الألمانية،وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم في المينا لاتبين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت جبالا تسفن . وأنس اصحابنا بعلو الأمر ، وخلوا البحر.وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف.ودام

تطوا فهم.وا ستقام ايجافهم . وا غتروا بالسلامة.وسروا بـالا ستقامة، وباتت لنا شوان خمس . لها بزوال الوحشة انس.وربـطت بقـرب مينا صور راصدة ، ولأخذ مايخرج من شوانيها قاصدة ، والدياجي مدلهمة والدواهي ملتمـة، وعيون الزهـــر را قـــدة.وعيون الكفـــر ساهدة ، وللمكايد مصـايد، وللعـوادي عوائد، وللغـــوائل طـــوائل، وللمسائل دلائل ، وللمقادير مقـادر، ولا ولذلك المراد مـراد ، فحفـظ اصحابنا الى السحر الحرس ، وسـهروا الى أن شـارفوا الغلس وكل منهم لما استأنس نعس.وغاص في النوم وماتنفس.فما انتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقة ونيرانهم محرقة . فـولجوا في البحـر والتجوا . وتطافروا (٤)الى الماء لينجوا وعدت العداة وأخذت تلك الشواني الشناة واسروا منها عدة.ولقـي البـاقون شـدة.فـاغتم السلطان بسبب هذه النكبة.وفرح الكفـار بتلك الضربـة.وكانت تلك اولى حادثة كرثت،وكارثة حدثت.ونائبة رابت،ورائبة نابت،فضـاقت القلوب، وضاقت الكروب،وحصلت تجربة الغارين . واتصلت حـركة القارين . واستيقظ الناعس.واستوحش الآنس .وهب الراقـد.ودب الراكد ، وذاب الجامد . وشب الخامد.وهاج الزائر،ومـاج الزاخـر، وتحرك الساكن، وتورك الراكن.وعقل من غفل.وذهـن من ذهل.وتيقـظ من غفا ، وتحفظ من هفا، وتقبض من انبسط.وتقيد من نشط،وهـم من عف،وألم من كف.ورجفت الآفـاق بـالمرجفين.وطـالت ألســـنة المعنفين.فمنهم من يؤنب ويذنب.ومنهم من يقـول ويطنب . والعـاقل ينجنب . ويقيم العذر لمن يذنب.ويقول هذه مــن الله مـوعظة،وآية لنا موقظة.

..

واشار الناس بانفاذ الشواني البواقي، وقطعوا بان هذه القـطع لاتكفي لملاقاة في يلاقي ، فجهـزوها نهـــارا وصـــيروا سرهـــا جهـــــــــــــــــــارا .وامـــــــــــــــــــــروا بتسييرها الى بيروت . ورجوا ان تسبق وتفوت . وركب العسكر في الساحل يباريها . وهي بالقرب تجـارية في البحـر وهـو في البـــر يجاريها . فابصر ملاحوها شـواني الفـرنج لمبـارزتها مبـــرزة . وللاجهاز وراءها مجهزة .وكانوا رجالا من بحــرية مصر مجمعــه .

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظارهم مروعه . فتواقعوا الى الماء . وخافوا على دمائهم في الدأماء (٥) . وخرجوا الى البر على وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروههم . وفروا وفاروا . وطاروا وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدهم دعاؤهم الى التجمع الا تشتيتا . فظهر بهذه النوبة الواقعة . والنبوة الرائعة . ان نواب مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتب فيه على ما يراد رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة . ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة . فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري والتجرية ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحةالدفاع . وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات . وهيهات ان يدرك هيهات . فنجا النجباء . وآب بهم الاباء . فبقيت المراكب الباقية . وقد اخلاها حماتها الواقيه . فرفعناها الى البر . ورأينا الصحة منها في الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحر . وهذا والمنجنيقات ترميهم . والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم . والقتال قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار تقلقل . والاسوار تحلحل . والاطوار تضعضع ، والابراج القيام تسجد وتركع . والاصلاد تقدح . والاجلاد تقرح . والالواح تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح القوارع موسومة . والحنايا واترة موترة . والمنايا مأثورة مؤثرة . وظعائن الضغائن تحدي بصليل البواتر . وصهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بألسنة الاسنة.وعنت الاعنة من الغريم الكافر . والاوداج شاخبة كالعيون البواكي . والابشار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي . وهناك العقل معزول بالتهور . والرأي مشغول عن التدبر . والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرخي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بلا اله الا الله . والزراق بالنار يطيب القاروره . ويحرق الساتورة . والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظنوا فينا الفتور لأجل تلك الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبها . وكتائبهم اختل ترتيبها . وستجرى بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم . ولا وجه لتباعدنا منهم . فلوخرجنا صدمناهم . وأقدمنا عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوما قبل العصر . في عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأموا وانضموا والتظموا وتقدموا . وأقدموا الطوارق حاملين . والجمالات مطرقين . وعلى الفرق مجتمعين . والجماعات مفرقين . وبالرهق جادين . وبالجد مرهقين . والعقود حالين . ومن الغمود سالين . والمناصل منتصبين . والطوائل مقتضين . والسيوف مجردين . والسيول مجرين ، وبالزغف ملتثمين . وفي الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مغوار وار . ومحضار ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عذود . وكند كنود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا وتر . مصمم اذا اوتر . مصمم اذا نعر . مصر اذا ذعر . هائج اذا استعر . مائج اذا نخر . متنمر اذا زأر . متذمر اذا زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبذوا من متارس المنجنيقات . وجذوا من مغارس الجذويات . وبذوا امرهم على ان الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجار الى الاقدام . ملب للصوت . محب للموت . مشتهر باغناء . مشته للقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متقاض بالقواضب القواضي . وكل ابيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض . واغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعادة . متمن للمذون . متجن على الحذون . مضرم نار الحديد في ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العديد . مفرغ ماء الظباء على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثم باللام . وتلفع بالاثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجوشن بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب . وجال بالهضب . وطال بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتار . من كنين الأوتار . وهفيف السهام . لذفيف الهام . وصليل بنات الغمود . من غليل ابناء الحقود . وهمهمة الابطال . وغمغمة الأقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقرع الظبا بالظبا . ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من الحديد . وعجة الشديد . وجعجعة رحى الحرب . وقعقعة اداة الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهديل حمام الحمام . وهدير قروم الايدام . ووعوعة ذئاب الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدعة صاع المصاع . وجلجلة سباع القراع . وصلصلة الزبر . وولولة الزمر . وحيعلة دعاة النصر . وهيضلة رعاة الكفر . ورفرفة المريشات الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة اعطاف المران . وزهزهة اصوات الشجعان . ونعير الغالبين . وصخب السالبين . ولجب الجالبين . وزحير الطالبين . ونهيت (٦) الأسود . وقصيف الرعود . وهدة الأركان . ودهدهة الرعان . وقهقهة الأقران . وقرقرة كوم البكاء . وصرصرة بزاة الغزاة . وكشيش صلاص الضلال . ونشيش مراجل الرجال . وهزيز ريح الياس . وهزيم رعد المراس . وارنان المعاجس . وارزام القناعس . وهيعة الصارخ . وصيحة النافخ . وزعقة المستفزع . ونعقة المستنزع . وشعشعة الخرصان . وزهزمة النيران . وهينمة الاجل . وجمجمة الزجل وتكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابواب الجنان للشهداء . وصريف انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعت الاصوات . واشتبهت

الاحياء والاموات . ووقـــع اصـــحابنا فيهـــم وقـــوع النار في الحطب . واروهـــم في مـــرايا البيض وجـــوه العـــطب. وولوا مدبرين . بعد مـاتولوا مـدبرين وجذوبنا تشـــلهم . وجـــدودنا تفلهـم . ولتـــوتنا تـــرضهم . وليوثنا تفضـــهم . وعادوا الى البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهـم نوادب . وايدي الردى بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخــل الليل . وعمهـم الويل . واسرنا منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، وممن اسر فخسر قومص عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشـف عن حـاله بالنهار . وكان الملك الظـاهر غازي . لم يحضر فيمـا تقـدم مـن المغازي . فرأى ان يحقـق اســـمه بقتله . فضرب عنقـــه بحـــد نصله . وكان المركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فـظنوا انه هـو الشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثـم عرف ان المركيس في نفسه لم يذكأ ولم يذكب . ولما عطب اشـياعه لم يعـطب . وندم على ماقدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر مادبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتـــج العـدو ولج . ضـــجر العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الاقـلات . ولا يكرهـــون الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومـــزاولة مـــالايزول تصعب . ومحاولة الممتنع محـــال . ومـــطال غريم هـــذا الفتـــح مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لايكترث بالكارث . ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمـــن ولي أو ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا مـــن النصب ، وكل مـــا جـــرى الى اليوم منا ومـــن القـــوم لم يرعه ولم يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف الســـبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعافه . وبم نتوسل ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله يحتوي الاقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومر به ما امروه ، وهمه ما به هموا . وآله ما به ألموا . فراسلهم بالهيبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه ، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة اذا فاتت لا تدرك ، والبغية اذا وانت فحقها تملك ، ونواظر الناس الى ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت منها في الكفر شقاته . والنصر قد آن أن تطيب نشقاته . والمركيس ابعده الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لاالتطاول الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . واذفقه في اهل باسه . وواصل البذل وهجر العذل . وملأ الايدي بالغنى . وروح الرجاء نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعادة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . ودنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانت . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام النكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولايشتطون ، فاول ماقالوا امهلونا حتى نعلم مايكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بذفانه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر الدين دلدردم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لنسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبى الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس ، واذا ابيتم التسليم عدمتم سلامتكم ، واقمتم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولمقاتلة اهلها مستديم . والى ماعند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن .وشقيف أرذون . ومن عمل طبرية والغور: صفد.وكوكب.وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين ٠ من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صـور محـاصرا . والدين الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح . ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تسـتكين . وشـدتها تلين وابيتهـا تدين وسريرها يبين . وكان قد دخل كانون . وظهر من سر الشـتاء المكنون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي النشاط . وعادت العـزائم المتـوهجة تبـرد . والصرائم المتـأججة تخمد . والنخوات المتحـركة تجمـد . والحميات المتيقـظة تـرقد . والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخذم ينبو . والطبـاع تتـكره . والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختـل . ومعـاقدة النزال تنحـل . فلحاهم السلطان على مالاح .وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفـر الا مـع الصـبر . وان الظلام تنجلي عند تجلي الفجر . وكان في الأمـراء جمـاعة منتجـون منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة ولاكراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقـام ويؤثـرون بانفسهم في طاعة الله وموافقة السـلطان . وعصـيان الشـيطان في مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا راي المشـير به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا . وقالوا كيف نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . وننشر كفـرا طـويناه ونهجـر خيرا نويناه . ونداوي توحيدا شفيناه . ونشـفي اشراكا ادويناه . ومااللراحة اليوم طالب . الا وهـو غدا بالتعب مـطلوب . ومـن امسى وهـو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصـبح وهـو مغلوب . وهـذه صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شفهت . واذا تخلينا عنهـا وخليناها ترفهت واستفرهت . واذا حلمنا عنها سفهت . وهبت مـن غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بـالمثابرة مثاب . فمنهم الامير طمان بـن غازي مـاطمأن يومـا في الفـزو ولاسكن . وعز الدين جرديك النوري كم جـرد على اعناق المشركين سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدامان . من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخـر بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكرهون . واما الباقون فانهم احبـوا البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الاتقاء . وابوا الا الاباء . وقالوا قد

لفينا . ومابلغنا . وجرحنا ، ومارجحنا . فلورحنا استرحنا . ثم عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر . معتذف العقل . مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم . عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وثلم مابرى من غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مباني البلد هدم اكثر منه مباني الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأسا واقداما . ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع النواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد . وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت . وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم . واجترأ اصحابنا . وراض جماحهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في البحر خلف منهزميهم . واقدم من احجم منا لاحجام مقدميهم . فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض . وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم اياما . لذلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم.

والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا . وفينا الجريح والطليح . وحتى متى لانستريح . وقد توالت الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات كثيرة . والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . ومازالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل . ويقولون لاتتعب على تحصيل المستحيل . ولاتذهب الايام في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفق امـوالا كثيرة على تلك الالة والعدة . ومالمكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولو ابقـاها لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فـرأى نقضـها . وفـك بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشتت بعد التجمع شـملها . وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب مـاتكاد تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتـأخر السلطان وتبـاعد عن قـرب صـور الى المنزلة الاولى ويد ايده على جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف .وتزود للانفكاء والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . وذهـب من ذهب على مـواعدة في المعـاوده . ومسـارعة في الرجـوع الى المساعدة . وودع الملك المظفر تقـي الدين مـن هناك . واوعد بـوعد عوده الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا .وان هذا الهدو الذي مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا . وبقي السـلطان يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الفتـح الذي مـادركه . والذين اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب .ويقـولون نمضي ونعود . وتسـاعدنا السـعود . وتتجـدنا الجدود . وتتجـدد الجدود . ويورق العود . وتصدق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبـل الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسـعاد وسـاعد الامـكان . ومـازالوا بنا حتـى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهـم احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامرد لمراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عباده . وان تبقـى صـور في تلك الحالة للكفر وكرا . وللمـكر مـكرا وللشرك شركا . ولنار جهنم دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني وعم البرد في القاصي والداني . وتـوحمت السـماء مـن حـوامل السحائب . وتوحلت الارض مـن سـوائل المذانب . والنكب الرياح عواصف عواسـف . قـواصم قـواصف . والسـحب الدلاح (٧) هوامل هوامر رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بتات . وما مع مقامه وثباته مقـام وثبـات . وسرنا عباديد في ابابيد . وبين جليد وجلاميد . على الناقـورة وطـريقها . والاثقال قد ازدحمت في مضيقها . والاحمـال تتـواقع . والاجمـال تتقاطع . والسبل تنسد . والسابلة ترتد . وسـالكت الخيل الجبـل . وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصـل . وتـأخر الثقـل . الى ان تخلص . وتقدم مـن سـبق وتملص . ووصـلنا الى عكا في ثـلاث مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الأمر وتـدمير الكفر . واثقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جـاولي . وكان مـن جملة الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي صابرا مصابرا وهـو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السـلطان لعلمـه بديانته وأمانته . وبأسه وبسالته . ويقظته ونهضته وحزامته . وكله بحصن كوكب الذي على الغـور . وكانت فيهـا جمـرة الاسـبتارية القريبة الجور البعيدة الغور . وقـد تمنعـوا بشـدتهم . واشـتدوا بمنعتهم . وهـو حصن لايرام . وركن لايضـام . ومعقـل لايسـامى ولايسام . وذروة لاتفرع . ومروة لاتقرع . وعقيلة لاتفترع . وبـكر لاتخطب . وقلعة لاتطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت الحصون في سلك الحصول . وظفـر الاسـلام بـالفتح المأمـون والمأمول . وافتتحت طبـرية وأعمـالها . وتملكت أغوار تلك البـلاد وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهمـا . فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة والحمية . ومقدمهم مسعود الصـلتي أصـلتت سـعادته منه سـيفا

إصليتا . لايلفت عن لقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصرة . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم . وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حزب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ماأمر وحلا . وكان ذا دين متين . ومكان من النسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . باردة مقشعرة . أنوارها بائدة . وأنواؤها جائدة . وهزيع جنحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مشيب . لايفرق فيها السماء من الارض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود ° والعدم قد دنا منه الوجود ° فما أحس محمود المحمود ° وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الامير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا الى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع فلما عرف السلطان ماأصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد الى الجنة مآبهم . فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الاسد . والأحمى الأحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول اليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستديما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل للآمال فيها نجحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عوده من صور

استأذن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأذن له وودعه . بعدما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك العادل وأوجه إلى مصر . مستقبل الظفر والنصر . وأقام الملك الافضل بعكا مستقلا بالآراء . ومستهلا بالآلاء . مستبدا بتدبير أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين . ولاقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب اننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من عندنا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج الودق .(٨)وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح الاوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد . وتجللت بابراد الجليد من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام تواصل البوارح والبوارق . ودخل السلطان الى المدينة . وسكن بها في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما الحجة المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وابرام معاقد الحل والعقد . واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح والفضل . واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام واكرام الوفود . واعادة ما بدأ به من افاضة الجود . واجازة الراجين . واجارة اللاجين . واسعاف العافين . وابعاد العادين . وابناء أهل العلم . واغناء ذوي العدم . وانجاح المقاصد . وانجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من الروم وخراسان والعراق . عاكفين على بابه . قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابه . مستسعفين لنعمائه . مستعطفين لابائه . متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه . وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهداه الى سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الاولى . وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي . فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه . ويقر بحكم النزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالك همذان. واذربيجان. واران . وهو عز الدين الطالبي الطالب للعز . الراغب في الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول . ويتصل به سول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها فقربها . وولى عز الدين جرد يك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين منها قطوفا . وأسدى معروفا . وأعطى ألوفا . وأرغم من الاعداء أنوفا . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه . وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة للمتفقهه . وللطلبة المتعففة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل . والنجح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الاجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل مايحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها . ولا أجـرا الا أجراه . ولاهدى الا أهـداه . ولا أمـرا الا أمـره . ولا دارا الا أدره . ولا فريضة الا أداها . ولا فضـيلة الا اتـاها . ولا فـرصة صواب الا انتهزها ولاحصة ثواب الا احرزها . ولارمم فواضل الا انشرها ونشرها . ولا امم فضائل الا حشدها وحشرها . ومـاترك قارئا الا قراه . ولاراويا الا اشبعه وأرواه . ولاحـافظ حـديث الا حفظه من الحدثان ولامحسـن صـنعة الا اصـطنعه بـالاحسان . ولاناظم مـدائح . الا نظـم له المنائح . ولامـوا فيا بقـريض إلا وفى قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي بالتردد في الاعمال. وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال وتعليل السقم وتسـقيم المعتـل . وتحليل العقـد وتعقيد المنحـل. فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حـامد مـن دار الخلافة بالرسـالة في العتـب على احـداث ثقلت . وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعايات في السلطان عثت . في الاحوال.وشعثت.وذلك في شـوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزال.

ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الاكبر . وخص وعم النجح الاظهـر . وقـطع دابـر المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين . أمرني السلطان بانشاء كتب البشائر الى الافاق . وتقديم البشرى بـه إلى العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح مـن الله عظيم . وملك عقيم . وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما انزله الله لنا من الرحمة والرأفـة . الا مـن هـو عندنا اجـل وأجلى . وأعلم

وأعلى . وأجمع لفنون الفضائل . وأعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولاينبه لهـذه المقـامة الا القـويم النبيه . ولايرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فـان الشريف يتضـع شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بـكرت . ومـوهبة ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد . قد هاجر للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله . ونبـه بعـد خمـوله . فسـأل في البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ . وشفع له جماعة من الاكابر حتى خص بأشرف البشـائر . فقلت هـذا لايحصـل له وقع . ولايصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير . وفي هذه النصرة الكبـرى كبير . فـان الرسـول مـن يندب للتفهيم والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم التعـظيم . ثـم سـار المندوب . وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشـير الجندي . فلم تجل به على كفؤ الجلالة من الهـدى الهـدي . وحقـروه . ومـا وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بـكلام اخـذ عليه . وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة نكره . مـا يعرض عن ذكره . فخيل ومـوه . وتنكر وتـكره . وظـن أن لكلامـه أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانهيت الى العرض الاشرف مقـالاته . وعلمت جهالاته . وتجني على السلطان بارساله . وطرق الى هـداه ماأنكروه مـن مقـال المذكور وضـلاله . ووجـد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا . وطلبوا لشـمل اسـتسعاده بـالخدمة تفـريقا . واختلقوا اضاليل . ولفقوا ابـاطيل . وقـالوا هـذا يزعم انه يقلب الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعـت بـالملك الناصر نعـت الامـام الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العـزيز على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي واذفـانه . وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفـل لنا في كشـف سر الامـر بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتـظم في سـلك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . ورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب . ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه . ونشر الاعتاب في طي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد الموهبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الاخ ، فسار وهو يبذخ وقد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، وألحف من ذور الاهبة العباسية نهارا وليلا ، فوصل السير بالسرى وقطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة واشارة رادعة وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امامية ، وهيأة عصمة عصامية وفرند نبوي لاينبو ، وزند وري لايكبو ، ولسان في الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري.وبلاغة بابلاغ . ماليس بلاغ.وفئة وافية وصيفة بصياغة كل غريبة قول ، ورغيبة طول . وكافلة كافية وسني ذور وقار يستعير منه سنير . وثبات خلق يتخلق به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عابيا . جاحدا للنعمة شاكيا . ذاكرا أنه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حرك شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض . وغضب مغض . وافظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامات المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولاتدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا بعشك فادرج.وقلت للسلطان سمعا وطاعة لأمر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم ماقلت ، وقد طلت بارسال أخيك وطلت وماأسعدني اذا شرفت بالعتاب . واسعفت بالخطاب ، والمملوك يذفعه التأنيب . ويزعه التهذيب . على أننا لم نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفر . وأدنى الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجدين . أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما استأذنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

والدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما أرحت من رق الشرك الساحل . أما ازحت عن حق الملك الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والحقته بالبيت الحرام ، وألحقته رداء الاكرام،واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول . وبالسول وحبا ومرحبا بالاقبال والقبول . وماأتى الا بالحب والحبور . ولامرار الأمور . ولاظهار سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصادق يرام اذا وعد ، وماأسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وابدى لمعي . وجمع شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي واصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم لجلالة قدومه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار الكفار ، ومواطىء اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبى الحب ، وسفر وجهه لوجاهة السفير . وأحل محل التوقير والتوفير ، وتبلج له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأميل . ثم حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده ؛ وأدى الأمانة في مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت المعرفة والذكرة ، فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها.وألزمته حكمي عمومها وخصوصها ٠ ووقفته على ظواهرها ونصوصها ٠ وكانت في الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة وخيلت سقطه ، وجلبت سخطه ، وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ ٠ والأسجاع الغلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا وارفق وأوفى منها فضلا وارفق ٠ ومعاذ الله ان يحبط عملي ، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض،ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف ٠ وانتجع بارق الاستسعاف ٠ وقال اما ماتمحله الاعداء وعدا به المتمحلون ٠ وتدفق به المتقولون وتسوق

المبطلون • فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة • ومـاهزرت منذ اعتززت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بـالنعمة السالفة ، يوجب أذفي من هذه الآذفة ، وأما النعت الذي اذكر ونبـه على موضع الخطاء فيه وذكر • فهذا مـن عهـد الامـام المسـتضيء رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الالسنة . ومتي عد سيئة ماعد من الحسنة ، والآن كل مايشرفني به امير المؤمنين من السمة فانه اسمي الذي هـو اسـمى واشرف . واطـراً واطـرف وأرفـع وأعرف . ومازاده ذلك العتب الاخلوص ولاء ، وخصـوص اعتـزاز واعتزاء . ثم قال كل مـا اعتمده مـن نصرة الدين وقهـر اعداء امير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وماتعبدت به سواه . فـاني افترض الطـاعة الامـامية الدين لا للدنيا، ومـاأتقوى فيهـا الا بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتـوح لأمير المؤمنين وقـطع دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقـاصد ، وبعـد الاباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هـجر الساعي ، واجـرى اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر ذعر الخاشي . وجرب غش الغاشي . وخرب عش الغشي . وذوت همـوم ذوي الهمـم ، وأوليت كرامة اولي الكرم ، ومازال السلطان مدة مقام أخـي عنده ، يوري في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تـكدر ذات البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة مـن الاكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له:قد نسب حقـك الى البـطلان . ورميت بالبهتان ولحت طـاعتك بعين العصـيان . فـكيف خفـت

وماعفت والفـــت ومـــا اذفـــت . ورغت ومـــا غرت .
وصدرت وماسبرت • وأغضيت لما اغضبت • وأعتبت لما عوتبت •
وراقبـــــــــت ومـــــــــاروقبت

فقال تذللي للديوان العزيز تعزز بـه أدين . وتـوسلي إلى مـرضاته توصل بالله فيه اسـتعين . فتـواضعي تـرفع ، وتخشـعي تورع ، وحبل حبي متين ، ومـكان قـربي مـكين . وممـا قلت له واوضحت له سبله ، انا كنا بـطاعة امير المؤمنين نطـول ونصـول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت . ووسيلتنا التي نجحت وكتابها مسعودين . وعليها محسودين . وقد شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولاتتثبت لمن لايثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ماني النفس وبالغ في ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ماحلا وجلا جدة وجده ، وكل مايبطل سوق المتنفقين ويعطل نفاق المتسوقين . ويهجن خلق المختلفين . ويزيل تلفيق الساعين . ويزيح سعاية الملفقين . ويتعرف الى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه البشر ماعليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا ومضى ماأمضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفة لابداعه رسما ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطا،وذلك ان امير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت نفره ، ولما نمي الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

-٥٩٠٧-

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله علاءه ، وظاهر آلاءه وضافر نعماءه ، وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده،وأعز أولياءه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه بالايامن مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة ، ودالة على البشرى بالفتح الاكبر ، والنجح الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الابهر . والفضل الاكثر . والافضال الأوفر ، واليوم الانور ، واليمن الانضر ، والفجر الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الاشم الأشمخ ، والمجد الابلج الابلخ (٩) ، والعز الأسمق الأسمى . والنور الأنم الأنمى . والظفر الأجل الأجلى . والوطر الأحل الأحلى ، والشرف الأسنم الأسنى . والعزم الأغنم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى . والصيت الأبدي الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح . وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غوادي النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح ، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه واستحكم وهنه ، وقوى ذكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال حسنة ، وأجدبت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوفة وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام لسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد ، الذي تعالي عن الولد ، وان المسيح ابنه وأربع فيه التثليت فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه ودرج الملوك الاقدمون على تمني استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نفانه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهذا العصر . وأنزل على نصـــلنا نص النصر . وأطلع الليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اسـباب الاسـلام وقـطع دابـر الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثـلاث وثمـانين بقمـع اهـل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخـرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفـر والبأس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصـد الفـرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بـردهم عن المراد وصدهم ، واقمنا بـظاهر بصرى مخيمين على سـمت الكرك ، وقدمنا الطـلائع الى المناهـل ونظمنا سـلك امـدادهم في ذلك المسلك ، حتى وصل الحـاج سـالما . وذل الكفـر عن قصـده راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا للجهاد في سـبيل الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا اسـتدعينا العسـاكر والجمـوع للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمـرنا ولدنا الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ، وسرنا الى الكرك والشـوبك فـاخربنا عمـاراتها ، وأحـرقنا غلاتهـا ، وقـطعنا ثمـراتها ، وأزعجنا سـاكنيها ، وأخفنا آمينهـا ، وأجلينا عنهـا فـلا حياء . وأقمنا النوائح عليهـا في نواحيها ، ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية ، واجتمع بالمخيم الافضلي برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفـراتية ، والجـزرية والموصـلية والديار بـكرية ، فـانتهز ولدنا هناك فـرصة الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسـبوا وسـلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهـم الطـريق ، واخـذت دون خروجهم الى السعة المضـيق ، فثبتـوا ثبـوت الجبـال للرياح العـواصف ، وشرعوا الى عرانين الكفـر اسـنة الرمـاح القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بـن زين الدين ومعـه مملوكنا قايماز النجمـي صـارم الدين ، فلقيا بصـدريهما صـدور العوامل ، وحملا في عسـكرنا على الفـارس والراجـل ، وحصـل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ، ولما قضينا الوطر من تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات اهل النار بالنار حق الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عدنا الى الشام . وقد تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام الفتام وعلق بالفاق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشرا (١٠) شهرا . وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلبوت . وقائد اهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره فراشهم . وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامة رعبهم قائمة . وسوابح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية وسراياهم طالعه . ومقدمات رعبهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض . ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الأعداء . عالية كهمم الاولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في كتائبها نازل القضاء . وسحب نيل الأرض بمثار نقعها . على السماء . وقطعنا الأردن . وتأييد الله مواصل . وقدره باقدارنا على الأعداء كافل . فما المنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف . ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يوم الخميس . وأسد

الوغى قد اتخذت من وشيجها العـريس . هــذا والملك العــادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصــاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبـرية . ان نلاقــي الفــرنج على صـــفورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغــر بـــالاقحوانة (١١) . وتمســـكنا مـــن الله بـــالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبـــل قصـــد طبـــرية الى الفـــرنج في مجمعهم . واشرفنا عليهم في مــوضعهم . فمـــا بـــرحوا مـــن مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتـدنا في صـــحراء لوبية مـــوضعا المصـــاف واســـعا . وفضـــاء لمأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اســـباب الظهـــور ميسرة ° وجـــئنا في خـــواصنا والجاندارية . ونزلنا في العدة المجردة على طبرية . واخذ النقــابون ساعة النزول في النقب . فصرع قائم سورها للجنب . ودخل الناس اليها ليلا للنهــب وكانت ليلة مــدلهمة معتمــه . وارجـــاء المدينة مظلمة . فاشعلوا وأوقدوا . ودخلوا الدور وتفقــدوا مــالم يفقــدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار . فــاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصـــن اهلهـــا بقلعتهـــا . وتمنعـــوا بمنعها . فأصبحنا على حصرهـــا . وســـلكنا جـــدد الجـــد في امرهـا . فجاءت رسل الأمراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجــت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهـــم الندم كيف تـــركت ومـــا ادركت . وأنها قد عيت جنودهـــا . وشـــبت وقـــودها . ولبـــت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران ســـوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابحها الاعوجية . وان جمـرهم قــد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهـــم قـــد اتـــوا في عددهـــم وعديدهم . وحدهم وحـــديدهم . وخيلهـــم ورجلهـــم . وطلهـــم ووابلهم . وفارسهم وراجلهـــم . وأحـــزاب ضـــلالهم وابـــطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخـــواتهم نار الحمية . وســـاقوا الى معتـــرك الردى وملتقـــى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . واللجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي . ولمعت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت قوانس قوامصه . وارتعدت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلاهبه . واشتعلت نيران قواضبه . وشدت الاجادل دون صوار صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسرعت الاعنة . واشرعت الأسنة . ونقع النقع .(١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرمرم عارم . ومجر جارم . وعوامل جوازم . وصواهل صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسوابح قد اقلت بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض.وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران محصوص . حتى دخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعي الموت بتلبيتهما . واصبحنا يوم السبت واهل الأحد على حالهم ولم يريموا موضع قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣)تتواثب وتتثاوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والرواعف في زرع الطلى رواع . والمنايا تئن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجوامح النيران شواب . وضمائر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامرار أمراسنا والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره . والأ وام يتوقد ولايتوقى احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة للارتواء • فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم • وحلأناهم عن

الورد . والجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل حطين . وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضي القواضب . وذشبت من النشاب بهم نيوب النوائب . وكان جمعهم جمرا وقد وقد . فصب عليهم السيف نهرا فخمد . وفضوا بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجاج بالقتلى والاسراء . واسر الملك واخوه . والابرنس الكركي ومؤازروه . ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفري بن هنفري وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص (١٤) . وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القومص فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت . وحيز صليب الصلبوت . وبار وباد اولياء الطاغوت . وهلك عبدة الناسوت واللاهوت . وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت . وقدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر . وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر . وألحقنا به الداوية والاسبتارية . وادرنا عليهم صبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبى من نجيعهم . وقربنا سيد الفلا من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتها . وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثم سرنا الى عكا ففتحناها بالامان . واعلنا بها شعار الايمان . واستقربنا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير صور فانها امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفر غير سورها . وانها وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتح اخواتها . وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب . فرجف

بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصمون . وانهم من بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقات هدت احجار السور بسورة احجارها . واذن ركوعها بسجود الابراج في اجبارها .

ووفت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القلل لاقالة مادام بها من العترة . وكشف الذقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبي الدار . وأيقنوا بالقتل والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان . مبتهلين في طلب الامان . فأبينا كل الاباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا . فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق . وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخره لفضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد . وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد . وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجليت هدى الهدي من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح . وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لاجلها من تبار التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجال . وهو للحرمين ثالث ولاتثليث في حرم توحيده . فتجدد جد الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدبيره . وقضينا حق تقديسه وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شرذمته . وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها . وان جمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تـؤذن بـأصحابها . واذا تسـلمناها تسلمنا بأذن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقـع بهم واق . ثم رأينا ان حصـار صـور يطـول . وان مسـألة بيكار (١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفـوت . وله وقتـه الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء ,وتواصلت الانداء . ولابد مـن اسـتئناف جمـع العسـاكر في ايام الربيع . واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . مـن يديم شـن الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليهـا.وفسـحنا لاجنادنا في الاستراحة مـدة شـهرين الى النيروز . فـان في تلك الايام تتـوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جـرت المواعدة على المعـاودة . والمعاقدة للمعاضدة . والمعاهدة للمسـاعدة . فليس في الفـرنج مـن يقاتل الان على الخيل . والنهـار عليهـم في اظـلام الليل . والعـز متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حـربنا مثير للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعاقل المبينة . وهـي:طبـرية . عكا . الزيب . معليا . اسـكندرونة . تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صـفورية . الفولة . جينين . زرعين . دبورية . عفربلا . بيسان . حيفا . صرفند . صيدا . قلعة ابي الحسن . جبـل جليل . بيروت . جبيل . مجـدل يابـا . مجـدل حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التـل الاحمـر . الاطرون . بيت جبـريل . جبـل الخليل . بيت لحـم . لد . الرملة . قبيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشـقيف . ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والابـراج الحصـينة الجـارية مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البـلاد التـي ذكرناهـا اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقـد جـاس المسـلمون خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصـدنا البـلاد . وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سـيف الدين ان يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفـر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون) (المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد من مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها عنوه . ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوه . ثم حضر مجدل يابا وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الي ان نفتح مافي جانبنا من البلاد ونتسلمه ونتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده ونغتنمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية . وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالامان . بعد ان قاتلنا اهلهما قتالا شديدا الجأهم الى الاذعان . فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان . وهان لنا كل ماا ستصعب منها ودان . وظهر لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب . واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحيالها وعصيها . واقتنا بخزائم الكرة انف الطاعة من عصيها . وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها . وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى احجار البناء فهدتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب . ولما ايقن اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسلمين مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب والطافه المنفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناه الله من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها بحق منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو عروسها البكر في حسنها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمه . لازال المجلس مشكور الشنمه عالي الهمه . منصور العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بعكا وربيب الربيع رضيع . ووشي الروض وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار منيع . واريج الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيع . والدهر قد ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون النرجس مصفره . وشفاه المنابع مخضرة . واحداق الحدائق الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنه . وجفون النوار متوسنة . والافنان مورقة والورق متفننه . وخد الخبري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل . وشارب النبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى وسر . وطبي الطيب قد حفل ودر . وتقاضى السلطان غريم عزمه

بدين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العـرين . فـأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقــه . ونشر بيارقه . وحشر رواعده وبوارقه . وانفق خزائنه . وانفـد دفـائنه . وبذل في صون الدين ديناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتـال العـدى فيه لهج المحب المغرم . ولعزمه وهيج اللهيب المضرم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهــي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتــركب . فـأحطنا بـالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجـال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السـلطان ورازه . واسـتصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تــطول . وان مسـألته تعـول . وان محـاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرته . واضاقته في مضايقته . وان مــافي هذه الحال اقتضى تعذر افتضاض عذرتــه . ولا مــطمع الآن في فــرع ذروته . ولا قرع مروته . وكان في خواصه . واهل اسـتخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللاشغال مدبرا . وبالاستظهار متأيدا . وبتـأييد الله مسـتظهرا . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب الحـرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لمرابطها بالليل والنهـار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر الحق وللباطل خاذل . وكان سـعد الدين كمشـبه الاسـدي بقلعـة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابـرنس الكرك في الشرك . بمعتـكر يومــه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضــه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعـت اسـاسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها هنفري بن هنفري في قبض الاسار وقيد الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت صاحبة الكرك متعرضة الخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها . والهة دخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف العطف لواحدها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها ، سائلة في فلذة كبدها . جائلة بجذوة كمدها . باسطة يدها . ناثرة خرزات دموعها . عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها . ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بذوحها . عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . باديا صبح وجهها اليقق (١٦) في ليل شعرها الحلك . مشرقة من اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة . معتزة متذللة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة . مستدعية مستعدية . عاطية مستعطية . ساكبة عبراتها . راكبة عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ولقرمها الندب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملكة فانه مكن محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . ودخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هذفري من دمشق اليها واقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنها وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأفحشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسبوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لاينتهم خاشنوها. وكلما قاربتهم باينوها فوجدت نبوة نوابها . وعدمت إصحاب أصحابها. وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن .ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما المت بالشوبك ألمت من شوب كدرها واملت دفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فآبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال ذعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرفد والرفد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا ° الى صور ° واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها . ويفي بمصابرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

السلطان هذه المراتب . ورب هــذه المآرب . أقـــام حتـــى وثــق باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مادبره في عمارة عكا

اختلفت الاراء في امر عكا فانها كانت مــدينة متخـرقة . وبيوتهــا متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بــلا ســور . ورأوا أن في ابقائها خطرا . وأن في اخلائها ضررا فمــن اصــحابنا مــن اشــار بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قــال اذا صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قــائل بــابقاء بــرج الداوية لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أدناها . ومن قــائل نجــدد سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح اقفالها . وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلهــا . ويحلي عواطلهــا . ويتــوحد بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها ، ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان:ماأرى لكفاية الامر المهم . وكف الخــطب الملم . غير الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمــام المحــرب . الذقــاب المجرب . المهــذب اللوذعي . المرجــب الالمعــي . الراجــح الرأي . الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامح . وتعديل الجوانح . وهو الثبت الذي لايتزلزل . والطــود الذي لايتحلحــل . بهــاء الدين قراقوش الذي يكفل جاشه بما لاتكفل به الجيوش . وهــو الذي ادار السور على مصر والقاهرة وفات وفــاق الفحــول بــاثار مســاعية الظاهرة . فنامره ان يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

وذؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بـالحضور . لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بـالشغل . متحمـلا للثقل منشرح الصدربالعمل . منفسح السر والامل . مبتهجا بالأمر . ملتهجا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه مـن اسـباب العمارة وآلاتها وأدواتها . واذفارها وأبقارها . ورجالها وعمـالها وعمارها . ومهندسـيها ومـؤسسيها . وحجـارتها ومعمـاريها . والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير الذفقة والذهب الابريز والرقة • ومثـل بـالخدمة السـلطانية على كوكب . وحضر الموكب وشرف باسني الخلع وأعطـي الملبس والمركب وفـوض اليه وقلده • واسعفه من عنده واسعده• وقوى جانبه • واعذب مشاربه وأوضح مذاهبه • وانجح مآربه • وأجد جده . وكثر مدده • ووفـر عدده وعدده • وخصه بعطاياه • واستخلصه لوصاياه • فتوجه الى عكا وشغله متوجه • وعزمه متنبه وسره مترفه • وفـكره في رياض الهدى متنزه • وامره ماض وحكمه قاض • والله عنه راض • وقام بما أقيم له • ونهض بالعبء وحمله • ومشى بكفايته عمله • وشرع في التعمير والتسوير • وتسوية الأمور بحسن التـدبير • وسـياتي شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه • وما ظهـر مـن حسـن ايالتـه واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسـلان وغيره من الرسل .

لما شاع خبر السـلطان بـاستيلائه على البـلاد . واسـتعلائه في الجهاد . وتارجت الارجاء بعرف عرفه . وأرخت السـير بمحـاسن وصفه . عنت الامصـار لمصره . وأعنت الامـلاك لملكه • وانقـادت الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح . وشروح ايراده واصداره تحـل في صـدر الزمـان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم . وتـأهب له بـالطاعة كل اقليم . ورهبـه ملوك الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه اهل الاشراف . فـكاتبوه

مستسعفين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خلف الامتزاج . والاتشاح والالتحاف بحاف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . ولبده وقدمه من تمكينه وتاييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوسل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولايقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الاذعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وأبدى الرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب الندب . وانفذ أكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعند اهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولاتصرف له في ملك ولامال الا بتصريفه . ولاتعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشييد المقاصد . وتجديد العهود . وتاكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقبل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب . وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وابعد بادناء مآربه ماراىه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأولاه لولائه . وعرفه بالتعريف الى آلائه . ونصبت له خيمة مسردقه . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مغدقة . فأقام أياما بايامن مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام . ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا • باحسان الخطبة وخطبة الاحسان • راغبا في تتميم الوصلة • وتعميم الصلة • آخذا لصاحبه ملك ديار بكر عهدا محكما • وعقدا من الميثاق مبرما • وقد أحضر قضاة بلاده شهودا • واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودا • وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل • ومت بكثرة الشوافع والوسائل • وكان خائفا على آمد فانها من فتوح السلطان • ووهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان • فاشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة المظاهرة . وان يفتح بها باب المزاورة للموازرة . فآواه الملك العادل الى ظل هذه المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده الاماثل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك ديار بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوبا . وعاد نيله بالفخار مسحوبا . وقال له:قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركنك فالى سواه لاتركن . ومامن كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه . لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها يمن كفر الظفر . ثم رأينا انه يطول حصرها . ولايفوت أمرها • وان الفتح يبطىء . وان كان السهم لايخطىء . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون . بالمقام عليها وابتذال سرها المصون . ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطو ل . وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقباله متهللة . وألسنة بـالدعاء له مبتهلة . وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه . وا سماع لامـره مسـتمعه . وأيد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه منشرحة . وأمـال في انعامه منفسحة . ونفـوس على طـاعة الله في طـاعته مجبـولة • واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل اليهـا السـكينة • فـوجدت الروح بسـلطانها . وعادت الروح الى جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها . وابتدأ بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من أهـل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتـألمين . وكشف الظلامات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل قصة . وقرأها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقـام للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحـل بانصافه كل مشكلة . وطب باسعافه كل معضلة . واصحت سماء السـماح . واصحب جماح النجـاح • وأعدى المسـتعدي • وأروى الصـدي . وحيا الحي واورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحـق حتـى قيل هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانفض اولئك القـوم • الا عن مظلوم أجير بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم أهين . وهـاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقـد ومعتـل شفي ومعتر كفي • وما حل جيد • وأمـل زيد • وركن حـق شـد وشيد • وخدن باطل أبير وأبيد • وراح أدنى فـوزه . ولاح أسـني عزه • وجلس يوما آخر للاكابر والامـاثل . والاكارم والافـاضل . فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهـدى . وكر الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتـظم الشمل • وصان العلمـاء بـالبذل . واعان بـافضاله أعيان اهـل الفضل . وفاز بـالحمد وحـاز الثناء . واجـاز الشـعراء واكرم الكرماء . وروح الرجاء . واولى النعماء . ونعم الاولياء وتقـاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واسـتضافة المملكة الى المملكة . فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جذبية لحب لقاء العدى اهل النار نار ° وكان الصـفي ابن القابض قد استجد للسـلطان على بعض أبـراج القلعـة دارا . وأذهب في نضارتها ذهبا ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مـطلة على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين ° صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهـو . شـهية الزهـور . مجدة لأهل الجـد ذكرى اللهـو . فـرشها بمـاء الورد . وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق سـتورها . واعلى ذورهـا . وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسـمى أنوار مشارقها . وتوصل الى حضـور السـلطان بهـا وجلوسـه . وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقـرظ بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضـالة رجـائه بنشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب ° وكل مطر مطرب . وظن ان السلطان تـروقه تلك الحلية والحـالة . وتلك الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعـة المقـدسة . وذلك المشرف العـالي . وذلك المشرف الحـالي . وانتـظر نظـــر استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا . ولا لمحة بطرف استطراف . ولامنحه حرف استعطاف . بـل اعرض بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضـارة . وغض عن تلك الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بـالرياضة . فـالعاقل مـن لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل النوازل منزلا . ولا يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيـف يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغرم . وقال السعيد من يبني دار الآخـرة . وينجـو مـن امـــواج الدنيا الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصفي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخـزانة على مكانه . وسمعته يقول في بعض محافله . وقد اجـرى له حـديث مـن يفـرح بمنازله : كان مـن ذنوب الصـفي عندي انه بنى لي تلك البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال مايعمل بالدار مـن يتوقع المنيه . وماخلقنا الا للعبادة . والسعي للسعاده . ومـايخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومـالنا والمقـام في البـلاد والبلد . ومـاجئنا لنقيم . ومـانروم (الا) ان لانريم . ومــــاتحركنا الا للسكون . وماا سهلنا الا للعود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحــة الا من مغرس التعب . ومايجنى نصيب المغنم الا من مغرم النصب . فأين الأين . الذي تقر به العين . ومايحصل الســكون في المســكن . ولايكمل الوطر في الوطن . لا سيما والدين يطالبنا بــدينه . والكافــر يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . والبلاء هائبه . فلا تفــوح الفتــوح الا بهبــوبنا . ولاينزل النصر الا بــركوبنا . وغدا الحــزم متمما . والعزم مصمما . ووصــل الخبــر بــوصول عســكر الشرق بالغرب الماضي ،والحد القاضي . والجمع الوافر الوافــد . والجمــر اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قــد اقبــل بقبيله. ووصل برعيله . وقدم بجده ، واقدم بحده . وانه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش النجــدة والجــدة جــامعا . فأرهف العزم السلطاني خبر وصوله . وحــل بــالشد للرحيل عقــد حلوله . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة والنبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبــرهـا . واســتقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثــرها . والســلطان بنجــح سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقــوله عامــل . وبعبارته قائل . ولاشارته قابل . فأراد الســلطان ان يقــدم بلقــائه الاجتماع . وبــرأيه الانتفــاع . ويســتنير بذوره . ويســتشيره في اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني الســعاده مــن مــطالعه . واجتنى جني الارادة من صنائعه . وافتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه . وجاءه بالوجاهة في دينه ودنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خــرج الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بــكرة يوم الثــلاثاء حــادي عشر ربيع الاول على الرحيل . فقصده لابرام ماوجده في مملكته من الامر السحيل . واقام عنده في الجوسق الى الظهر . مستظهرا به على الدهر . حتى كشف مهمات مهماته ورشف شفاه مشــافهاته. وانتجــى معــه في الاراء والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل الفاضل وشيعه . وبات تلك الليلة مخيما بالعرادة . محتما بالسعادة راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سلك في جبل يبوس الى عين الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخالق ومتبعه والخلق تابع امره المطاع . واتى بعلبك المحروسة . وخيم بمرج عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادر درها . وقسم لها من عدله . وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليها بحكمه . وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية امر الرعية . وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة . معصوم النبوه . مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد كحل عثير العسكر طرف الجو الامره ،(١٩) وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع من الزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامع من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قدس (٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدومه تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهر الشرك ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قد زحف على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهاره نهاره ، وسرنا بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب مقبلا ، ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملقاه ، ونزلا

فتعانقا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقـرب مخيمـه ، وجئمنا وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجندان ، وسعد الجدان. وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمـان واتحدت الكم ، وأتأدت الهم ، وسأل السـلطان ان يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره حبوره ، فسـاق معـه الى سرادقـه وارتفـع في صدره . ورفع من قدره . وصار العسـكران مختـطلين . وجلسـا منبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسـمطين . وقـرأ القراء واورد الشعراء . وتجاذب بينهـم اطـرا ف الطـرف والاداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شـاعره السـنجاري ابـن الهائم . ومن عادتـه ايراد المدائح في مثـل تلك المواسـم . فـأنشد مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البسـاط . ومـدت الموائد . وعادت العوائد ونضـد الخـوان . وكونت الالوان . ولونت الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهاة من كل حـاجة وبـاجه . وخروف ودجاجة . وحلو حامت (٢١) وحامز وحـامض . وتفـه (٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصـنوع ومقلي . مـاطاب مذاق مذقه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من ناديه القرى . وفرع بأياديه الذرى . قدم ماعده للهدايا . والتحـف السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعـدد المعجبـة . والاسلحة المذربة . وكل مايروق ويروع . ويضيء ويضوع . ثم انفض النادي عن ندي منفض . وسـدي لبـكر الشـــكر مفتض . وعين السلطان يومـا لحضـور عمـاد الدين عنده . وانه يسـتضيف فيه خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمـارقة . وضرب بيت الخشب له لحسب بيته . واسـميت الحسـنى بحسـن سـمته وسمته . واحتفـل بحفله . واجـل لاجله . وارجـت ارجـاء النادى بالند . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على البسط ماحضر من الياسمين والورد . وفاح النشر . ولاح البشر ، وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . واشرعت القباب . وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح النوافـج . ووضحت مناهج المباهج . ووضـعت المطـارح والمسـاند . والاسرة والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصـحبه . فتلقـاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جذبه . وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس رسمه . وسما في الرؤوس اسـمه . ووقـف الامـراء والحجـاب . والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتـزاز في معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبـا . والذرا رحيبـا . والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل موردا . والحفل حـافلا . والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والنشاط مقبلا . والمرئي عاليا . والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخبر جليلا جميلا . والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمـــــــــان جليا . والربيع في انتهائه . والصـنيع في اشـتهائه . والمصـيف في ابتـدائه . والمضـيف في انتـدائه والنعيم في نضرتـه . والاريب في اربه . والطـروب في طـربه . والضريب مـن الخلق الحسـن في ضربه . وكانت ايام المشمش وقـد وصـلت مـن دمشـق احمالها . وحلت في تلك الحـالة حـالها . وأقـدم الجـذل قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبـر مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى من السكر . واعبـق مـن العبير . واحسـن هيأة مـن النارنج الأحمر . والليمون المركب المدور . وقـد زفـت عروسـه في الثـوب المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خـرط مـن الصـندل . وخلط بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربـه مثـل الثمل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه مـا نضر . ومـا حظر مـا حضر . ورئي هناك لقـطوفه قـطاف . ولطـوا فيره طواف . ولعقوده مصارف . ولنقـوده صيارف . فـكأنها وجـوه العشاق اكتست اصـفرارا . أو جمـرات تشـتعل نارا وتبـدي شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بـل هـي احداق الحدائق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صـبغها بلونه البرق .وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت من مهـابة الجنات الجناه . وانتـظمت مـن جـواهر الحيا للحياة . واضطرمت لهاها شوقا الى فتـح اللهـاة . ثـم صرفـت

الاطباق . ونظفت الآفاق وبسط المكان . وسمط الخوان . وذبهت اجفان الجفان القدور الرقود . وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي النشاشة . وتزينت مقار المقاري بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب المطبوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو المحبوب . والاغنية والحمان .والاشوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي والروابي . والصواني والاواني . وقد صفت البوارد . وصفت الموارد . وتذوقت الطهاة . وتنوعت المشهاة . وحلت الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط . وعاش اخوان الخوانسلار الفابط . وتداولوا وتناولوا الذوالات والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا موردا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا مسعودا . وصنعا محمودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت المقاصد . أحضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياد من طوائف الطريفيات . وسوابق سوابح من العتاق الاعوجيات . والمذاكي المنسوبات . من كل مطهم مطهر الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاديم . ومعرب مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سلهب . وبحر جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيظم . ويعبوب صلدم . واجرد قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهد . وجواد ورد . ومسح رفل طمر . واشق امق غمر . ومفرع طموح . وعتيق غير جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختار منها كل طرف . قد حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشعل سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم احوى . واشقر مدمى . وابرش مدبر . وكمين مضمر . واخضر وادبس . وسمند اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات والدروع والزرديات . والرؤوس والرانات . والخوذ

والترائك . والبواتر البواتك . والدلاص الموضونه . والنصال المسنونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحم والدبيقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تونة وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على النمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح . وامره متحبر متربح . ووده مترح مترجح .ودعاؤه صالح . وثناؤه صادح .ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها . والنزول بعقرها . وانها اذا ملكت ملكت طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الغلس . واقام العسكر اياما على قدس . وبقبس النصر قد تأنس . ولسناء الظفر قد توجس . واتي العرب . وواتي الارب . واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع . وآن الليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع . ونبعت الفيوض من النعيم وفاض الينبوع . واينعت ثمار المبار وطابت الينوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى الجهاد هوادي الجياد . وادنينا قطاف الطاف الله لاجتناء الاجناد . وكانت الاعشاب بالشعاب واصية . والشوائب من المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر .وطاف الذعر . وقال ذفر الشرك ذفر . ولانستقر . وتشوروا وتشاوروا . وحاوروا وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الاثقال .وتجرأ على اخذ اهبة القتال . وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهــو الذي حين يواري صــارمه المشهور في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصــحبه مــن فــرسان العرب كل فارس معــرب . ومـــن شــجعان الاكراد كل فـــاتك محرب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكديش على اكديش . وقارح على قارح . وخضم على سابح . وجــري جــار جــارح . وبهمــة وبطل . وجبل على جبل . وفحل على فحل . وذمر ذكل وورد على ورد ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس اليس . واحمى احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وبــاسل ذي باس . وعاسل عاس . ورئبــال على رئبــال . ومشــتمل على شكال . وبحر على بحــر . وصـــقر على صـــقر . وركبــــوا سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا بالذوابل نيولا . وطــار ابليس طــرابلس بخــوافي الخــوف . ودام الجوى في رعب اهلها بدم الجــوف . ومــا سار الا مـــن خـــف في نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكدار . وصــفت على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقــرت . وتعــرمت العريمة وتعرقت . ومــزعت تلك الاعمــال ومــزقت . وارهقـــت وازهقت . وذفرت اذفارها . وبقــرت ابقــارها . وملئت بــالدوائر ديارها . وسيقت مــواشيها . وحشــيت بـــالنيران اوســـاطها وحواشيها . ونزل السلطان على حصــن يحمــور فمــا قـــدروا يحمونه . وابتذل مصـــونه واســـتخرج مـــكنونه . وفتحـــه ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقــام في تلك الديار عشرة ايام يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها ونفــوسها . ثــم رحــل بمغنمـــه . وقفـــل الى مخيمـــه . وعاد العســـكر مسرورا منصورا . محبورا مــوفورا . قـــد اطلع مـــن تلك البـــلاد على العورات . واضطلع بالغنائم في تلك الغارات . وذكا منها في الاعمار والعمارات . وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يمــوج بــالعساكر موج البحر الزاخر . وقـــد وصـــل قـــاضي جبلة يحـــث على قصـــدها . ويحض على انجــاز وعدهــا . ويحـــرض على اعذاب وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقــول

ان الاشتغال بطرابلس مــع احتــرازها واحتـــراسها . وكثـــرة ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها الحصار . وتجذبها عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهـــذه جبلة ومـــا وراءها من المعاقل . قنيصـــة الحـــابل . وفـرصة المتناول . ولهنة للآكل . ونغبة الناهـــل . وامنية العـــاقل . لم يفتـــرع عذرة امنهـــا ذعر . ولم يفتأ سورة ذفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان سلكنا سبيلها . ملكنا ســـلسبيلها . وان جـــزنا ســـاحتها . حـــزنا راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتـــدنا حـــواءها حوينا عتـــادها . وان افتتحنا بهـــا فتحناهـــا والمســـلمون بجبلة مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بـــالنعيم . فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه • واصغى الســـلطان الى قوله . واصفى له ورد طوله . واقبـــل عليه وقبله . واجـــزل له العطاء واكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهـــرا . فـــوفر لهـــم رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهـــم . واســـعدهم بـــالمواهب واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشـــياعهم . واجمـــع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجحافل . ورحـــل يوم الجمعة رابع جمادى الأول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي المنصل . فسرنا في آجـــام مـــؤتشبه . وآكام معشـــبه وحـــزن وســـهول . وشـــعاب وتلول . ومعـــالم ومجـــاهل . ورواب وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خـــرجنا الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رســـوم تلك النواحي المواحـــل . ومعنا احمـــال واوســـاق . واثقـــال واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل عرم . والمجر لجب . والفيل اشب . والاسد في عريس مـــن الاســـل العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد نشأ العجاج كعجـــاج النشـــاص . فـــانحلت بحلولنا معـــاقد المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقـــائل . وحلت لخـــطبه سيوفنا كرائم الحـــوالي والعـــواطل . ونحـــن في اســـتباحة واســـتباء . واصـــطلام واصـــطلاء . وارتياد وارتياء . وفتـــك باعداء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور ، وهتك لحجـــاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل ويل • فما نقطع الا واديا يغيظ الكفار ، ولانحضر الا ناديا نزيدهم به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا ساعة ، فلم يجد اهلها الدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها،وفل غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه • ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده ، وحل من احكامه ماالكفر شده ، وركب الذقب على ركنه العالي ، ونكبة في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية بدائها الدوي • واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطرطوس وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وماكانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن البلاد ، وللفرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب لايعرج على بنيات الطرق ، ولايستغني مدلج الليل بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبتارية عالي المذكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطـريق ، وقـد صـفت الفرنج في البحـر المراكب ، وسـدوا المذاهـب ، وردوا الراجـل والراكب ، وفوقوا الجرخ الجـرح ، وسـددوا الزنبورك القـرح والطرح ، فعسر العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجـب الاحتـراز ، وأعوز الظهـور وظهـر الأعواز ، وذلك ان صـاحب صقلية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهـازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العادية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط • قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بـطوله واسطوله ، وصوله وصـوله ، فمـا أحلى ولاأمـر • ولانفـع ولاضر ، ولااستقل ولااستقر ، ولانقض ولاأمر بل صار على الفرنج وبالا ، واحدث لهم بما يسومهم من مؤونته امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفـع ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجـع الى طـرابلس وتـردد في البحـر وتلدد وأبلس ، وتفـرقت جمـاعته ، وتجبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولايظهـر له رأي ولايرى له مظهرا ، فتقطعت اقطاعه • وتتابعت في الفرار اتباعه ، حتـى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسـيرة ، وكان هـذا الطـاغية قـد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جـوانبه ، قـد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفـاتي الى هناك وتصـفيفها ، والسـتائر وتـأليفها ، والتـراس وترصيفها ، واقعد من ورائهـا على مقـابلة سـفن القـوم وازائها ، الكماة النخبة • والرماة الجرخية ، حتـى تبـاعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمـت عليهـا المحـن ، وأنحـت الأحن ، ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لهـا بلنياس ، وقـد أجفـل عنهـا الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسـنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضـها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجنبات الوادي مريضة ، والنسيم العليل بليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبحنا على الرحيل مبكرين ،(فساء صباح المنذرين) ،(الصافات ١٧٧) وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سفور وجمعنا في اجتماع ، وجدنا في ارتفاع ، ونهجنا في اتساع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازدحم العسكر عند ذلك النهر ، وتواقعت الاحمال والاثقال عند العبر ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده • وعانت الاثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطىء هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة الفناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق ، والفينا بلدة خاوية على العروش • حاوية الوحوش • خالية من الانس والانس ،(وكأن لم تغن بالامس) (يونس ٢٤)، وقد انزعج اهلها ، وتشتت شملها ، وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضح في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعـز الاسـلام معتصـمين ، وعلت على السـور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجـت القلوب المحبورة ، وتحصـن الكفـرة مـن الحين ، ولجـأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قـال انه بحصـانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصـن البلد وهـو المعقـل الأكبر ، وتوسط لهم قـاضي جبلة في أخـذ الأمـان بعـد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا مـن استرهنوه ، في انطـاكية مـن أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم مـن سـلاح وعده ، وخيل وذخيرة وغلة ، وتسـلمنا الحصـين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بـالكرام جبلة جبلة ، وذفت عنهـا بـالفئة المقبلة ، الفـئة الشـقية المختبلة ، وسعد أهلها بعد الشـقاء وتعـوضوا مـن الشـدة بـالرخاء ، وافضى اليأس بهـم الى الرجـاء ، وفـاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهـل الجبـل الى جبلة طـائعين بعـد العصيان ، مصافحين بـالمصافاة بـالايمان أيمـان أهـل الايمان ، وكان حصن بكسرائيل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحـه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجـانب وأهله وكانوا لقـاضي جبلة مذعنين بـايمانه مـؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقـائه محبين • ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجـوا بـالاستبصار والاستغفار والاستنذار ، وأضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سـكانها حـانية ، وتلك المدينة لأهـل الدين دانئة دانية ، وتلك الجنة العـذبة الجني لورد دم الجناة مـن شـوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعـالي في هـدم اسـاس الاسـاءة بانية ، وتلك الهضبة راسـية ، والتـربة كاسـية والرتبـة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحـالة حـالية ، واقـام السلطان بها اياما حتـى أزال شـعثها • وأزاع خبثهـا ، ورأب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشـد حصـنها ، حتـى أزال كفرها ، وجبر كسرها ، وجـد بهـا جـدبها ، وحض بهـا خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبـالرعاية مـلأها

والرعية كلاهما ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور الاولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الغزو يصممه ، وأمر لامرار الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين يقفة ، وحد في تدمير المارقين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار يشعلها ، وجيش للوثبات ينشطه ، وجاش بالثبات يربطة ، وهيبة تروع الخواطر ، وهيأة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة منهم خافقة والانفس بهم متضايقة ، والمهج في سوق الردى نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر النيل ، ومن السوابق في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم في احتزاز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتخاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضيب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات تسرج والسريجيات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى • والصرائم تقتضى ، والقوارح تضمر ، والقرائح تخمر ، والضوامر تجرى • والبواتر تعرى ، والصلاد تلجم • والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية تعبي ، والجاوشية تلبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والمفخر متوضح . وللجاش فرح . وللجيش مرح . وقرح العدو مقترح . وزند الفتح مقتدح • وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من موقها آماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا النشاب الى أوكار المقل . وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل . وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجدوا في القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال . وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرخ دورك . وقلنا للكفر اخرج لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك . وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من السور حجابه بالحجار . حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار . وأخذت عليهم النقوب . ووقذت منهم القلوب . وبلغ النقب من الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة أذرع في العرض اتساعا . وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على رأس رأس راسخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها . وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتال . وجاوبنا بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن . وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن • ودام الرماء • ومريت الدماء • وانتجع النجيع • ووقع ذلك الرفيع • فاستبطيء السريع . وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعاينوا ماعاذوه من غريم الموت المطل في مطله • وفتح الحتف بابه . وحفز الزحف اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه . ونفر الناس اليهم • واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم . والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم • بواء في بوارهم . وويل الذيل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام . وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع • ومنافيهم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبار . واستشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق وارهف فقبل خده سهم . فرجع واذا وجهه طلق لاجهم • وهو بقرحه فرح . وللفرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح • وحسنه القبح • فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولايتركون . صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع • ولم يكن للكفر غيره مفزع • وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوه • وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلى النور . وأشرق الفلق وزهق الديجور . وبدا الفجر وباد الفجور • وسرت القلوب وأقبل السرور . وسلموا القلاع بما فيها من عدة ونخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم • وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم . وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه • وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه • ثم ولى بها سنقر الخلاطي مملوكه • وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه • فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية • وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية • واقام جاليا للغاية • عالي الرأي والراية • وركب السلطان الى البلد وطافه • وهز إلى إحسانه أعطافه • وأدنى الى عدله قطافه • ووفر الطافه • وأصفى نطافه • وامنه بعد ماأخافه • ورأيتها بلدة واسعة الافنية • جامعة الابنية • متناسبة المعاني . متناسقة المغاني . قريبة المجاني • رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أماكنتها مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة . ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة . ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية • وقطوفها دانية . وأسواقها فضية . وآفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها موذقة . وأرجاؤها فسيحة . واهـواءها صـحيحة . لكن العسكر شعث عمارتها • وأذهب نضـارتها • وأزعج سـاكنيها . وأخرج قاطنيها . وملك دور المشركين للمـوحدين . وطهـرها مـن رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامـراء الزحـام على الرخام • ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجـوه الاماكن • ومحوا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة . نفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاع مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة . وأجناس تصـاويرها متنوعة . وأصول تمـاثيلها متفـرعة وهـي متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه . وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخـوان الشـيطان . وعينت لعبدة الصلبان . ولما دخلها الناس اخـرجوا رخـامها . وشـوهوا أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهـد أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابـلاسها . وحـكموا بعـد الغنى بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخـربت وتـربت . ثـم لما طـابت النفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هـذه الكنيسـة بالأمان القسوس وهي متشـوهة متشـعثة مسـتمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة • ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت . وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بـأنها عادت للاسلام مرابع . ولسروحـه مـراتع . ولجمـوعه مجـامع . ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت • وشأت البـلاد اذا شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسـلام إلى أحسـن حاله.وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأضى مأمول الجني مأهول الجناب . وعاد بتجار البحار مملوء الرحـاب . وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار . والاشرار أهل النار . وكانت شواني صقلية . قد قـابلت في البحـر اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنيابة عنهـا ودفـاعها . فلمـا خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب مـن يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صـونها ببـذلها . فـامتنعوا عن

الانتقال . وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة مناها . فطلب مقدم ذلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه . فأمنه حتى صعد . ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان . وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك رحيم • وقد شاع عدلك • وذاع فضلك وقهر سلطانك • وظهر احسانك • فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها وأحسنت • لملكت قيادها • اذا أعدت بلادها • وصاروا لك عبيدا • واطاعوك قريبا وبعيدا • وان أبيت غير الغيرة والاباء • ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق • وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثأر .. وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان:قد أمرنا الله بتمهيد الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في الجهاد . وامتثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد . ولاتكترث الاساد بكثرة النقاد . ولو اجتمع اهل الارض . ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد الأعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على وجهه . وركبَ بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في نصره بين أنصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لايتمادى . وان العزم عن الفداء بالمهج في سبيل الله لايتفادى . وأخذنا على سمت صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتـون . وللإســلام محيون .
وكان الطريق اليه في أودية وشعاب . ومنافذ صعاب . ومضايق غير
رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطـرق في
يومين . ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صـهيون
يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي
قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جـانبين .
والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وســور وثيق . والقلعـة ذات
أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممتلئة بذئاب سغاب • وأســد
غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء مـن نواحيهـا الاربـع .
وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل الســلطان
خيمته الى جانب الجبل بـكرة اليوم . وشرع في محـاصرة القـوم .
وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغالاة السوم . وتـوفرت ســهام
السهام من المقل . وتبـدت بنات الكنائن مـن الدم القـانىء حمـر
الحلل . وأسقطت حوامل المنجيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور
الكنانيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مراء الرمـاء .
وزخر دأماء الدماء • وطـارت الحجـارات . وحجـرت الطيارات .
ودارت حميا الحمـــام على أولئك . واســـتنجدت ملوكنا الملائك .
وأدامت اليهم المجانيق والجروخ والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك
الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين • ونهـج بهمـا مـن جـانب
الوادي الى رديء الاعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد
العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي
الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فـانه
اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه . وقـد اســتصحب
الكماة الحماة . ومعـه الرجـال الحلبية . والمنجنيقية والجـرخية .
والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب
الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتـال على
المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظـاهر في تـظاهر
ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعنفوان جلاله . وشـباب
رهان مجاراته . وشبا برهان مبـاراته • وابـراق عوده . واشراق
سعوده . وغرة عزته• وميعه منعته • وصدر تصدره • وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشــوء اغتبــاطه • وفتــاء فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع بفاعه • وترعرع سنه • وتعرعر ركنه • وتسامي سيادته • وتراقي سعادته • واجد لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واســتلذ في ســبيل الله نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله ذوبــا • ولأحــواله رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجــارات الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم المحصن • وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر . فلله در المسيء المحســن • ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصــن • وهــان بمــا دب فيه مــن الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الاخرة • وطمــا بحر العسكر بأمواجه الزاخرة . وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهره . وهاج الشباب . وماج العبــاب . وتســابق ذوو الجرأة والقوة . وتلاحق ذوو الحمية والنخوة . وكان في قرنة الخندق عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقــه . ولم يتــم تــوثيقه . فتطرقوا من ذلك القرنة الى القنة . وتســوروا الســور وتســلقوا . وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذروة . وامسكوا العــروة . واستولى على أهلها الرعب . واستشرى بهم الكرب . فتعــادوا الي القلة . وتفادوا من الخوف لامن القلة . وملكت عليهم ثلاثة أسوار . بما فيها من متاع وشــوار (٢٥) . ونعــم وأبقــار . وصــاحوا الأمان • وبذلوا الاذعان . ونادوا مكذونا مــن الســلامة وتســلموا المكان . فما امذوا على المال والذفس . حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس . واغلقت دونهم الأبواب . وسير إليهم الذواب . ومــااستقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار . وجبي الدرهم والدينار . وعم الكبار والصغار الصغار . وتولى ذاك شجاع الدين طغرل الجاندار ، ثم سلم حصن صهيون بجميع اعماله . وسائر ماحواه مــن ذخــائره وأمواله . الى الامير ناصر الدين مذكورس بن خمار تــكين . اســد العرين وامير المجاهدين . المقدام الهمام • والمطعام • فألفى الثغر سداده بسداده . وامرع به مراد مراده .

- ٥٩٤٥ -

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين • ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه . وسلكه في سلك الفتوح ونظمه .

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة الله والنصر قد نزل . والكفر قد انخذل . يوم الثلاثاء سادس الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر . وحكم السلطان في القهر ماض باذن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القلل • على هضبة منقطعة . عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها • واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولا عليها طروق • ولا فيها للطمع علوق • ولاللسهم اليها مروق • ولاللزحف فيها مقطع • ولاللذر نحوها مطلع • ولاللطير في مراحها وكر • ولاللمكر في افتتاحها مكر • ولاللوهم في توقلها مجال • ولاللفهم من تصورها منال • ولالها بمن يحتفل بها احتفال • وماعليها للنازلين عليها قتال ولانزال • ولايتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل الشغر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • ودا ومها بالحجارات أياما • ولكم سدد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها • وابت الا ثبـاتها وثبتـت على ابـائها • وأعيا اعضال دائها • واستفحال بلائها • وخـام الرجـاء بـالارجاء عن ارجائها • ولو لم يضجر حاميها لضجر راميها • وسـئم سـائمها لتساميها • لكنه وهي جلده • وهوى خلده وخار قلبه • وحار لبه • وخافـ من الاقامة • وخاب من السلامه • وارتـاح الى الراحـة • وسـما الى السـماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لداء خـوفه في الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعه • والخروج مـن الضـيق الى السعة • فبينا نحن في ترو وتفـكير • وتخيـر للرأي وتـدبر • ونقول هذا حصر يشتد • وأمر يمتـد • وعمـل يصـعب • وأمـل يتعب • ومعقل لايختل ومعقد لايحتل • ومقصـد لايدرك • ومـورد لايملك • ومكان لاامكان لفتحه • ورجاء يطـول الزمـان في تـطلب نجحه • اذ خرج من الحصن من يضرع في الأمان ويمتـري ضرع الامن • فشكرنا الله على تسـهيل المتـوعر • وتيسـير المتعسر • وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتنقيح مناط حـكم الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارجاء • ليخبـروا صـاحب انطاكية ويستأذنوا • ويقبلوا عنده العذر ويخـرجوا مـن الحصـن ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر . والكفر صاغروفـم القهـر منا لهـم فـاغر . والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مثاغر . والحصن البـكر مفتـرع • والدين المتأصل بشعب النصر متفـرع • وطلع العلم الى ذلك العلم الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع • وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين ، وكأنمـا أبـراج تلك القلعـة مسـامع الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بـأيدي الأيد ايمان ذوي الايمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر . وفرغ القلب من شغل الشغر ، وسلم هـو وحصـن بـكاس ، الى غرس الدين قليج الساقي عدوه الموت بكاس الباس . وانتقل السلطان يوم السبت الى مخيمه والاقبال جاثم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واسـتطلق منهـا البـررة العانية . وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ما كانت له من المال مستطيعة • ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج حتى خربها عاليها • وعطل حاليها • وانجلى ثاويها • وانتأى جاليها • وبقيت دمنة دائرة • ودمية عائرة . ورسما عافيا • ورقما خافيا • وربعا باليا • وصقعا خاليا • وعادت دارا دارسة • مستوحشة بعد أن كانت آنسه • وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين. ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية • في أيام الجمع الخمس المتوالية • باء فيها لنصر اهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد واصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر اليد •

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه • وسرنا سار • ودر الظفر لنا دار . وهي احصن القلاع وافرعها • واحسن التلاع وارفعها . واسمق الرواسي واسماها واسنم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق اليها واشرف عليها . ثم استدعي الثقل واستحضر . وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء في الذرى . لاتكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال . مترامية في السماء ارتفاعا ،وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعا• فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها . وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسماها• وتحاجزت عنها الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة قلائعها . ولاطلعت الى القلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فكأن الصخور سلم نحورها . فإن سورتها تتكسر دون الوصول الى سورها . ولما رأى السلطان انه لا وصول الى نيقها بالمنجنيق . وان الاشتغال به يطيل زمان التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك اللحف . وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء . فقسم الناس ثلاثة اقسام على السواء . وجعل الذوبة الاولى لعماد الدين صاحب سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد الحلاحل (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح وعفاة الصفاح . ونفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقدام . وشفاة الاوام بعلة الانتقام من الاقوام . واساة ذوي الاساءة باحسان الحسام . وكساة عرى العراء أردية القتام . ورقاة اراقم اللهاذم وسقاة حوايم الصوارم . والمزاق في حومة الردى رداء المآذق . والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبار . ولاسع بحمة الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولابس لباس الباس كالاسد الباسر باسل . ومعتقد الدين.الرديني معتقل . ومعتمد على العدو بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ، ومجتنب لحب المذون لرهون نفائس النفوس محتاز . فانقضوا على الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هده . والصدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقي . والمصاعب تلقى . والمضايق تولج . والبوائق تحرج . والاكام تفرع والرجام تقرع ، والصخور ترديد . والجلاميد تميد . ومازالت هذه الذوبة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وترد وترد . وتصد وتصد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجم . وتصدع وتصدع . وتحمل وترجع . وتذكو وتنطفىء . وتبدو وتختفي حتى كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبت . لولا انها لغبت ، وسمت . لولا انها سئمت ، وألفيت هذه الذوبة خاصة ، لاهل الحصن حاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا التناوب الاستبدال . ولما ظهرت في الذوبة النبوة ، وكاد جوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية . والعزمه الناوية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف الى الجبل بالجبال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاوعال . وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على تلك الهواجل . وترقوا في ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مشاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها، ودخلوا في مخارجها ، وصارت الجروخ تجوزهم . والجروح لا تحوزهم . والسهام تعبرهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن أقبل أغبطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظة . ومن تقاعس أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا . فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء . وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة . وقلعت الطلعه . وافتضت العذره . واقتضيت النصره . وأعان القدر فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لا يهلكوا . فلما سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا الضراعة التياعهم والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص . عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة . وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا الذفوس والذفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان السلطان امنهم وحظرهم . وبقي اولئك الافراد بهم متفردين . ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار مابالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسبيا . وماراوا لحق من شاركهم في السعي رعيا . وحرموا ماارتفقوا به وحرموا الرفقاء . وحازوا دون الغانمين النهب والسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقة ظمئة . ولما تسنى ذلك الفتح وتهنا . وتسهل ذلك الصعب وتهيأ . عاد السلطان الى خيامه . وعاذت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن عليها بالاعتاق من الارقاق . وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق . وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلهم بعد البتات . وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقد تجوعوا . وحظرهم وقد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهم وقد استميحوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد ماهتكوا . وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا . وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها . فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضمر بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمها والفرج في كربها .

وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين بن المقدم . الكريم المكرم والمقدام المقدم . والعظيم المعظم . والماجد الممجد . ابراهيم بن محمد . فإن هذه القلعة لثغر افامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهي لها في السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيز بفتح حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثوابها . وتفتحت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سفرت به عرائس الايام في حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في ادوار محاسنها . وهذا الحصن لايمكن وصف ما هو عليه من الحصانه . وكأن حجره في حجر حضن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ، وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجا . حتى أتت ايامنا ، وبنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا . ووصل الينا ما هو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخرنا . وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسقينا بماء الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفارس الهدى الزاكية . وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه الحصون التي فتحناها . والمعاقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا في فتح احدها . لتعذر ولو أنجدت عساكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفر ، وان حصن بزريه لم يكن عليه قتال . ولا للوهم فيه مجال . ولا منصب عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسالك طريق . وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟ فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سلاحه ، وتوقل الرجال في ذروته توقل النجوم في الافلاك . ولنصر الله اهل التوحيد على اهل الاشراك.وفتحناه بالسيف عنوة . ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوه . فانا لما توكلنا على الله في منازلته . واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العزائم والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القلل . وسعوا الى الاجل. في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في الاعتصام رجاء . وقد نقصنا اطرافها . واستبحنا اكنافها . وشفهنا نطافها . وعضدنا من رؤوس اهلها بحدود الصوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس . وقد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

-٥٩٥٢-

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورجحت اعماله . وحل اقباله وا قبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد الجسارة . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح والمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجددنا بتأييد الله في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش الداوية بل عزيمتهم . وطالما أطال في التعدى أيديهم وعرانينهم . وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون . وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا على المذون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد وجب. ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم مددات مراميها ومرامها . وراميناهم بها ليلا ونهارا وارسلنا اليهم امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكدنا لا نذر في ارضها التي هي في السماء من الكافرين ديارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى . واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى . واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من السور الخارج . وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج . فطلبوا على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم من وديعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة واصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

-٥٩٥٣-

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس وقد ضايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم الذفوس والادفاس . وهي قلعة من انطاكية قريبة . وانها في الشدائد لدعائها مجيبة . ورأيناها راسخة على رأس راس . شامخة على عاص عاس . ارضها في السماء . وجوازها على الجوزاء . متوغلة في الشعاب ، متوقلة على الهضاب . منسحبة في السحاب . مضببة بالضباب ، مربة على الرباب . متعلقة بالنيرين . متسلقة الى الفرقدين . محلقة الى النسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مطلع فيها لطامع ، ولا مطمح للامح . ولا ملمح لطامح . وهي للداوية وجار ضباعها . وغاب سباعها ودار دوائرها . وغار مغاورها . وغيل غوائلها ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رئبالها ، ومذب ذئابها ، ومدب ذبابها . وكوارة زنابيرها . ومغارة خنازيرها . ومرقب صقورها . ومرقد اسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها . فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسنتنا في ظلماء نقع خيلنا مشعلات السرج. وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمع غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظر يقظته وارقد عينها ، فأقام على سبيل اليزك . ودخل في حفظ جانبها في الدرك . وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا . ويسومها من الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمريه بالاذعان على خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته . ومازالت الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه . والصخور فيه تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه . وألجأ جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخرج مقدم الداوية يستأذن في الحضور . ويسأل الأمن من المحذور والحل من

المحظور . ويقـول انمـا قنينا بغـراس بغـراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصـن البنى . والمعـاقل لايحميهـا الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصـن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السـلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربسـاك بـالامس . وسـلمها الداوية طـائعين فعجبنا مـن انقياد اولئك الشـمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليهـا مـن طلوع الشـمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وآذن المتطاول فيهـا مـن تـطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شـعبان . وسر النصر فيه شـار وبـان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفـاز . ومـاكان في الامراء الا كابر مـن لا يدعي سـواه الاعواز فـالزمه بهمـا ليعتني بحفظهما ، وحضه مـن عصـمتهما على حـظهما ، فتسـلمهما بذخائرهما . واطلع من الذفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل سـاكنوها لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تسـاوى اثنى عشرة دينارا . والقـوم قـد شارفوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقـدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان مـن منبـع هـذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هـذه الغلة الى انطـاكية وبـاعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . واذهـب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي مـن حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظـن مـا كان بعـد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفـر مـن فتـوحها بـالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنهـا كانت مـريضة على شـفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحصر (٢٧) دعائمها وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على ما في يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصادها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة . وأبدى السآمة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها . وقتلنا نحلها . واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى: (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا ، وللاوامر منفذا . وعلى المقاصد مستحوذا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جزيل مذسكب الجود ، وذلك سوى ماغنموه من كسب وكسبوه من غنم ، واستطاقوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه من رق سبي . وادركوه من حق سعي . وأجدوه من غرض . وأدوه من مفترض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجح . وسار السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتاح الى العبور على أرتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح ، ووصل الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل ، والملك بها للاهتزاز بقدومه في ملابس البهاء رافل ، ودخلناها وقد خرج كل من بها للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي ، وشاهدنا من النظارة عيونا للمحاسن ناظرة ، ووجوها ناضرة ، وقلوبا حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا في بسطها الى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء اساكنيها سكون الدهماء ، وأقام بقلعتها أياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت الأمور بأوامره على النظام . ولم يرحل الا وقد خص عوامنا وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل منقبه ، وأعان بكل موهبة ، فما رآه والده مذ حل بحلب الا في أجمل حلية وأكمل حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجد لعينه ولنفسه قرة وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا المتصلة بدليلي الشكر والثناء ، وتنكبنا طريق المعرة ، بسلوك طريق المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي . ابي زكريا المغربي . وهو مقيم في مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السلطان على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حماة . وبتنا بها ليلة واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جاحدة ، فان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، قد كشف عنها

بايالته الكروب ، وملك القبول مـن أهلهـا والقلوب ، وأعاد لهـا بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبتـه ظـلا مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر مع المعاقل المرعية المرضية ، وهي ذات تـل متبـطح ، غير متـرفع ولامتسفح ، فلما تولاها تقي الدين قـطع مـن التـل مـاكان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيدا عاطيا ، وعمق خندقها في الصـخر وحصنها على الدهـر . وبنى فيهـا الدور المرخمـة ، والأروقـة المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصـينة ، فـاضلة في الشـام كل مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرتـه ورفعنا ، والنادي قـد جمعنا ، والشـادي قـد اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فمـا انفصـلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضـل سـني . وعدل احيي . ورسم نائل السـماح واجـري ، وزند سـائل بـالنجاح أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات الحصص ، وأصـبحنا على الرحيل ، ووصـلنا العنق بـالذميل (٢٨) ، وعبرنا مغذين على حمص وزدنا في الوصول الى دمشـق على طريق بعلبك الحرص ، وجـئناها قبـل شـهر رمضـان بأيام ، وركنا الى ماأنسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلالنا أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما لبث السلطان ولامـكث ، ولانقض عهـد عزمـه على الغـزاة ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقـد بقيت صـفد وكوكب وأخـواتها ، وبـطول مضـايقتها فنيت أقواتها ، وقواتها ، فنتهز فـرصة فتحهـا التـي لايؤمـن فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شـهر رمضـان . وحـد عزمـه رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجـوه الأيام لأياديه البيض بيض ، ولسان الدهـر في ذكر سـيره وتسـيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجحه مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدي بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي داؤه معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنيت ازوادهم وذفدت موادهم ، ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وابدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسالات تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يليذون والعادل يتشدد ، حتى دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت عن السلطان في بعض البشائر ، ماالهي بحلاوته عن أرى (٢٩)الشائر ، وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا ان لانستريح ، ولاندثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح ، فقلنا نفتنم هذه الشتوة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماح الأصحاب ، وخرج منه الفرنج ودخله الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراك اشراكه منه على طرق

الاجتياز ، فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام ، واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقد كان هذا الحصن نذب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فالحمد لله على ماقدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحه ، وادراك السعي فيه ونجحه

وقطعنا مخاضة الأحزان خائضين في بحار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشدودة اسبابها ، في اطلاب ابطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصبر قد نفد . والنصر قد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العادل وظاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشد بالرأي والحزم ماالزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمة على التصميم ونخاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة السلعة، وجثت المجانيق لاجتثاثها وحدثتها بألسنة أحداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وسمت الى هضاب تلك الأبراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجارة ، ولم نعطهامن العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بها الحصن الراسي رأسا ، ولاالحجارة مست منه ركنا ولاالذقوب باشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والذقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثامن شوال ، وذوعنا في افتتاحها الاحتيال ، حتى اذن الله في الفتح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام ولبى ، وعلموا ان صفد ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالاساد ، ونزلوا من سماء العز الى ارض الهوان ، فأذعنوا الضراعة وتضرعوا بالأذعان ، وأخرجوا اسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب الامان ، وصارت صفد المسلمين صدفا ، وكانت بالمشركين هدفا ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر ردءا ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا اداه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)(مريم ٨٩-٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدع.ومرفقا للشر قطع.وناظرا للعدو غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويدا للباطل شلت ، وقد امتدت ، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج ان صفد لنا صفت • وانها على الفتح الذي يشفي اشفت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح الدين عن قصدها لايتنكب . وقد أقوت من القوة . وهي تهي ان لم نعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها • وقل ظهورها لظهور اقلالها • وهذا أوان انجائها وانجادها . وهي مشرفة على العدم فدبروا في انجادها . فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة في العواقب . وعصمة من الذوائب • فقال مقدم الاسبتار هي كوكبنا المتلالي • ومذكبنا العالي . ومعقلنا المحكم • ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمذبع المنيع . والمحل المحلى • والمعلم المعلى • وهي قفل من البـلاء على البلاد . وموئل من الخطوب الشداد • ولعلها تثبـت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا • فما تبـطىء جداتنا . وما تخطي نجداتنا • واجمعوا على تسيير مائتي رجل من النخب • المعدين لدفاع الذوب . مـن كل جـرخي نخـي • وكمـي أكمي • وجهم جهذمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلي . وكلب كلب . وذئب سغب • وعاسـل معـاسر . وبـاسل بـاسر • ومغوار مغو . ومتلوم متلو • وذمر متذمر . وذمر متذمـر . وسـبع ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من شـياطين يجذون الجذون . ويمذون المذون . ويشـيذون الشـؤون . ويهدون الهدون . ويحزون الحزون • ويفـوتون الفتـون . ويظنون بالله الظنون . وقالوا لهم: كيف تمضـون وطـريق السـلامة مخيف وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقـالوا نحن نسـيـــير ونصــــــير في ضــــــمائر الكهــــــوف اسرارا . وعلى اجياد الاطواد أزرارا . وفي اوكار المغارات اطيارا . وفي اعماق السيول اكدارا . وعلى ظهور الريود اوزارا . نسري ليلا ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلج من الوتر . والنهج وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر .. ومـن رام الذفيس الخـطير رمـى نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثـم عزمـوا على ما زعموا . وعملوا بمـا عنه عمـوا . وخـطروا الى الخـطر . وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا في الاكم . وتوغلوا في الاجم . وتبـطنوا في الاودية . وتمـكنوا في الاقنية . واحتـرسوا بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السـكون . وكادوا يصلون الى الموضع . ويحصلون على الطمـع . ويدركون الطـلاب . ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحـه . ويأسـون بعـد اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده وقيده . واتى به الى صاحبه صارم الدين قـايماز واسـتغرب مـن الافرنجي هناك الجواز ، فأخبره بـالحال . وان بـالوادي مـكمن الرجال . فركب اليهـم في اصـحابه . والتقـطهم مـن سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشـقياء . وانتشر الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجح راج . ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحـن على صفد الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله مـن الانصار . حتى وصل صـاحب قـايماز بـالاسارى مقـرنين في الاصفاد . مقودين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد اشفيا على التبار . فان السلطان مـا كان يبقـي على احـد مـن الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان للمنية . فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالا عند دخولهما . وامام مثولهما . ما نظن اننا بعد ما شـاهدناك يلحقنا سـو . فعـرفت ان بقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما . فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان تلك الكلمـة حـركت منه الكرم . وحقنت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفـر من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير • وفتـح الله علينا صـفد ثامن شوال . فشكرناه على ان مدد النصر متوال . وسلمت القلعـة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجـئنا الى كوكب . ووجـدناها في مناط الكوكب . كأنهـا وكر العنقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بهـا ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحمتها بحميتهما وابـت النزول على امنيتنا ولو بنزل منيهـا . واختـارت العـطب على العــطاء . وامترت خاف الخلف والشقاق للشقاء . وابت غير الابــاء . وبصرت بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمـل الاصر . وتـرامت على التعامي بالمصائب . وتعامت عن المرامي الصوائب . وقـالوا لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الأبد من العـار . ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فنتجلد للاصطبار • ونتشدد للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا . احد نزال وفوقوا الجـروخ

المصمية . وصوبوا الصخور المربية ورفعوا المنجنيقات الموجية . وتواترت زيارات الزيارات الموتره . وتناوبت نوائب الزنب وركات المطيرة . واجترأوا على الاجتراح وجرى سيل الجراح • ودمنا في الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرثه الرجال . والتجريد للقتال . وايتار الحنايا . وايثار المنايا • والرمي في المنجنيق . والجمع والتفريق . والرقع والتخريق . والنقب والتعليق . والحفر والتعميق . والحصر والتضييق . والهدم والرد والردم . والصد والصدم . وكان الوقت صعبا . والغيث سكبا . وتكاثرت السيول . وتكاثفت الوحول . ودامت الديم لدموعها مريقة . وبقيت الخيم في الطين غريقة فلا لمركب مبرك ولا مربط • ولا اسالك مسلك ولا مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تقلع الاوتاد وتوتد الاقدام . ووهي الاطناب ووقوع الخيام وكأن الخيم مناخل الانداء• وعدمت الانوار لوجود الانواء • وفقد ماء الشرب مع سيل الماء • والروايا ما نهضت . ولا نزعت ولا غمضت • والرواحل في الطين باركه . والحياة فاركة . والعلاف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل مستبينة • وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالذرد . والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . والمشق (٣٠) ثقل • والقلق عقل . وما ثم الامانيط بالطين • وصعب علينا بصعوبة هذا الامر أمرا ولذلك الشياطين • فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان . لتقريب وجوه الامكان • وبني له من الحجارة ماصار له كالستارة • فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا . والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق • والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجد الجد . ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فحفت الثقل بنقل النقل . وطاب المقام بالغور • وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين وتحالت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما الحصن . وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهن . حتى علق بعض جدرانه . وطرق الهدم الى بنيانه . فتسلمه بامانه . واذهب سكون سكانه . فاخرجهم راغمين . واحرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما فيه . واصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقدة . ورجعت الليالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها . وخلوها وأبوا أن يلوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فوليها قايماز النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهامها لاهية • وانتقل السلطان الى المخيم بالفضاء . وحمد الله على قضاء التوفيق وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعد ما استكمل لنا مقامه بصدق الكلامة وجد اعتزامه الفتح والنصر، ثم تحول السلطان الى ارض بيسان • وأزال البؤس • وزاد الاحسان • واقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهر . واظهر من الفضل ما لم يكن مستورا، وأعطى الأمراء والاجناد في إنفصالهم دستورا . وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضح المحجة لائح البهجة . وأوجها الى القدس في طريق الغور وزارا البركة • وتبركا بالزور • ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبرة • وعيد بها يوم الاحد الاضحى • وأضحى بعد ما ضحى ، وقد اصحب مراده وأصحى.وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها ونظم أسباب أحكامها • وتدبير أحوالها . وترتيب رجالها • وأقام أياما يوضح الجدد.ويصلح ما فسد ويذشد من الذفع مافقد • ويخمد من الشر ماوقد • فاذا وجد شعثا لمه . وان الفى نشرا ضمه . وان صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حققه . وان عثر على باطل عفى اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وآثره.ثم ودعه اخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في مورده ومصدره • فما عبر ببلد الا قوى عدده • وكثر عدده وواصل بالرجال مدده • وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبني الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصة الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشفاء واهدى عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قويم . وهو يبوب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها . ويعدل جوانح امورها . ويذلل جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهي • ويسري ماهوى ، ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ماانتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور . وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لآثار الدولة في ايثار العدل تاليا . ثم خرج السلطان وسار على طبرية • ودخل دمشق مستهل صفر . وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر • وعز من آمن وذل من كفر • وحزب ألهدى قد انس ونفر الضلال قد نفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • واحلى احلام الحلماء • وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • واسدى المعروف واعدى الملهوف • وانكر المناهي ، ونهى عن المنكر، وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر . واولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر ، وايامه مسفرة ولياليه مقمرة. ومغارس اياديه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاديه في ديار الشدائد مقفرة • والملك بزهوه زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيقة • وللدولة حق مدال وحقيقة والجاه وافي جده وللجود وفي عهده وللسماح سماء تهمع.وللمراد مراد يمرع وللوجود بالبشر بهجة ، وللالسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة وللحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع الندى • ومشرق نور الايمان • ومشرع فيض الاحسان • ومرجع المرجين • ومفزع الملتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ، ومخفض جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجر نيول المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن التنزيل . وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة . ومرام الرأفة . ومحمل الامانة .ومحل الديانة . ومطاف الطائفين . ومعرف الواقفين . وموقف العارفين.وقبلة المقبلين . ومؤئل المؤملين . وكعبة القاصدين . ومثابة الوافدين.ومعفر وجوه العظماء . ومكفر ذنوب الكرماء . ومعصب السيادة القرشية . ومنصب الوراثة النبوية والسدة الشريفة الناصرية . ودار السلام . وقبة الاسلام . فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول . وسر سره . وأبر بره . وصدر بذشر الانشراح صدره . وقدر على الاتسام بالتسامي قدره . واحتفل بأسباب التلقي ةالحتف باثواب الترقي . وسأل عن الرسول المندوب . للسؤل المخطوب .
فقيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه . وصل بالضياء والسكينة . والاحوال الحالية المزينة . وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديده • فعين لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف

اراءه السديدة • فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان واولاده •
وكان يوم مشهودا حضره أعيان البلد ماثل العسكر واشهاده •
وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة • ثم جلس له في يوم
سعد صباحه . وبدت في جبهة الدهر البهيم غرره واوضاحه . وملات
طرفي الزمان والمكان افراحه • وجاء على وفق الآمال اقتراحه .
وختم باليمن والاقبال رواحه . وورد بكل ماابهج الاولياء • وأزعج
الاعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه • وثنى
عطف تباهيه وهزه . ورسا له طودا بالوقار في ايراد الرسالة .
وجلالة في مهب المهابة اذوار الجلالة . وتلفظ له بالتفضل . وتطوق
منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده • الى ولده
عدة الدين ابي نصر محمد من بعده • واخذ بذلك العهد على من
حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ماأولاهم الله به من
النعمة . واستظهر بما خص به من هذه المرتبة • وامر بذكر اسمه
ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشوكة .
والشكة.وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر .
ولم يبق من الامراء والاماثل والافاضل إلا من حضر • واحضر معه
الدنانير ونثر • وتولى ذلك الملك الافضل فاظهر ابهة ملكه وبهاء
فضله . وحصل الاسلام من ري رأيه على نهله وعله . وندب
للرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القاسم بن
يحيى . ليذشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيي . وسيرت
معه الهدايا . والتحف والطرف السنايا . وأسارى الفرنج
الفوارس . وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليب
والصليب • والملبوس والطيب • واضفيت على رسول الامام ملابس
الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضيآن لاضاءة مطالع
الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني
النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . واعتزت الاطراف •
وابتسمت ثغور الثغور لسدادها . وانتظمت امور الجمهور
لسدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخزي الحاسد
الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاذ . حتى
وصل الى بغداد • فتلقي الرسول بالسول • وقوبل بالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيأة يوم قراعها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعها . وقد نكست بذودها واتعست انوفها . وهيئت على هيأة فتوحنا حتوفها . ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها • ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها . والفى الوزير ابن حديدة قد عزل . وأقام في بيته واعتزل . وتصدر في الدست للنيابة . وسماع الخطاب والاجابة . من له المجد الاثير الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء . وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها . وأولى صوبها ووالي صوابها . وسياتي في موضعه ذكر ما انهت اليه الحال . وجرى به القال . وكيف شغلت العوائق وعاقت الاشغال .

فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال . وأداه من فرض الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام به أمر الدين والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من حبائها • وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها . وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها • ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين • وأبرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق المراضي الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده • وافتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وأنهى الى نهاية النهى • وأطاع ماأطاق فيما أمر الله به ونهى• وماوضع الكتاب من يده حتى رفع بالدعاء يده . وسأل الله لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين وافد النصر ومدده • وان يعضده بولده ولي عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيا والدين • ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البركات . وآضت الحسنات . وأضاءت الكرامات • وراضت جماح الاماني المبرات المبرات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المرديات . وعمت الميامن . وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر والبواطن . وضمت بسكون الدهماء اهلها المعاهد والمواطن . وصدحت المنابر . وصدقت المفاخر . وصدعت الأوامر . وصدفت الفواقر . وصدمت قلوب أهل النفاق من بواعث الرعب والبواعث البوادر . ونقشت صفحات الدرهم والدينار .ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات الاذواء والاذوار • وعرشت اسرة المبار والمسار . ورفعت رغبات الابرار • وسمعت دعوات الاسحار . ونزل النصر . وفضل العصر • ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر • واصحب الدهر • وسحت سماء السماح . وصح ارواء الارواح . وتضوع نشر الانشراح • وتوضح صباح الصلاح . وطال جناح النجاح . وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامر . وحسن الذكر . وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشام . وتبلجت ايا من الايام . وتروجت اماني الانام . وأرجت أرجاء الرجال • وثبتت باسناء الأسناد رواية أمالي ري الامال . وقرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع • وأقرت الألسن والتهجت بالحمد الجامع . وقرت الأنفس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع • ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع في نفع الأوام (٣١) ونقع الانام مناب المنابع • وأرخت السير وسيرت التواريخ • وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها التضميخ . واشرق المغرب من بشر البشرى . وانارت مصر من حسن هذه الحسنى . وبسمت بسمة الشرف منابر الأقاصي والأداني . موافقة لمنبر المسجد الأقصى . وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها • الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب . وعاد الزمـــان الى اعتداله . وعاذ العدل بزمانه . وتاب الدهــر مــن عدوانه . وآب إلى احسانه . ورجع الدين إلى سناء سـلطانه . وفجــع الكفــر بعبدة صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . واستخلص مــن الشرك بلدانه بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف فيوضه . وعتــب العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحث الحب على اقامة ســـــنن الجهــــــاد وفــــــروضه . فقـــــــد درت افــاويق الآفــاق . وذرت أشــعة الاشراق . وافتـــرت نضرة الحدائق لنظـــرة الاحـــداق . وراقـــت أوراق الألوية كالتـــواء الأوراق . وأزهرت البيض والسمر كازهـــار الرياض . وأنذف غرار الجفون في الاغماد من الاغماض . وتيقـظت الاقــدار للاقــدار على ايقاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول . وتنزل البــركات في انتجاع المراق مــن تجيع المارقين لا تــزال نص النصر على النصــل المسلول . وقــد آن ان تـــرعى الحشـــاشات منهـــم على رعي الحشيش . ويطير الى اوكار المقـل طير الســهم المريش . وتــرتع ثعالب العوامل في عشــب الكلى . ويطـن ذبـاب المناصـــل في لوح الطلى . وترن رقــاق المرهفــات في الرقـــاب رنين الخـــطب على الأعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر مــن نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد . وتحمــل اشـجار القنا بثمــر الهمــام . ويجيش الفضاء المعشــب بـــزهر الجيش اللهـــام . ويقـــطف ورد الموت الأحمر . من ورق الحديد الاخضر . ويوقــف حــد الهندي الأبيض على قصر بني الأصـــفر . ويجــري في ورد الوريد جــــد اول البواتر . وترمي من الحصون العاديات الى حصــون العـدا جنادل الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضـــافر ضوامن الضوامر . وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر مــن عقبــان الجو بالفتخ الكواسر . ويعبق ذوب الدارع من ردغ الثـواب بســهك الماذي . وتعلق في ملتقى التقـي الفــات الســـمهري . بـــلامات السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي مع الفرنج من معاقل المعاقل . ويغرق بحر المجر الجرار مــا تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق بـه مـن المدن المنيعـة الا صـور وطرابلس . ومعالم الكفر بهما في هذه السـنة المحسـنة بعـون الله تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء منبوذة . وعند الاتجـاه اليهـا مأخوذة . على انها بوقم قومها عام أول موقوذة . وحدود العـزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحوذة . فـانها قـد نقصـت مـن اطرافها . ودخل عليها من اكنافهـا . وجـدعت بفتـح حصـونها عرانينها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيهـا عرينها . فهي نهـزه لمفتـرض . وطعمـة لمقتنص . وسـلعة لمسترخص . وبلغة لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخـل البـلاد . ويستأنف بجهـده الجهـاد . ويسـتقبل الربيع بـربيع الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر مـن سـماء الرحمـة لأوقـات النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان ينجـد جند ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امله في تـطهير الأرض من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فـالجحافل حافلة . واسراب الكفر بين يديها جـافلة . ومعـاطف الاسـلام في لباس البـاس رافله . ونصرة الله بـانجاز عدائه في قمـع عداتـه كافله . والحمد لله الذي وفق عبـد مـولانا أمير المؤمنين في طـاعته لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهـره . واقتناء كل منقبـة حقق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجح مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف ارنون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اطاب لمناشق الآمال من نشره النشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الاول يوم الجمعة . بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعه . متوجها الى شقيف ارنون . ليقر بفتحه العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . وأقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتي مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في أواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرج الوسيع . والروض الوشيع . وأسمنا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط .وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولأجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من اهله ، وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل دينه يسليه . فأكرمه وقربه . وقضى اربه .وأجابه الى ما سأله . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهى (٣٥)غرب رغبه وأمهله . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في ناديه بنداه وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وترميم مستهدمه . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدبير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع مـن ســوق عسـكرنا الميرة . ويكثـر فيه الذخيرة . وقـد صـدقنا كذبـه . وحققنا اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشـتغل بـه مـن عمـارة يجدها . وذخيرة يعدها . وثلمة يسدها . وقـوة يشـدها . وميرة يستمدها . وكان بالمذكور سديد الظن . شديد الضن . لا يقبل مـا فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصـدىء بـالتغير عليه وجه جاهه الصقيل . فـأمر بـالانتقال مـن المرج الى سـطح الجبل . وتحويل الخيم اليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثـاني عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر فيه بـالصحة عقيم . وكان المقصـود ان الشـقيف مـن عيانه يقرب . واخباره عنه لا تعـزب . فلمـا علم صـاحب الشـقيف بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واسـتمسك بالعصمه . وذكر انه متعـزز بـذل الطـاعة . وبـذل الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخاف له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضـور . وانه يترقب وصولهم . ويأمـل عنده حصـولهم . وشرع في تقـرير هـذا الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده الذكير الذكيث . واقام يوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السـلطان دلائل امنه . وكانت المدة قد دنا انتهاؤها . وقرب انقضـاؤها . فـانها الى أخـر هـذا الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب واغتمام . وحضر عند السلطان فقـال مـا اظهـر بـه الابتهال . واسـتزاد الامهـال . وذكر انه رقيق الامتنان . وعتيق الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهـن وانه يبقي أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومـن انشـأ غرسا سقاه فأبقاه . وأشكاه فـأزكاه . وأسـماه فـانماه وقـد اصطنعتني ورفعتني فلا تضع الرفيع . ولا تضع الصنيع . وسـأل ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنة في حقه حسنه . وان يرخـي بطوله طوله . وان يشفي بشفاء ألمه أمله . فراقه قـوله . فـرق له طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فـكره . فغـادر على عزيمـة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما حاوله . وأقام اياما يردده . ويخصه من الكرامة بما يجدده . ثم كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجحد ما عنه رقي . وانه كيف يلقى بالكفران ما من الانعام لقي . وأنه لم يسعد بامهاله في الشقيف شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى وثاقته . ليدخل الموضع ويلمحه . ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن قد غيروه . وانه قد استجد في سوره باب . واستمدت له من احكام احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياب . وعرف ان السرح قد حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن فلا يحوج الى معاقبته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة المضروبة . والمهلة الموهوبة . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة وتنقضي . وتسلم الحصن وتسلم وتمضي . فأبدى ضرورة وضراعه . وقال سمعا وطاعه . وكان له ملقى وملق . وفي لسانه زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى ذوابي في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا عصيانه . وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه الى يوم الاحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول . والصعود والنزول . ويضايق غريمه المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكاك رهنه . فخرج اليه قس قاس . بأسرعن باس . فحادثه في حادثه بلغته . ونافثه في كارثه بغلته . وتحاورا في السر . وتشاورا في الشر . وكأنما امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلمـــا لم يفــد خـــطابه . ولم يجـــد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاه وشجنه . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبـل يوم الأربعـاء ثـامن رجـب لمحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهـم بمـلازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحـكم الســلم . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمـرج عيون مـن الاحوال وماكان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص مـن الأسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تـواصلت الينا امداد البحر . فثربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيمـوا على صـــور . وفــارقوا بــالاستطالة القصـــور . وجـــرت بين المركيس المقيم بهـــــا وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمـكنه مـن دخـول البلد . ولج معه في اللدد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الأمر . ويصله من الأمــر . ثـم اتفقوا على ان يقيم بصور المركيس . ويدوم منه لملكهـم التـأسيس ولملكهم التأنيس . وانهـــم يجتمعـــون على حــــرب المســـلمين وقتالهم . يتساعدون علي رم ما تشعث من احوالهم . ويتعـاقدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختـلالهم . ويقصـــدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالنوازل اقـامة المنازل . والمركيس يمدهـم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع مـا يحتـاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الغى الي هذه الغــاي . وشرعوا فيمـا شرعوه . وفـرعوا ذروة الأصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمـادى

الاولى من اليزك . ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعترك . وانهم على قصد صيدا الحصر . وقد جسروا على عبور الجسر . فركب السلطان في الحال فيمن خف من ثقال الرجال واقتال القتال . واطلاب الابطال . وانجاد الاجناد . واجلاد الجلاد . والباذلين المهج للجهد في الجهاد . ووصل الى الملتقى والشغل قد فرغ . والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت . والوقعة قد صدمت . والثورة قد ثارة . والسورة قد اسأرت . فان اليزكية لما شاهدت جاهدت . وتعاقدت علي لقائهم وتعاضدت . وخالطتهم . وباسطتهم . وواقحتهم وواقعتهم وجالدتهم وجاولتهم وحاردتهم وحاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين . وصدتهم منهزمين مثلومين . وقسرتهم وكسرتهم واسرت سرائهم . وبزت بزاتهم . وقنصت عقبانهم . وقصمت شجعانهم . وصادت صيدهم وفرست فرسانهم . ووقع في الاسر من سباعهم سبعة . وغودرت للنسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعة . واستشهد من المماليك الخواص ايبك الأخرش . وقد كان شهما بالوقائع يتحرش . وثبتا بالروائع لا يتشوش وانيسا بالحوادث لا يتوحش . وكميا كميشا بالكوارث لا ينكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان . وكانت الدائرة على اهل الشرك والطغيان . وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك . وقال لعلهم يعودون الي ذلك المعترك . فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم . وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم . واقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر . والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوي الظهر . وركب في ذلك اليوم . ليطلع من الجبل على القوم . ولم يكن له نية القتال . فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه . وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه . وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه . ثم ظنوا ان وراءه عسكرا في الكمين يحميه . ونفذ السلطان بعض الأمراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا . وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وختمت بشهادة اولئك السعداء تلك العشية . ونفذت من الله في استشهادهم

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجرأة وصدتهم . وتزاحموا على الجسر . ففرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجال . والحرب سجال . ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على العدو له قربه . فخاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعاده . الامير غازي ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب شابا . ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الغزاة . انقض في اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه موارده . وأوجد جمعنا الأسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر مساعي ذلك المساعد . وضاقت القلوب . وفاضت الكروب . وألم البوس . وألمت النفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت . ونذير حدث وحادثة انذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ اصيبوا غير هذه الكرة . واذاقونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات مرارة هذه المرة . فايقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١) وعباده هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبور الجسر اليهم . والاحداق بهم من حواليهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل البلاد . بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا . وتسابقوا وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق وحوران . يجرون الى مر الموت . ويجرون المران . وتوافد من بالمرج والغوطة . على الحالة المغبوطة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت الفرنج من هذا الجمع . وانافت على القمع . وتعكست الى سور

صور . وعاين اولئك البور البذور . وتحرزوا وتحرسوا . وتـوجلوا وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمـكن على غرتهـم حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى تبنين . صـبيحة يوم الخميس السـابع والعشرين . لتفقـد احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا جريدة . ورتب في عمارتها وولايتها احوالا سديدة . ووصى رجـالها بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقـظ . واسرع عودتـه الى المعسـكر . عظيم المفخـر كريم المعشر . مـوفق المورد والمصدر . مقرظ المنظر والمخبر . وأقام الى يوم السـبت سـادس جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاد عدة من امراء العرب

وانتهـى الينا ان الفـرنج ينتشرون في الارض . وينبسـطون في مـوضع القبض . ولايتحفـظون في الرفـع والخفض . ويحتـطبون ولايحـاطون . ويحتشـون ولا يختشـون . ويجذون ثمـار الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل . وهم في غرة مـن غاره . وفي جسارهم تعـود عليهـم بخسـاره . وفي غفلة تجـر عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العـذاب ظله . وانهـم اذا خـرجوا للاحتشاش والاحتـطاب . وانتشروا لضـم الاعشـاب مـن الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفـظهم مـن متعد . ونفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك الملاعين . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصـلت بهـا الكمين . وذلك يكون في صـباح الاثنين ثـامن الشـهر المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ الى عسـكر عكا ليكمن في موضع عينه . ولا يظهـر مـكمنه . حتـى يكون مـن وراء القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار السـلطان ليلة الاثنين على الموعد . مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت وابرت وابارت . فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها . وعين اليزكية

وأوقظ عينها . ورتب ثمانية اطلاب من الابطال . وكمن بتلك الارجاء كماة الرجال . وانتخب من كل طالب عشرين فارسا اجوادا على الجياد .واجلادا في الجلد على الجلاد . فامرهم بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهم يفرون قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها عليه . ويواقعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفوا من ان يقال عنهم فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتال واشتد . واحتدم المصال واحتد . وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى . ودارت عثرات الثرى . وانحلت عرى اللمم .وانحطت ذرى القمم . وعدم كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد اعتركت . وان البرك قد ارتبكت وابتركت . فتواصل انجادا للانجاد . وتراسل امدادا بعد الامداد . فلما رأى العدو ان المدد يكثر والعدد يكثف . وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف . صمم العزيمة . على الهزيمة . وعلم ان النجاة عين الغنيمة . فثنى اعطافه . وضم اطرافه . ورد احلافه . وجرت بين الفريقين مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مثقلة وكان قد حمل العرب على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى أسد ذلك العرين . ولم يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبرت من الطوارق بهم عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى منهج ملاذ . ورآهم العدو فعدا وراءهم . وسار بجمعه ازاءهم . فلما انتهوا الى الجبل ادركوا . ولم يقدروا ان يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهم الامير زامل بن تبل بن مرى بن ربيعة امير الذقره . وسري الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة . والامير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرى بن ربيعة وآخر معهم . فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهم في رياض النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا من العز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من المماليك الخواص . من ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضنفري السطوة . فلما حصل في المضيق . وأيس من الطريق . نزل عن فرسه على صخرة بنحوه . ونثل بين يديه كنانته . فارعا لذروه . وقد اوتر قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصاب بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح .وقد نزف دمه ، وترجح على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد ، رمق وبه رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع أعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته ، وأنشأه خلقا جديدا ، وأوجده في أجله مزيدا ، وهو أيبك الساقي زاده . ماجرى اجتراء على الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيعة الا طار اليها ولاأبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها

وصل الخبر يوم الاربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد ركب ، وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في رجله ، وسرحت ذئابه ونجت كلابة ، وجاش عرام جيشه العرمرم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من الذواقير ، وأضرم بنار السعير مساعي المساعير ، وهو على قصد عكا يجري الى المدى برأي جمعه المدامير ، وأن ذفرا منهم ذفر ، وسبق الى الذواقير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمون طرف الثغر ، ويضمون نشر الأمر ، ويصمون نحر الكفر ، ويجبون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون الحراسة ، ويطولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد ماراجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور نفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالدنو ، والعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في ادناء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة.

ووصل اوائلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العذق بالذميل . وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة في الأودية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، آخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبة . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، والفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في ارض صفورية بالانفال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رأيه بذور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكي ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبتوا تعذر حصدهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، واذا خلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطالبهم طلب الغريم ، وماأهون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا أقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التطاول فيه عذر ، فنمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب ، ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها الحصر . وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطيء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو ، حتى استظهرت بقوتها . وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاوائل الاواخر . كي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته وهيبته ، وانزل العسكر على تعبيته ، ونزل بمرج عكا على تل كيسان في ذوي اختصاصة ، وقد نصب من خيامه عليه اشراك اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب ، فدارت رحى الحرب ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى للانجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ، ورتبنا بالزيب والذواقير رجالا يصدونهم عن سبلها ، ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ، ونراوحهم ونغاديهم ، ونعاودهم ونباديهم ، ونقدم بعوادينا على عواديهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجدهم البحر ونعدمهم ، ومازالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتطاول ، وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، مترادفون مترافدون ، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البطش . وحملوا على البحر أوزار النجس . وتبالهم وتعسا . فانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهم وبين اليزكية ، كل بكرة الى العشية ، الى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومظفر الدين كوكبوري الأسد الغضنفر ، فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ، ولج اولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ، والاسلام يناديها باستصراخه ، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، ومامنا الا من اسرج الجرد وجرد السريجيات ، وعاج بالاعوجيات . واشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال الردينيات ، وردبان العقيليات ، وأزكى المذاكي وقرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سيفه ردع الدم ، وضاف جوده مضيف العدم ، واقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهلل ، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقت الآراء واجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة ، ومناب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده ، واجماع الالسنة والقلوب في الضراعة الى الله في نصرة المجاهدين من عباده ، وأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفلل مضاء مضاربهم ، وهم في مواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطئهن ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة مااليها مدخل ، وكالسور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشم مافية متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامت الحرب قائمة ، وديمة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما امسوا . وزادوا على ماجرى امس

وأهلوا عنه وأذسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس الظهور ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شديدة ، كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة ، وفرشوهم على تلك التلول ، ووردوا مضاربهم من فلهم بادية الفلول ، وانهزم الفرنج الى تل المصلبة نحو القبة ، وثبتوا عند الوثبة ، وأخلوا ذلك الجانب ، وخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت أطماعهم عنها ، وانفتح لنا طريق عكا . ودخلها الرجال .وحملت إليها الغلال ، ونقلت اليها الأحمال ، ودخل العسكر اليها وخرج ، وانشكف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفرنج من سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادي ، وترك الهوادة في قصر القصر ، والهوادي والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ، ولكن اصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت ارادوا كانت منهم عزيمة . ومن العدو هزيمة وتوقفوا على الاتمام ، وتقدموا عن مقام الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هيأتهم وهيبتهم ، لباء الاعداء لنجحنا بخيبتهم ، فان الصدمة الأولى أخافت وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها انافت ، ولكننا تركناهم حتى عادت اليهم الأرماق ، وعاود فرقهم الافراق ، وابصروا مابين ايديهم وما خلفهم . وازالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في مستنقع الموت ارجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمراؤنا هؤلاء قد سهل امرهم ، وخمد جمرهم ، وقد حص رياشهم حصرهم ، وهم في قبضتنا اي وقت اردنا ، ولقصدهم تجردنا ، وقالوا نصبر الى الظهر ونمضي ونسقي الخيل ونعود وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود . فانصرفوا على وعد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلع العدو ريقه ، ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار راجله ، وزم رامحه ونابله ، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروخ وفوقوها ، وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقم ، وفي المجان

علاجم ، وفي النهوض قشاعم ، وفي الضراوة ضراغم ، واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم ، فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ، ونزورهم بالحتف ، ويترجل الامراء فيتبعهم الاصحاب . وتنشب من آسادنا في تلك الخنازير من الذشاب الأظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فننسفهم ولو أنهم جبال ، ونطفيء نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال.

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد . فاذا زحفنا اليهم . واوجفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين . ولايبقى للدين بعد درك الثار منهم دين . ومنا من يقول لا بل نفرج عنهم . ونبعد منهم . فما دمنا على هذه المضايقة والمصابرة . والمحاقة والمحاصرة . والمكابدة والمكابرة . فانهم يتيقظون وينتبهون . ويتحفظون ولاينهون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املهم . استرسلوا بعدما استبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما مااستقلوا . واطمانوا فطمعوا، واذا ابطأنا تسرعوا واغتروا بانا على غرة فأغاروا . وظهرت لهم اثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا . فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد النمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقمهم الا العدد الكثير . ولايقمعهم الا الجمع الجم الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابادتهم البادي والحاضر . ونستجيش الجحافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم • وازوادهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تنقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولمراكبهم في الشتاء شتات . ولحبائلهم وحبالهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤذن فناء ارزاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في تلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال).(الاحــزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خــطر . وفي المباشرة بحربه غرر . والمصــلحة العــامة تلحــظ . ورأس المال يحفظ ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها الاباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونســتعدي على هــذه الافــاعي بعقاربها . ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها . ونعــدو على عوادي الاعادي بعواديها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحــر . وصلت لنا اسباب النصر . وحينئذ نقاتلهم برا وبحــرا . ونوســعهم بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . ومازالت هذه الاراء بيننا متــداوله . وخواطرنا في تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفــرنج جــاريه وزناد الهيجــاء لا شــعال نارهــا واريه . وفي كل يوم نتصـــافح بالصفاح . ونتكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بــكلام الكلوم . ونلحــق منهم الموجود بالمعدوم . وللطلائع وقائع . وللسهام افــواق فــائقة . وللحمام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتــأسر . وتبري وتأبر . وتكبس وتكسب . وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه .وهو يدأب في يومــه لغــده مجتهــدا في الزيادة على امسه نائبا عن اعوان المسلمين وانصارهم .ساهرا لهــم في ليلهــم. قائما بــأمرهم في نهــارهم .والعين الســـاهرة في ســـبيل الله قريره .وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر ذخيرة

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم .وتقــدموا من موضعهم .واشــتاقوا إلى مصرعهــم .وفـــارقوا الحـــزم في تسرعهم .وخرجوا عن رجالتهم .وتجردوا بخيالتهــم .وحملوا على الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد .فتحرك الصف الثــابت الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلحل من القــواعد .وتــراجع عنهــم المسلمون استدراجا .وملأت الارض السماء عججا وعجاجا .وزخر

بحر الحرب على أمواج امواجا . فما قربوا من خيام اليزك . الا وقد اعتكر جو المعترك وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على اعقابهم ووصلت الى رؤساهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا . وثنت وجه الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر عاثر . والذمر الباسل باسم بالموت باشر . فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعساكرهم الى الهيجاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها مشروحة والفرنج قد ندموا على ماقدموا . وعدموا بصيرتهم بما صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . ويذقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهمام الباسل . والقرم البازل والندب الحلاحل . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فواته . أسف على عمره . وأسي على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم يستشهد في الجهاد سعيدا . وقال:قدموا حصاني حتى اشهد الحرب واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على الفراش عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، وتوفي عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبوأه الله الجنان ، وبشره برضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فارس الحرب . ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب . حسام الدين سنقر الخلاطي النجيب المنتجب فنبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجل اجل الهمامين ، فوجمت النفوس ، والمت القلوب وفاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة للعرب . أربت لنا بالأرب

انتهى الينا ان الفرنج . يتطرقون ويتطرفون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاش ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فارسة من الفرسان ، فاغاروا وهم غارون ، وساروا الى جمعهم وهم بتجمعهم سارون .وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم بؤسا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقل . وفي كل يوم تقوم الحرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتساق ، وكم قتل من حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتوافقا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغذوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ماجري وغرائبه ، وملح ماتم وعجائبه ، ان الطائفتين في بعض الأيام . ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صبيانكم الى صبياننا . وليكونوا في

امانكم واماننا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخران . فقاتلوا مليا ، والفوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المسلمين . على احد الصبيين الكافرين . وضرب به الارض . وقفز عليه وانقض . وقبضه كسيرا وجذبه اسيرا ، فافتداه بعضهم بدينارين . وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظاهرة . انه افلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن . فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربطه . ومازال يعوم في البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصحابنا اليه . واهدوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين من شعبان . وقد رفعوا الصلبان ، وزحفت اسودهم في غاب المران . وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح . وجالوا دون التل كأنهم له وشاح . وخرجوا على التعبيه . وشفعوا نداء الكفر بالتلبية . وشفعوا بالتبرية التربية . وتقدموا معتزمين . وعزموا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل امام الفرسان ، وزحفوا اطلابا ، ودبوا دبيب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق الى القرار . وجروا نيول السوابغ الى الفوار ، وتحركوا وهم هضاب ، وتدركوا وهم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتكاثف . وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثور . وترود وتدور . وتهم وتهمهم . وتدمدم وتدوم . وقد عبى السلطان ميمنته وميسرته ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثابت . وحزبه في صف الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحض علي حظ الابـد . ويحـث على الجـلاد والجلد .
ويثوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شـاهد شروق بـروقهم .
وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشو حشود كثرتهم . انهض
رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين
من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح ، وكلمـا
تقدموا تأخر يستجرهم . ويحذر مكرهم ومكرهم . فعرفوا انه لا قبل
لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميقات مقـاتلته ، فتـركوه واسـتقبلوا
القلب وزخـر بحـرهم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منهــا
الدو . واسود منها وجو الجـو . ووصـلوا الى جمـوع ديار بـكر
والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيرة ،
وكانت من القلب الى الجناح الطيران وجبالها على الرياح للجـريان
فعرفوها بالفر . واستضعفوها لدى الكر . وألموا بهـا فمـا ألمت .
وهموا بها فما همت . واندفعت ومادفعت . وتراجعت وما رجعـت .
وتعكست وماعكست . وادبرت وماتدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال
الفرنج هابت وماهبت ولابت (٣٤) ومالبت . ورابـت ومـاربت .
وجاؤوا الى القلب وقلبوه . وحـاربوه وحـربوه وخـربوا حـزبه .
وخرقوا حجبه . وهناك استشهد كرام بـاعوا انفسـهم بـالجنة .
واسنو نحورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مـروان . وكأن
مجليا في المروة . والظهير اخو الفقيه عيسى وكان ظـاهر الفتـوة .
واخرون اعترفوا بذنوبهم فرحضوا بمـاء الشـهادة دون حـوبهم .
وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استطالة حزب الصلبان .
وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على
التل نشاهد الوقعة وننتظر مايكون من القوم . ومـاظننا ان القـوة
بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خـالطونا في المخيم .
وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . اسـتدركنا
امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهـزم عمـا
تركه مـن خيامـه ورحله متخليا . فـوافقنا في الاندفـاع . والفينا
الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل .
ووجدنا ساكنها قد اجفل . فسـقنا الى جسر الصـنبرة ونزلنا على
شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لايألف مبيتا . ولايلفى بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد انن ضيق نفسه بضـيق نفسـه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طـريق . واقمنا بمـوضعنا على الخـوى والخيل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفـرق غير مفـارق . والقلوب مـرتاعة مـرتابه . والادعية الى الله مـرفوعة مستجابه . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جـده . وعدا جنده وان الكفر حاد فله وفـل حـده . وان الميسرة ثبتـت فثـاب اليسر .والاسدية انتصروا فـأسد النصـر . وكان هـذا الصـدى يقـوى . والصـدأ يروى . والبشرى تسري .والبـرد بهـا تجري .والناس بين مصدق ومكذب . وذاهب في مـذهب مـن الظـن مذهب مهذب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صـافي وقـد ورد مورد الظفر الصافي . فنادى أين العمـاد . فقـد جـاءه مـن النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعنا عليه . فقلنا ماالخبر. وكيف ضـفا الظفر (٣٦) . وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسلط القدر . والى اين انت سار بالنبأ السـار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم . والخبـر الكريم . فقلنا اهـلا بشائر البشائر وطائر الاوطـار . والسـائر بـالمسار والاخ البـار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموافق . ومرحبا بـالخصي الخاص لما مر حيا فحل بالخبر الفحل فحلا . وكم ام للنجـح امـلا وجلا وجلا . فأبنا محبورين مجبورين . وثبنا مثـابين مـأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخـذ بـالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومـن مقامه ماانتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى اجرى الدماء .

-٥٩٩٢-

ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسره
وكيف ادال الله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتره . وكرت الكره . وامـرت تلك المره . وصل جماعة من الفرنج الى خيمـة السـلطان وشـيم مـن عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جـوله . وخـالوا دوله . وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشـياعهم . وعدمـوا اتبـاع اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتمـاعهم . فانحدروا عن التل . وقد جاؤوا بقـوة العـز فـآبوا بضـعف الذل . واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسيافهم . وردوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم . وكان في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بـالجبال الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد مـن كان مـن الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين . وقايماز النجمي والحسام بن لاجين . ومـن ثبـت مـن أبـطال المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانهلوها من دمائها وأعلوها . ولفوها وفلوها . ولقـوها واقلوهـا . ووضـعوا فيهـا السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . واوسعوها قتلا ذريعا .

ومابطأ الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعـا . فلم يفلت مـن الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الافها الا احاد . وامست لنا الحـرب فراشا . ولارض المعركة فـراشا . وتبعهـا اصـحابنا حتـى كلت سيوفهم وكلوا . وملت لتوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسـة الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحـامية لنار الحمية . وحكي عنه انه قال:عرضنا في مائة الف وعشرة الاف . احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تـلاف فلمـا عجـزوا . وبـالخندق

احتجزوا . وقف عنهم اجنادنا . وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفا فردوا مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت من المثلثين ثلاثين واربعين . وتركتهم بالعراء عراة مصرعين . ولا شك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك مما شهده . ويعهد الينا بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قطوف . ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فارس مدجج . في بحر الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادى بشعار المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصلبي سنانه . فما شككت انه يشكني بلهذمه . ويفكني بمخذمه . وايست من البقاء . واذنست للشهادة واللقاء . واستعذت بالله واستعنت . وتشاهدت مما شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني حدمته . فالتفت فاذا هو وحصانه ملقى كلاهما. وما وجدت بالقرب احدا اقول انه ارداهما . فعرفت انه نصر الهي . وصنع رباني في مذاق الايمان شهي . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصرة ماملكت ، الا الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لاسرار الله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الألطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها . وشكر الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيها واشاعة نشرها . وذكر فيها ماالفرنج عليه من اجتماع راجلها وفارسها . والاحتماء بخنادقها ومتارسها . وان لنا كل يوم فيهم نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامل في دمائهم والغه . ومضارب مناصل لرؤوسهم فادغة . ونيوبهم عواسل ماضغهم ماضغة .ونيول نقم عليهم في تقليص ضلالهم سابغه . وايدي ايد لصفحات البيض بنجيعهم القاني صابغه . وضمائر وضوامر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهمما وعزائم لاترى عن وقم القوم اهل الزيغ زائغة . ومابرح الفرنج في برح شديد . وامر غير سديد . وظل الذل مديد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتى ضاقت انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر يأسهم ووقع بينهم بطول المقام باسهم . فاجمعوا امرهم على انهم يجدون في اللقاء . ويهجيون الى الهيجاء ، ويلقون الالوف بالالوف . ويصدمون الصفوف بالصفوف . ويعرضون نحورهم ووجوهم على الاسنة والسيوف . ويكسفون بشبه التثليث ادلة التوحيد . ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحد الحديد . وبرز ذلك الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان . ورفعوا الصلبان واشرعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبوا الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها للحق ابطالا . وتأمل لشملها المتفرق اجتماعا . وترجوا للصليب السليب ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج . واقبلت بحار سوابحها وسوابغها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم . فانها خرقت حجاب الصف . وفرقت شمل الجمع الملتف . وزاغ جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمه . فظن من لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبلج قد اظلم . وهناك عرف اهل الثبات . وثبت اهل العرفان . ورقصت المران على اشاجع الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقى السنان بالسنان . وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت اللهاذم في كلا الكلي . وفتحت اليفالق مغالق الحتف . وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصلت ضرب الاعناق بقطع الرقاب . ومازالت تشل الفرنج وتفلهم . وتحل بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم . وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فرشت بعد ان سلبت اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع اجراء ولم تطق جريا.حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح . واعرب

حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل من مقدميهم ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهى الاسلام بما اتسع من عطن عطبهم . وحسن منقلبه بسوء منقلبهم . وعاش بما شاع من قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين . وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين . وانجلى الغبار عن كل قتيل مالعاثره من مقيل . ولالقائله من مقيل.وعادت اعلام الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهدي الهدى على النصر مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا من فقد رجاءه . ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الالوف واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الحتوف . ودخل اليل عليهم . ووقفت العساكر حواليهم . وهم وان وهنوا لما اصابهم من الكسره . واخطأهم من النصره . وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجع كلهم بالجزء . ونقص منهم العدد الكثير . وركد من ريحهم ذلك العاصف المبير . فانهم في حشد كالدبى . وجمع اغص الوهاد والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا . ووددوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا . وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا . واوسعوا الخنادق وعمقوها . واحكموا المتارس ووثقوها . وندموا على الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم مادامو رابضين . وعلى يد الصبر قابضين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهم ، وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها للشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق من ذلك الغرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب . وماثبت الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سديد ساد الثغور . ومجاهد الدين يرنقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين . وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد . ومـاذا

يقال في شبل ذلك الاسد . وانما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا . والفرنج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على قطع دابرهم . واهلاك سائرهم عن اخرهم . وتحريك همم المؤمنين في تسكين سائرهم . وتخريب عمرهم وعامرهم . وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم . ومادام البحر يمدهم . والبر لايصدهم . فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم واسوائهم ملازم . وتدبيرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيرة اهل اليقين . وما يقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه . وتظاهره في اتساع مسلكه واتساق سلكه . وقعود المسلمين وتقاعدهم وتعاضلهم في تعاضدهم . وانحلال عقود تعاقدهم . فلا ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فانظروا الى الفرنج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا . وأية شالة نشدوا . واية نجدة انجدوا . واية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم . ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم واكابرهم . الا جارى جاره في مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجد والاجهاد . واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس بانواع السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا . الا لمجرد الحمية لمتعبدهم . والنخوة لمعتقدهم . وليس احد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجاب عزهم وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يدإلى بلده . والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدموا الغيرة . ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان . اوخباسنى ونبا سنان. لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقربها . من لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهذا اوان رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على انا بحمد الله لنصره راجون . وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناجون . والمشركون باذن الله هالكون . والمؤمنون آمنون ناجون .

- ٥٩٩٧ -

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء . وزادت مشاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن جملتهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل الرجاحة والسجاحة . وهو شاعر مفلق . وفقيه محقق . من ولد عبد الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق . فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الارموى المكبس . وكان سديدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلام في الخزانة امين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة . واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم. وفثأنا سورتهم . واخمدنا فورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز والاحترا س الطريق . فنحن نوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع . ونذرعهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع . ونوسعهم قرى القراع . ونذيقهم حر الحرب ، ونسقيهم في طعم الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهاما ، ونتخذ لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر ، ونطيب من نتفهم النشر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع وأوشابها . ظنوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء دين السودان. واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجرىء متندم . فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . ففتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمدد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة أمكنت . والحصة تعينت . والجو خال . والضو عال . والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى . وعرانا المضض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة مذبتة مبتته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل النسور . وان قدرها بطون الضباع والنمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صديدها اهل الكفر ، فحمل الى الماء اكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتبر واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حزب من الخلل

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدي عليه بمثلما اعتدى . فاحضر كل ما

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع يقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئا اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الوبل الرشاش . وصح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلاص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها . وقضاة القواضب الى اقتضابها . وغار الآنف وأنف الغيران . وتسلط العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور . واشرأب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية للتقاضي . وقالوا حتى متى التراضي بالتغاضي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد

وحضرا أكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكلاكل كله . وقد برز بالكفر كله إلى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفد وسعه . وإن لم نعاجل الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل داؤه . وتعذر غدا لقاؤه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الاعداء . فظهر الاعدام من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما بلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بلاد الاسلام من يعدنا . وعساكرنا حاضره . وعزائمنا للتواني حاظرة . وعيون أسنتنا إلى الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين . ولا بقاء الذقاد إذا أصحر منه ليث العرين . فالرأي كل الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المحاجزة . ثم قال ليشر كل منكم برأيه . ولايقدم على قول ورأيه من ورائه . فتجاذبوا حبل الاضطراب . واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل منهم هواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين الثاني لا الأول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطول . والنائب الأعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوما . وما طعمنا في هذه الليالي نوما . ولا سمنا لطارق طيف غمضا . ولا شمنا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنما خلقوا على صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وفلت البواتر . وملت العساكر . وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما يتأتي قلعه الا لمن يتأتى . وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لايتمكن منهم إلا بالجمع الجم . والسيل لايغلبه غير الخضم . والصواب أن نصابرهم . هذه الشتوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء العلوج . ونعيد السريجيات إلى سلها والسلاهب إلى السروج . والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسل إلى الاطراف والاوساط . ومكاتبة دار السلام . واعلام الأمام عليه أفضل السلام.بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون . ويقومون بالنصر . ولايقعدون . ولايترك استنفار التركمان . وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعاؤهم بالعطايا . والتشريفات السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمم والعزائم الوانية . إلى ان تمتلىء بالجموع ساح الساحل . وتغلى بنار الحميات بها مراجل الراجل . فحينئذ ينتهي أمد المصابر .

ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونباديهم ونفاتحهم قبـل انفتـاح البحر . ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر . وننسفهم ولو أنهم جبال . وننزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطـرق جفـن بلد منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهـم غرار . ومـازلنا في مشـاورة ومحاورة . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة . والخروج من الضيق إلى السعة . ومـن نزال الحـرب . إلى المنزل الرحب . ومن المعترك المعتكر . إلى المدرك المبتكر . فلم تعجبني هذه الحالة . ولم توافقني هذه المقالة . وقلت لعمري أتيتـم بمصـلحة . ولكنها غير مترجحة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار . ولم يحـدقوا بجميع الأسـوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهـم أرخينا خناقهم . وأطلنا إلى مرادهم اعناقهم . وباب عكا من جانب البحـر مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق إليها سابلة . والذخائر إليها في كل يوم داخله . والفـرنج عن قـطع الطريق عاجزه . وعزائمنا على مصـابحتها وممـاساتها لهـا دون قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وان هـونا احـكموا . وإن نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم تحفظوا . ومتى نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فـانهم لحصر البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايبلغون . فقالوا هذا أمـر هين . وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصـودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضـاربهم ويصـحروا . فإذا أنسـوا بالرجاء.لم ييأسوا من الارجاء . أرخينا لهم حبل الأنظـار . حتـى استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغـاث . ونصـدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان متكرها لما أبدوه من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

-٦٠٠٢-

ذكر الرحيل إلى الخـــــروبة . عند خيم الأثقـــــال المضروبة .

كان السلطان مع ما ألم بـه مـن الألم . غير مبـد وجـه الملل والسأم . وهـو في كل يوم يركب وعلى العسـكر يطـوف . ويقـف مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر . وعليه أثر الضر مـن الصـبر . فليم على فعله . وخصـه الطبيب بعـذله . فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابـع شـهر رمضـان ، وخلى المنزل الأول وأخلى العسـكر ذلك المكان . وتقدم إلى من بعكا باغلاق الباب . وسلوك نهج الاحتـراس والاجتناب . وجرى الامر على ما كنت قلته . وتحقق مـن الخلل مـا خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خاليا . ورخص عنه ما كان من سوم خوفه غاليا . وشرع الفرنج في حفر خندق على معكسرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر . وأخـرجوا مـا كان في مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم . وبما ظهر مـن أثـرهم . والجـد في تعميق الخندق وتتميم محتفـرهم . والعسكر هاجم . كأنه واجم والظن فيه راجم . وشر الكفر ناجـم . وما فينا لعود الأمر عاجم،وقلت يوما للسلطان يركب العسكر إليهم . ويركض عليهم . فلعله ينال ظفرا . ويقضي من كسر العـدو وطـرا . فقال ما يعمل العسكر شيئا إلا إذا كنت معه راكبا . ولعمله شـاهدا مراقبا . ولقد صدق في مقاله . فانه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا يبذلون معه المهج . ويخوضون من بحر الحرب اللجج . ويوسـعون لهزم العدو المازق الحـرج . وكان مـن قضـاء الله أنا أغفلناهـم . وأمهلناهم بل أهملناهـم . حتى عمقوا الحفور . ووثقوا من تـرابها السور . وملأوه بـالستائر . ومنعـوه مـن الطير الطـائر وبذوه وأسـوه . وستروه وترسوه . ورتبـوا عليه رجـالا . ولم يتـركوا لواغل مجالا . وتركوا فيه أبوابا وفروجا . ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا . ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقـول

لامبالاة بهم ولا أكتراث . وما أسـهل إذا عزمنا عليهـم لأصـولهم الاجتثاث . وبسيول سـيوفنا نغسـل تلك الاخبـاث . وأي وقـت قصدناهـم وجئناهـم وجـأناهـم . وذكأنا قـرحهم وذكبناهـم . ومـا فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما حفروا الا قبورهـم . ومادبروا الاثبورهـم ومتـى قصـدناهـم كذبـت ظنونهم مذونهم . وامتلأت باشلائهم خنادقهـم . وأظلمـت عليهـم بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسـفر عن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل بـاتمامه سـمعه وبصره .

لما تمت على الفـرنج تلك المقتلة وعمـت فيهـم الهلكة . وضـمت أشلاءهـم المعركة . وشوهدت على الربا حجب نحـورهـم المهتـكة . وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابـر انه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر . وانهم قـد عدمـوا القـرار . وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان:ارحلوا عنهم حتى تروا مـا يكون منهم . فانهم يرهبون ويهربون . ويبعـدون إلى صـور ومـن بعدها من عكا لايقربون . فمـال قـوم إلى مقـاله . وتخيلوا مثـل خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدر عن ورد الرصد . والجـد في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولايعوقهم فانهم كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه . وبدا وهنه . ومازاد الفرنج الانباتا ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأي القائل . ونقول ما أعجـب قبـولنا لقول هذا القائل .

- ٦٠٠٤ -

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد العزائم من الدواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه . ومداراة ألمه . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له ألطافه الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مرابعهم لوقت الرجوع . وأقام في مماليكه وخواصه . ورجال حلقته المنصورة من ذوي استخلاصه . ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار بهلاك القوم منه فلكا . وكان في مماليكه كل مقدم مقدام . وكل همام همام . وكل ليث ذي لوثه . وكل حدث محسن له حسن أحدوثه . وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم . وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطال . وكل مغير للنصر مريغ . وكل مسيء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ . وكل تركي للرماء غير تارك . وللاصماء غير فارك . قوسه في ظفر الهدى مؤتر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر . وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد . وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار . وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللبسالة كاس ومن الغار عار . وكل مهراني في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الابطال ظاهر . وكل كمي كميش واكنيش . فما خلا يوم من وقعه . وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير سهامهم إلا بلسعه . وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم إلا على لطعه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل صباح ومساء حيت . وبلي الفرنج منهم بالمبير والمبيد . واعتاق بهم مراد العدو والمريد . ومازال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم . وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشرك بتصديهم . وحركوا

ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلينا به من سني النصر مطلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة . وغنيمة صفوة . ونشوة أعقبت صحوة . وصيحة استصحبت ضحوة . وقوة من وهن العدو . ومحبة فكت رهن السلو . فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم . وانخفض اغتباطهم . وفترت عزمتهم . وقصرت همتهم . وخمدت فورتهم . وركدت ثورتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتفشوا . وتدفعوا وتنعشوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتدرك الضامن . وصاروا يخرجون ويحرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمسون على القتال ويصبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم . وجم جمعه واجم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والنوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكبة .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمى الخبر بوصول ملك الالمان إلى القسطنطينية في عدد دهم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور الى بلاد الاسلام . وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وانه في ثلاثمائة الف مقاتل . من كل سالب باسل . وطالب باطل . وجهم جهنمي . وأشقري سقري . وأنمش أفعواني . وصل صليبي صلائي . وأرقش حنشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومغوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجار الدرع جار . وكل ذئيب عاسل .ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصيال . ومشمر على الموت متمرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع . ماله سوى السوء

من مقنع . وانه مع الالماني ملوك وكنود . وكل شيطان لربــه كنود .
وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن . وهو في قلعته على الفـرات
ومن أهل الذمة في المأمن . يبدي تنصــحا وإشــفاقا . وتخــوفا على
البلاد واحترافا . ويقطع بان الواصلين في كثــرة . وان الناهضــين
الى طريقهم في عثره . وابــرق في كتــابه وارعد . وابــدع بخــطابه
وابعد . ولا شك انه الى جنسه النجس مائل . وبمــلاءة اهــل ملتــه
قائل . ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبــر وخيل
أنه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصــدقون ويكذبــون .
ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضح هذا الخطر .
وصح هذا الخبر . فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون . ويغضبون لله
ولايرضــون انهــم لايعضــدون . على أن الله ناصرنا . ومــوازرنا
ومظاهرنا . وحققنا باظهار القوة لمن اســتوحش التــأنيس . وبثثنا
بــالارسال الى بــلاد الروم عيونا وجـــواسيس . وندبنا رســـل
الاستنصار . وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار .
وقلنا ما هذه المرة الامرة ولايسيغها الا كل مرىء ابي . ومــا هــذه
الكرة مثل كره . ولايحضرها الا كل كميش كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافــع
ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له
ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعــل له الى كل
الذي طرف في طريقه رسالة . واودعه اليه مقاله . فسار من عندنا في
شهر رمضان مغذا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل الســير جــذا .
ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيي بن عبــد الله
الشهرزوري رسول الســلطان ببغــداد قــد عاد . وذكر انه قــد بلغ
المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل
العدة الاستنجاز والعدة الاستنجاد . فمــا هــذا الرســول الرائح .
وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح . واذا اختلفت الحديث حــدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الفي الائتلاف . فما هذا العجل . ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن كل ما ابان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا لا اقدر على صد من الخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة تردى . وأنت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعا . وتجد شمل ما الفته جميعا . فوصل ضياء الدين الشهر زوري وهو مغتاظ . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي . ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخالي ومخالطي . ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن . فما بسط عذر . ولا قبض ذعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف . ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه . واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ . والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للامام يكن لك . واقبل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني . واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير مبرم . وأن الرأي الذي أحكموا . غير محكم . ومازلت أوكد الأمر حتى يؤمن انتقاضة . واتعرض دون الرأي حتى لايمكن اعتراضه . وايقن ان الامر مافيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلبث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان . بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة . ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهر زوري بشهر زور . واستدعيت عسكره المنصور . وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا راي رائب . وشاو شائب . وأمر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

الامام بما لايقرن بوفاء . وكيف ينجـز هـذا الوعد . وينجـح هـذا القصد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل مـا يدخـل في استطاعتك . اما صاحب الموصل طلبها فمنع . وصاحب اربل عنهـا دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لحدها وحقهـا خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من الجنود والنقود انجادا خفـافا وحمـولا ثقـالا . فـاذا عرف اذك اخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . وملك مالك الامر امركم . وابدوا في انقطاعهم عنك عذرهـم . وانقـطع الواصـل . وارتفـع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على مـا نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بـكتمر في خـلاط . قـد جمـع الاخلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغيابـة والغبـاوة . فقـال السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحـق والحقيقـة . فـان وصل الينا اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشـهر زوري الى بغـداد . صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد ، وقيل له جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، ونندبـه فيمـا نتخيره ، وشرف بهـاء الدين وأعيد ، وزين ضـــياء الدين وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الأحماد وسيأتي ذكر مـا آلت اليه نوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان والاستظهار بمجمـوعه والاجتمـاع بـظهوره لنصرة الايمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصـف شـوال . في جيش وآل . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشـكة رادعة . وشـارة سارة . وديمه من البأس داره . وعدة منتخية منتخبه . وعدة منتقاه مهذبه . من كل أجدل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على سوذليق .(٣٨) وبحر على سابح . وجذع على قـارح . ومـن كل رئبال على تنفل(٣٩) . وأغر محجب على أغر محجـل . ومـن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل بـالسمر سـلاب . وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شـجاعا . وكل أحمـى أحمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقسور قـاسر . وضيم ضاغم . وقمقام واقم . وليث به لوثه . وحدث له في الشـهامة أحدوثه . واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبسي عابس . وكل مغامر للمـوت مفـامس . وكل غربيب حلكوك . وكل سرحـان صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خـارح لثـار . وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسـخ . وجاؤوا بالغبسة القبطية . والترسة اللمطية . والصلال القفـطيه . والالال الذوبية . والحراب الحربية والصعاد الصعيدية . والصوارم المذروبة . والصرائم المشبوبه . والاسـنة المسـذونة . والصـوابغ الموضونه . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماسيح المزدرده . والشـياطين المتـوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يترك في كل مـا يراد من القوة مجهودا . واقبل في روع ظاهـر . وضوع باهـر . وبشر ذائع . ونشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهـزة وطـرب . وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى . وغياث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبـى . لقـد نص النصر . وكف الكفر . وسـلم الاسـلام . ونام الانام . وأمـن الايمان . وتسلط السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت الآمال . ونيل رجاء الرجال . وأزيل إبـطاء الابـطال . وورت زناد الأجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعـد اليوم . الابعـد القـوم . وادرك ما استقام من النهج . وهلاك من أقـام مـن الفـرنج . ونزل الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقـدم السـلطان إلى راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخـل العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صقع من صقعه . وفي كل ليلة

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالذكاية فيهم مليه . والملك العادل يركب في كل يوم ويبلي . ومن جهده في القتال لايخلي . والفرنج على البلاء صابرون . وللعناء والعناد مكابرون . لايبرزون ولايبارزون . ولايجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومحاولة أهل الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . براياتهم المنكوسة وآرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الاقدام المصدودة المسدوده . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات التي وقعت . أكثر من عشرين الف مقاتل . من فارس وراجل ورامح ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرث الا نار حرصهم . وما فلل حد حديثهم الحادث . ولاقلل عدد كثيرهم الكارث . ولاغضوا عيون أطماعهم . ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولاردوا وجوههم عن مواجهة الردى . ولاقطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا بالمدى . وهم لمواضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البوائق محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون . وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون . وإن جندنا لهم المنصورون . والعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية شديده . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ذاكية . وصدمة صادعة . وحدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

الوصول إليهم . جمع راجل البلاد . وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد . حتى تقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس . وتفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل الأخ العادل وفقه الله المراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع من في ديار الكفر . فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة . ولاخطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وأنهضت كتائبها . وتحرك ساكنها . وبرز كامنها . ونفضت خزائنها . وانفضت معادنها . وحملت نخائرها . وبذلت أخايرها . وثار ثائرها . وطار طائرها . وذئلت كنائسها . واستخرجت دفائن نفاسها . وخرج بصلبانها أساقفها . وبطاركها . وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها . وتصلبت الصليب الصليب . وتغضبت المصاب للمصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم . وأن أخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا . وبحرب الاسلام مجاهرا . ولمتعبده مستردا . ولجده في النخوة لدينه مستجدا . فقد وهبت له ذنوبه . وذهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن السفر . سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد . وتواصلت منهم الامداد بالامداد . وتوالت أنجاد الانجاد . فهم على النقص يزيدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يجودون . وعن اللجاج في حوض اللجج لايعودون . وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم ديارهم . ورمتهم إلي أغراضهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمر . ويصول الكفر ويجول . ويتطاول الشرك ولكنه لايطول . فان لدين الله من خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسفر صبحه . ووفر نجحة . وبدا علوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العوارف

الامامية . والعواطف النبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية . الى أن يفرق الجمعين . ويجمع للفريقين القمعين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر . بتجهيز الاسطول وتجزيه حياله . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لايراده وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته ، وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيهاأحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد . ما سلك نهجا الاملك . ولاطلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقيبه . مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للازواد والميرناقلة . فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق أباطيلها . وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين الكفر رجوما . واقبلت سواريها بالرواسي . مبرمة الأمراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . فصدتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكأنما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها . واناحت ظعائن الضغائن على شواني . شوانيها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها . فأول ما ظفر الاسطول المنصور . بشيني للفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم وذخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيدى سبأ . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الاسطول المصري المنصور فجاءها فجاءة . وامتدا سطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءة . وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشناة فعادت مراكبهم وهي نواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . وأطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا

لاغبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة . وألهبت في الماء على اهل النار كل نار النكال مسعره . واذقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شاءت . وتبعتهم مرارا وبالغنائم فاءت.وأعشت أعين الرائين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فَارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . لشانئ الدين واجيء مفاجع العدو بالهلاك مفاجيء . مفرق لراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد لبهجة الاسلام زائن . زائر بكل أسد زائر . سائر بكل مقدام إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وأرهقت غروبها وسنمت غواربها . وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض . وأرجلها على الثبات في روابي متون سفنها روابض . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلقوه وبالمدافعة ويجاولوه. فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

الاوجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنهم وأننت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى . وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والذخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلأ البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات . والرمي في العرادات . والحذف بالدفاطات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالمحرقات . والقاء القوارير . واذكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصلة القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات . وتطيير الناوكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقذ . والجد في الجد والجذ . وطروقهم ليلا على سبيل التلصص .

وسوقهم على وجه التصيد والتقنص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا .واجترأوا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه . ومن تعذر عليه اخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمد مديته . ويسلبه سكونه بسكينه . ويجعله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الأسر . ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراس والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقهم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار . حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار . فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امراة افرنجية مستحسنة . متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وترافدن على الارفاق والارفاد . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية(٤١) . متغنية متغنجة . متبرزة متبرجه . نارية متلهبه . متنقشة متخضبة . تائقه . فائقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة متشهية . ملهاة متلهية . متفننة متفتيه . ناشية منتشيه . متشوقة متسوقة . مقترحة محترقة . متحببة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء . غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتثني كأنها غصن . وتتجلى كأنها حصن . وتميس كانها قضيب . وتزيف وعلى لبتها صليب . وهي بائعة شكرها بشكرها . باغية كسرها في سكرها . فوصلن وقد سبلن أذفسهن . وقدمن للتبذل أصونهن وأذفسهن . وذكرن أنهن قصدن بخروجهن . تسبيل فروجهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان . ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب . وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخاذ . وبحن بالاباحة . ورحن إلى الراحة . وأزحن علة السماحة .ونفقن سوق الفسوق . ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور . وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور . وعرضن الامتاع بالمتاع . ودعون الوقاح إلى الوقاع . وركبن الصدور على الاعجاز . وسمحن بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط . ورمن فرشهن على بساط النشاط . وتهدفن للسهام . وتحللن للحرام . وتعرضن للطعان . وتضرعن للاخدان . ومددن الرواق . وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتاد . واستدعين النصول منهن إلى الاغماد . وسوين أراضيهن للفراس . واستنهضن الحراب الى التراس . واستنفرن المحاريث إلى الحرث . ومكن المناقير من البحث . وأذن للرؤوس في دخول الدهاليز . وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقربن الاشطان من الركايا . وفوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقطعن التكك . وطبعن السكك . وضممن الاطيار في أوكار الاوراك . وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك . ورفعن الحجر عن المصون . وترفعن عن ستر المكنون . ولففن الساق بالساق . وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجار . وأطلعن الاشرار على الاسرار . وطرقن الاقلام إلى الادوية . والسيول إلى الاودية . والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفان . والسبائك إلى البواتق . والزنانير إلى المناطق . والاحطاب إلى التنانير . وذوي الاجرام إلى المطامير . والصيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى البطون . والاقذاء إلى العيون . وتشاجرن على الاشجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قـربة مـا وفـوقها قـربه . لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمـر . وطلبـن بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبـوا كيف تعبدوا بترك النخـوة والحمية . وأبـق مـن المماليك الاغبياء والمدابير الجهلاء . جماعة جذ بهم الهـوى . واتبعـوا مـن غوى . فمنهم مـن رضي اللذة بـالذلة . ومنهـم مـن ندم على الزلة فتحيل في النقلة . فان يد من لايرتد لاتمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد . وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العـزباء إذا أمـكنت منها الأعزب حرج . ومـا ازكاهـا عند القسـوس إذ كان للعـزبان المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحـر . إمـرأة كبيرة القدر . وافرة الوفر . وهي في بلدهـا مـالكة الأمـر . وفي جملتهـا خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلمانهم واشياعهم . وهـي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تنفقه فيهـم على المعونة . وهـم يركبـون بـركباتها . ويحملون بحمـلاتها . ويثبـون لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس .لهن دروعوقوانس .وكن في زي الرجال . ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل ارباب الحجـا وهـن ربـات الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به سـعادة . ويجعلنه لهن عادة . فسـبحان الذي اضـلهن . وعن نهـج النهـى ازلهن . وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أسـوة . وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسـوة . فمـا عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة اسـتبين واشـترين . وأمـا العجائز . فقد امتلات بهن المراكز . وهن يشـددن تـارة ويرخين . ويحـرضن وينخين . ويقلن ان الصـليب لايرضى الا بـالاباء . وانه لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبـودهم تحـت اسـتيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجـال منهـم والنسـاء . فهـن للغيرة على الملة ملان الغيرة . وللنجاة مـن الحيرة ناجين الحيرة . ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن . ولما ضامهن مـن الامـر تبلهـن وتبلدن

ذكر ماأهداه عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل من الذفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العـدة . وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة . سير مـن أحمال الذفط الابيض مع عزة وجوده مـا وجـده . ومـن التـراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده . وشـاع الاعتـداد . وذاع الاحماد . ودل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للاسلام مـن قـروح الكفـر الاقتـراح . واستجيدت التراس والرمـاح وفـارقت للقـائها أجسـام الاعداء الارواح واتصل بالذفط الواصل إلى أهل النار الاحتـراق ، وطغـت وضربت منهم النحور والاعناق ، وقـد هـدا بمـا أهـداه النصر إلى الهدى . والردى الى العداء ، وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جـاد بما أجدى.واهدى ما هدى . وعاد من المكرمة بمـا بـدا ، لاأخلى الله المجاس من يد يتخـذها . وأياد يسـيرها وينفـذها . ومحمـدة يستخلصها لنفسه ويستنقذها . وحمية للدين يقم بها حمـاة الشرك ويقذها ، ونخوة للاسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشحذها . ومـا طلب من العدة ما طلب إلا الحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحـطمة . والبيض متثلمة . ووجوه الصـفاح بإثـام النجيع متلثمـة . وعيون النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران رامقة مارقة . وحمـام الحمام في مريشات السهام بكتب الكبت مـن حنايا المنايا السـائقة

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضال الذبال . والرماء الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقراع الذوابل . والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا وهو وإن كان غالبا لاغب . ولاصارم الا وهو في دم العدو الفائض ناضب . ولاجارح إلا وهو مجروح . ولا قارح الا وهو مقروح . ولاجامح الا وهو مصحب . ولاباشر الا وهو مقطب . فباية عدة من هذه العدد انجد . غار الحمد وأنجد . وتاسس الشكر لانعامه وتمهد . ومن العجب أن العدة تفنى ولاتفنى العداة . وتنمو على الحصاد وكأنها النبات . ويتسارع الى أمدادها الموت والهلاك ويخلفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم . والكفر إلى الردى يردهم . وكلما اخلقتهم الايام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قطب الدين ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولاينتصف فيها من الأعداء . ونحن محتاجون الى العسكر في الربيع . واستنهاض الجموع الى شمل النصر الجميع . فكتب بتاخيره . والتمهل في تسييره . فتاثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير من بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامره . والتقدم بتجهيز العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره .

وعرف مسيد قطب الدين ادام الله له مضاعفة العلاء . وأقر باذواره عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقرونه بالحسنات . ولم يقرب من عبر الفرات . اشفق عليه من التعب . ليكون عسكره مستريحا عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع أدعى . ومصلحة الاسلام في ذلك الاوان أولى أن تراعى . ولو عرف أن الركاب القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالنفوس والارواح . وتلقته القلوب بالقبول العبق بنشر الانشراح . وان اشتعل القلب بما فاته من حظ من الاستسعاد بوفوده . فقد بشر أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب الرسل الى الاقطار والامصار . للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبث . وحث الرسل وأرسل بالحث . وبعث المسرعين لاستبطاء البعث . وانهض للتبليغ كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ . وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتاب اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن عليه من دوام القتال . وطلبت منه الاعانة بالمال . واستعين واستنجد . واستلين واسترفد . وحض على حظه من انجاد الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهج السماح . وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد الجرد العتاق . وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمذان . بما دنا منه عزمه ودان . وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدي إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . أمير من خواصه هو أيلدكز أمير العلم . فضرب له من الخيم الخاصة سرادق . ووفرت في الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خانته من امرائه ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخصاصة . وأن عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوته من هذا الجانب قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكتك بقرب اربل . واراد الوصول الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستوثقين بذمتكم . وانا عنده مقيم . وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وان أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت . وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى الاعانة . واردف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسه من سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهر زور بالتوفر على خدمته . والارتياد لمصلحته واشاعة معونته . ثم ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد،كونه نسيبي . ليكون القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصلحة والمصالحة . والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ولقد كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصرة الايمان . فنقله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن ابي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الأخيار . والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الافضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها محشورة . وعلى تعذرها عليهم محسورة . وخرجت هذه السنة والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر في الاحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباهج . ووضحت للسعادة مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيج وأرخام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الأشواق الى لقاء الاعداء لواعج . وتالفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولمناجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات . وللعزمات أزمات . واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعت عجائب . واعجبت وقائع . وابدعت غرائب . وأغربت بدائع . واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لايقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده .

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على ما يظهر العدو من الكيد . وهو لايبعد من الخيم . ولايقرب من مسائل الديم . وركب يوما في صفر على عادته فتصيد . وطاب له قرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم . وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم . وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . ومازالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضة وركضة . ونفضة ونفضة . ومشقة ومشقة . ورشقة ورشقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وردة وردة . وضمة وضمة . ولمة ولمة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع . حتى فني النشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب . والفرنج لايعجزهم الا الرماء . ولا يهتكهم إلا الاصماء. ولايذفرهم الا رنة الاوتار . ولاينذرهم الا أنة القسي بالدمار والبوار . فلما أنسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها اصحابنا الى النهر . وكادت تعبث بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان . واشرعوا الى نحور تلك الذئاب ثعالب الخرصان . واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التاسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممن استشهد . وزاد التلهف على فوات الفرصة . وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة . فان العدو صار عرضة للصرعة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الوقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر . وهو يتطاول في كل معترك ولايقصر . عثر به جواده . وثبت على الجرأة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل آخر سيفه ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سرا سنقر يعدو ناجيا والخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه . وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المذون من لهاتها بعد ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف ارنون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياده . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة مذاهبه . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام بما يحويه . وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صور . ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور .

ذكر حال عكا ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتنم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من مصر . فمازال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في المراكب . وقد ملأها بالذخائر والاسلحة والكمات المساعير والحناة المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا في موانيها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعدد . فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم السباحة لهم بالرغائب على وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحوا . واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتبا وطيورا . ويعودون بكتب وطيور . ونكتب اليهم ويكتبون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر من اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجا من خشب . وهرادي من قصب . ويدرجها على الطيران من البعد . ويوردها لشبعها وريها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ماهذا الولع بما لايذفع . والوله بما لاينجع . حتى جاءت نوبة عكا فنفعت . وشفت الغلل ونقعت . واتت بالكتب شارحة سارحة . ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفاتحه . فصرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء . ونخصه بالمدح والثناء . ونامره بالاستكثار . ونطلبهامنه مع الليل والنهار . حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال . وكنا نعرف بها جلية الاحوال . ونعلم ان الله علمه ذلك البر . والهمه ذلك السر . فانه اطلع على مايدفع اهل الاسلام . فحمى حمي هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمينة بالاسفار . قمينة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيار . جريئة على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدودة من الانخار . مودودة مع الاخيار . وحمام البلد الينا مع العوام محمولة . وعقود الاكياس عليهم محلولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخطر . وفيهم من سلم مرارا من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعوم . ولقد عطب عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما لقي رفقاؤهم لاقون

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمر السلطان عساكره بالعود فتوافت أمداد أجوادهم توافي امداد الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العدة وأحسن الاهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي ببسالته يقسر الليث القسور . وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام . الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد القمقام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء . وكثرت الجنود . وانتشرت البنود . وحلقت عقبان الالوية . وتلاحقت ذؤبان الاودية . ولمعت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البوائق . وحملت بواسق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . ونبتت شقائق العقائق . ونظرت أحداق الحدائق . ويسرت طرائق الطوارق . واعجبت أزهار الرايات وانهت غايات الغايات . ونزلت بحسن الصنيع نصوص النصول . ودارت بيد الربيع فصوص الفصول . وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . وومضت المواضي ومضت . واقتضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحلى . وغربت السمر بالكلى . واشتاقت لدات اللدان الى العناق . وتاقت شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث في المجاراة باجراء العتاق . وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب ، وحمي عزم البطل . ومحي رسم الملل . وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته . وفاز النصر بعدته . وجليت بنت الغمد في زي الهند وري الفرند . وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام نصبر ولم لانشتغل وكيف لانشتعل . وحتام القعود . ومم الركود . ولماذا الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول . في الفصل الاعدل والفضل الاكمل . وتدانى العسكران . وتعالى العثيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على ترتيب منازلهم طلبا طلبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة الميمونة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الافضل في اول ميمنة القلب وأخوه الملك الظافر في اول ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، منقضة كالبزاه ، منفضة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، عادية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة
مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة ، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من وقف له بالقريب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد . وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٢') وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في بار كاه له مضروب ، وخصه بصنوف من الالطاف وضروب ، ووصل معه حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتــوقيع بعشرين الف دينار . تقتــرض على الديوان العــزيز مــن التجار ، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صــناعة الاحــراق بالنار . فاعتد السلطان بــكل مــا أحضره . وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره . غير انه ابدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل مــا معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شــملني مــن عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بــالفرض ، ويغنيني عن الالتــزام بالقرض ، وأركب الرسول مرارا معه واراه مبارك النزال . ومعارك القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابــطال . ومــطالع الاقــاء . ومواضع الهيجاء . ومصالت الاقدام . ومنابت الاقــدام . ومــواقف الصفوف . ومصاف الوقوف . وأماكن البعوث . ومكامن اللبــوث . وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشــهد بمــا يشــاهد . ويبين له المجتهد والمجاهد . وأراه ما لم يره لياثــر أثــره . ويخبــر بجملتــه ويجمل خبره . وأقام الرسول طويلا . وأقام له السلطان من طــوله دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استاذن في العود فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفــرنج عكا بــالابراج والاعجــاز بهـــا والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار . شرعوا في عمل الابــراج الكبــار ، وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبنوها وقدموها ، ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طبــاقا . وســمروها بــالحديد . وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثــاقا . ولبســوها بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ . وزحفوا بهــا الى الســور وكشــفوا بــــالرمي منهــــا بعض ســـــقوف الدور . وتســــــاعدوا على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر بان التلف بها حوام . وان البلد قد أشرف . والخــطر قــد أسرف . والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخندق قــد طــم .

وأنتـــم إن تـــم هـــذا عراكم العـــار . واظلم على الدنيا والدين بليله النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشـــتد وكرب وركب وكان يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحـــف الى الفـــرنج ليشـــغلهم عن الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين مـــن ربيع الاول يوم الجمعة . بـــالجحافل المجتمعـــة . والغمـــاغم المرتفعـــة . والصوارم الملتمعة . والصلادم الممتنعة . والأسنة المشرعة والاعنة المسرعة . والحوائم المنتجعة من النجيع . والبيارق المختفقة كأزهار الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي الذقـــي ، وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضـــايقهم الســـلطان مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتـــى دخل الليل . ولغبـــت الخيل . فقـــوى تلك الليلة اليزك . والزمهـــم في الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهرا . فلما اصـــبح يوم الســـبت صـــبحهم بـــالحرب . وسبحهم على بحـــر الكر والكرب . ورجـــل الرجـــال اليهـــم . وانزل النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد النقع . واتسع خـــرق الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقرض القـــوم . وتفـــرق الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدمـــاء . أو جـــريح على بقية الذمـــاء . وبـــات الناس في الســـلاح شـــــاكين . وبنار المذاكي ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حاكين . ورجـــع الســـلطان الى خيمـــة ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع في رياض الاخلاق الرياضية . وأصبح يوم الاحد راجعـــا الى قتـــال أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانتقال السوق الى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهـــور الانضر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقـــال الى المخيم لئلا يغيب حاضر . ولايصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين . ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهـــم معـــاشرين . فانتدب منهم الى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح . وكل محتـــرق

على نار الهيجاء للهياج مقترح . وكل وقاح بالحراب وقاع . وكل صرار بارداء الكفرة دفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لفام . وكل أسـ ـــــــــــــــد غدا الى

الشد له في حومة المأزق زئير وبغام . وكل متلاف الفيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجاف . واخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس . وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . واوضحوا بالنكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وان البلد ضويق . وان العدو المخذول يحيق به كيده وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله . ويكفه بنزاله عن نزاله . وجدد الكتب الى الامصار . بالاستنفار والاستنصار . فاول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظر ناضر . ورونق حاضر . وجمع كثيف . وحشد لفيف . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهيأة معجزة وهيبة للعدو مزعجة . وصولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوابل . وعتاق وصواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبائل . وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حران جريدة . وقد استأذف الجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد الى عسكره ليقدم به . ويحضر بجنده وتركمانه وعر به

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان و من كان في طباقها .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون تتابعت بظهور دلائل النصر وتناصر اسباب الظهور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشعلها متسامية . وفي الجو بشرارها مترامية . ومايدرى ماسبب هذا الحريق . وكيف تيسر هذا التوفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار . وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لانوارها في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثنائه تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبألسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار . ونسير بطاقاتها على أجنحة الاطيار والعجب ان الأبراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائية ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف اسواره وكسفه ، فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة . وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقده ، وكان سبب حريقها ان رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد ، واقام فيها باذلا للاجتهاد ، وغري بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره ؛ وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره ، وتقدير معاييره ، والناس يضحكون منه . ويغضون عنه . ويقولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وماهذا الهوس الذي وقع فيه . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل من الامتزاج الامتزاج . قوتلت بكل فن ، وادنى اليها من النفط كل قدر ودن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل نفاطة مرهقة . وبالغ في صنعته الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس . واستسلم الناس . فمضى ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء الدين قراقوش الامير وقال قد رأينا ماا عترض من التدبير . وماعرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله يأتي منها بشفاء الصدور . فاذن له على كره . وقال ماارى لاحراق هذه البروج على يده من وجه . فان الصناع قد ابلسوا والزراقين العارفين بالصناعة يئسواه فلما وجد الاذن وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدور نفط لانار فيها . وهو يصبها على اعالي البرج ويسقيها ، والفرنج يعجبون من البلل ولايدرون بما وراءه من الشعل ، ثم قذف بقدر ناريه ، متشبعة بكل بلية فوقعت في الطاقة الوسطى ورمى اخرى فوقعت في السفلى . فاشتعل البرج من طرفيه الادنى والاعلى ، وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين . فاحترقوا اجمعين . ودخل اليه ايضا جماعة لاستنقاذ مافيه فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم . وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لاستبطاء حتوفهم . وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احراقه التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وماكان ذلك بصنعته منه بل لان الله وفقه . ومازالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سوادا . واحترقت المجانيق والستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر) (البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفار بذلك الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت امالهم . وركدوا بعد حربهم ، وركنوا الى خزيهم ، وضلوا في سعيهم . وتورطوا في بغيهم . وسقط في ايديهم بسقوط ايدهم وحيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر ، واظهروا بظهور القدر القدر ، وجاؤوا الى مواضع الابراج واماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها . ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسكبت ، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت . فاخذوا ماوجدوا وحصلوا على ماذشدوا وأترب من ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب . وبردت من حر تلك النار . وشفي أوامها بذلك الاوار . والحمد لله الذي جعل تلك النار لاوليائه بالبرد والسلام ابراهيمية . وعلى اعدائه بالحر والضرام جحيمية .

- ٦٠٣٤ -

ذكر فصول أنشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما اجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرفد . واعذ به حال الظما البرج مـن الورد . وذلك مـاظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاثفـاق الحسـن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو اللسن وهو ان اصـحابنا بعـكا رمـوا بقدور النفط عدد العدو المحـور . واحـرقوا جميع مـالهم مـن المنخور . واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قـربوها . ومنجنيقيات نصبوها . ولهم منذ تسـعة اشـهر يجمعـون هـذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف سـمكها وقـربوها ناكية في الثغـر المحـروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام مـن نكاياتهـا . واظلت الافـاق مـن غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربـا . فـاقدر الله على احراق ماعمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العـدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . ومافصح ألسـن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . ومابسط ايديها على من كان فيهـا مـن الرجـال للارواح ناهبة سالبة

فصل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذي ورت زناده . والنصر الذي قـرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا . وصـبروا فانتصروا . ورموا من البلد ابـراج الفـرنج المنصـوبة عليه بقـدور النفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بهـا ألسن النار المنصرمة . ودبت مـن الابـراج المقـربة الى الدبـابات المقـدمه . وعلم العـدو ان كرتـه خـاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجع السني والنور اللامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشري ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر . فطالت ألسنة النيران تدعو على اهلها بالبوار . وتبدي في تضرمها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ماأعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم:كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمى اصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وابراجه بقدور النفط من البلد فخطبت ألسنة النيران على تلك الاعواد . بل على تلك الاطواد . والحقها رداء الردى والحقتها بالوهاد . وفرشت رمادها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنيقات بصدمه المنجنيقات .ودبت النار الى الدبابات . بصدمة التأثير وحدمة التأريث.وماأطول ألسن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبار . وقد ابدت الى الاسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار . وماأحسنها وهي ترمي بشرر كالقصر . ويكسو سنى لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر وماأقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الآلات عن البلد اجنحة الحصر . وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر .وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من

حوته تلك البروج . ودخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع . وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف . كل ما وجدوه خلال رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج وثوقا بوثاقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقها . ووصلوا بها اجنحتهم . ونخروا فيها اسلحتهم فاخفقت ظنونهم. وسخنت عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفد الفرنج اموالهم في عدد اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شاهخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجهم . فلما قدموها بعد لأي . واحكموا باحكامها كل تدبير ورأي . واشرفوا منها على سور البلد بأمور ذات أسواء . وجاؤوا بآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر العليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله مالم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب . والهم اصحابنا ماداووا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . وأقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في المقدور . فتسلطت النار على عمل اهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

وتحلحلت تلك الجبال وتحلل تركيبها . ولصق بالتراب ترتيبها . وتنكس منها صليبها . وكانت ثلاثة ابراج شاهقة فلعبت في ملاعبها النيران فاذا هي زاهقة . وتنقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز شياطينها برجمات شهبها عن الخروج . وتسلط الحضيض على يفاعها . وباد الدارعون فيها بادراعها . واضحك الله ثغر الثغر بما اطابه من ارج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهج ما اكرب قلوب المؤمنين من الوهج . وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل التثليث من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا من اسواره . والصقوا منها جدرانا بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره . فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحرق عمل اهل النار بناره . وكان اصحابنا عاينوا ما دهمهم وهمهم . وخصهم من الخطب وعمهم . نصبوا مجانيق بازاء الأبراج . وصدعوها بها صدع الزجاج. ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رؤوسها وشابت وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبت . وارسل الله في تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قد حصت واسنمتها قد جبت . وسقط في ايديها ووجبت جذوبها وكبت على وجوهها في النار وكبت . فما افصح السنة النيران وقد نادت بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من نقع غليلها واحبت . والحمد لله على الطافه التي ماغابت ولاغبت .

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التي جرت بحقها وحقيقتها . وحليتها وجليتها . فانه يشتمل كل فصل على تمام ما اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه الملك المظفر تقي الدين بتل كيسان . ولقيه بعده الملك الظافر خضر والمعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلالة . ثم تلقاه الملك الافضل ادنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلاقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك واللطف المتدارك . واعتنقا على ظهر . واتفقا على بشر وذشر . وكان الملك العادل تأخر فلحق . واظهر من ارج سجاياه ما بذشره عبق وبحبه علق . وسار مع السلطان باطلابه وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قباله العدو بصفوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرفت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وآنسه ببشر السماحة والسجاحة . ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين . وانشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . واوجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملأ تلك المروج بعساكره الملية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الأولى . بالأيد الأطول واليد الطولي . فالتقاه السلطان واخوه واولاده على قاعدة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حـكمه . لكنه لم يقصر في القـاعدة عن رسـمه . ونزل بخيمتـــه في فناء السرادق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي . فكان ذلك المرج بحـر امواجه الخيم والمضارب . أو سماء كواكبها ما اشرعته من صعادها الكتائب . أوغيل آسـاده في آجـام القنا الفـوارس . او غدير مـن السوابغ حبابه الترائك والقـوانس . او سـحاب بـروقه الصـوارم الرقاق . او وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السـعيد علاء الدين خرم شاه ابن صـاحب الموصـل عز الدين مسـعود بـن مودود . وهو كوالده مسعود مودود . وفي شهامته وصرامته مشـكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة . والمفاخر الاصيلة المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدائع المصـنعة . وجيشه القوة ضـابط . وجـاشه على الحمية رابـط . وبـأسه ليد الايدباسط وجنانه على الكفر ساخط . وهـو شـاب اول مـا بقـل خطه . وابتهج بكماله رهـطه ، وكان ابـوه قـد عزم على الوصـول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم بانسه . ثـم رأى المصـلحة في الاقامة وتقديم ولد المشكور المشهور الشهامة . فانهض العسكر المجر معه ثم اتبعه بمن حشده وجمعه . فـورد ورود السـحاب الكنهـور (٤٤) . وذور المطالع بسنى السـنور (٤٥) واطلع بـطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقـدومه احتفـاله بقـدوم عمه . وحافظ من الكرامة على تـوفير سـهمه . وانزله في سرادقـه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وامر بـانزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر . ولم يبق في اهل السلطان الامن اقتـدى بـه في الاحتفـال بقـدوم هؤلاء . واعتماد ما قـام بـه البـرهان على المخـالصة في الولاء . والمسارعة الي الضيافة والاهداء . والاعادة الى المكارمة بعد الابداء .

-٦٠٤٠-

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله . ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجلس في طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حث همته العليا . وحض لحظ بينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه . وأوقى جنه . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطل بدرا . واصفر لمرتقبي صباح النصر فجرا . وجلا وجوه المؤمنين ببشاه بشرا . وملأ صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و المجد المؤثل . بجيش كالسحاب المسيل . فدوت اخلاف النصر بحقول ذلك الجحفل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل مقدام.وزأر خيس الجيش بكل ضرغام . وزأر بكل اهتمام بالمذون همام . ووصل بكل واصل لسبب النصر .قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد باليمن الوافي . والنجح الكافي . والعز الصافي . والعزم الشافي. وطلع بكل طالع بالسنى . جامع المنى . فارع بالغنى . فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا.وكان هذا اول يوم لقائه للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة. والتودد الى الناس.

والتشدد بالباس. والتواضع مع الكرم . وبذو الود مع علو الهمم .ماله مبذول .ونواله مأمول .وسيفه على الكفر مسلول .وامره بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول .وهو مرجو مخشي .وكريم ٥ ْشي. ومهيب مرجو. ومحسن بسنى الحمد مجلو.وكان معه خلق كثير .في سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير .وانزل بقرب اخيه مظفر الدين في الميسرة .وتمكن الرعب بما تم من الجمع في قلوب الكفرة .

- ١٠٤١ -

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميره. والعدد الكثيرة. فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول. وتم بظهوره النصر المأمول. فركب السلطان في جحافله. وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله. واحدق به حول خنادقه. ليوسع عليه الهلاك في مضايقه. وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول. ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الصول. فعمر الفرنج اسطولا. وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا. وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور. ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور. فجاءت مراكبنا. ونطحت مراكبهم وطحنتها. واوهت متنها واوهنتها. واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا. وكان تقصير الرؤوساء في حفظه لأخذه سببا واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس. وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية. وكلاءة الله لنا ولأصحابنا وافية.

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني. وهناه من النجح السني. واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني. وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور. ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور. متوافرا بوفود الوفور. ودخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور. فاثر البلد بعد انفاضه. واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه. واستجد جدة وافيه. وعصمة واقيه. وذخيرة كافية. وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها. وابرزت مناكبها. وحمت بالرجال

والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها . وسحبت على شبيج البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا الحلقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظنت انها تستطيل على رواسي اساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور جواريها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب بما احاط بها من الذواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر حين ذعر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها. ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم. وكانت الفرنج حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخسرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالأسد عريسه . في شوان العدو شوائن . وشلنديات اشله وفله ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة.وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر أمواجا في الأمواج . ودخلت الى الثغر افواجا بعد الأفواج . وكان العدو قد أبرز أباطيله . وجهز أساطيله . وشب عواليه ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمي مناكب مراكبه . وجد في امهاء غروبه وتسنيم غواربه . ولما وصل الأسطول طال وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلابها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثـري بـه الثغر بعد الانفاض.واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . ودخل اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة تـوجب كثـرتها قلة المبالاة بـالحصر . فـان الرايات المنصـورة علت فجلت في الآفـاق رياضا . والمراكب الاسـلامية انقضـت فقضـت للمسـلمين أغراضا . ووافت ووفت فـأعادت جـواهرها مـراكب العـدو أعراضا . وجـاءت سـواريها كالرواسي . وجـواريها محـكمة المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحـراق أهـل النار في الماء . ومن عمـل مـراكبها الحـاف مناكب الكفـار رداء الارداء . من كل جبل يمر مر السـحاب . وضـامر يشـد شـد العراب . وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب في اعداء الله بين الأحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقـطعة وافية من الكافرين بقطع الرقـاب . ومـاأحسنها وقـد زفـت عرائس . وجليت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهـل الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب الفـرنج دوارس . وخـلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الظلال . ولما شـوهد الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخـذ البحـر مـن الاعداء بحقه . وأشرق سنا النجح في أفقه . ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجـال . والتقـى الأبطال بالأبطال . وشـفيت بـدم الكفـر غلة المناصـل والنصـال . واحمـرت البيض الظـامئات ورويت مـن نجيع الزرق . وبشرت جياع العـواسل مـن اليراع العـاسل بعـاجل الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهـم الكفـاح . وفـكهم القتـل والجراح . وأقوى الاقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه مـن الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قـريب الشتات . وأدرك المشركين مافاتهم من الآفات .

- ٦٠٤٤ -

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخـطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثـور . فقيل انهـم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بهـا إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمنعـون بغربهم (٤٧) مـن تشريقهـم . فاضطروا الى المقـام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهـاد . فصـاروا يذبحـون خيلهـم ويأكلونهـا . ويكسرون قنطـارياتهم لفقـدان الحـطب ويشعلونها . فترجلت منهـم الوف . ورغمـت أنوف ، وكان ذلك في البرد الشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمـدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فـدفنوا وأحرقوا منها . وتـركوها وسـلوا عنهـا . وكان ذلك مـن الله لطفا . وأمست قـوتهم ضـعفا . وكانوا في خلق لايعـد . وجمـع لايحد ، فما أثر فيهم ذلك النصـب . ولاصـدهم عن مقصـدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهـم للوبـال في أوجهـا أوجها . والأفرنجية لاتنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتى بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسـعود . ومسـالكها دونهـم غير مصدود ولامسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثـم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . ودخلوا قونية دار ملك المسعودية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتـراسل وهو ملك الالمان واتفقا في الباطن على مـاكان بينهمـا مـن المواثيق والايمان . وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا . واشبه المسلم بـالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسـير في بلده الى بلد ابـن لاون . واعطـاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصـل الى المأمـن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بمايرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواثيقه ، ووصل ليفون بن اصطفانه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . ودخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريحوا بها النفوس ، وقيل عن لكلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلاكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه :كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة .ودخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه . وايسوا من علاجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجنانه . لمكان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . وراموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة . ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لاتلافي لما

فرط من تلفه وفوته.فارقهم الى بعض قــلاعه . واتصــل الضربهــم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقــول ويعــدد ويدهده ويهدد . ويري انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضــح . وان الخــطب فــظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهذكر فدخله غصبا واوسعه نهبــا . حتــى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراد،وانه اخذ من ماله ورجــاله مــا اختــار ، وتزود من عنده وامتــار ، ثــم وطــيء ارض ملك الروم وداســها . وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادهــا . واحــوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

وأخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومــن الثياب الطلس المعدنية مابلغ الألوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه . ومعروفي كبــرائه . وأخــذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعــدية . مــن مــراكبه سحبا . وأنه لما عبر وفرغ من الخــروج . تلقــاه بــالخيل والدواب والابقار والاغنام تــــركمان الأوج . ثــــم وقــــع بين التــــركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قــطب الدين ولد قليج ارســــلان . والتقــــى الأقــــران بالأقران . وهزمه ملك الألمان . ولما أشرف على قــونية خــرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعــت حيث ضــم على الروع روعهــــا . وأنه هجــــم على قــــونية عذوة . ونال منهــــا حظوة . وأقام خمسة أيام حتى اســـتقرت بينه وبين قليج ارســـلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة ، وأخذ منه رهــائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتــابه الى ابــن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الأنهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشــكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربــه وانقضى . وخلفــه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء ابيه . فلما عرف موته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفجف . من كل سرحان أهرت وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب . ولزموا المصاب. وداوموا الاكتئاب ، وهم صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتاعت الانجاد والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويثلم ثغور الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على رأي الثبات . وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين بهرا مشاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المسالك . ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القسور . ثم اليارقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الافضل وقد عرض له ألم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد الم به سقم . ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت الغله . وخلت الاماكن وتمكنت الخله . ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة . ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ النوب في اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض اكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه . مستعقبا لألطاف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم فيهم الموت والوبا . وكثر عن ذبواتهم الذبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلهما الى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الأرمن واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت في خيلهم ، فاذن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتياث جوهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم في ثلاث ذوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم . ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك . بعد ان ضاق به وبجمعه اليها المسلك . وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة فاخلاها له . ونقل اليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله الى انطاكية قلت جموعه وجنوده . وبليت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج رجالها عليهم على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين ، وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاؤوا اليها سحرا بأحمالهم واموالهم السنية . فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلى عنها اصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من مال القوم . ثم انكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه انهض جماعة من اصحاب أمراء حلب واصحابه . ليقتفوا آثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض البزاة على الحجل . وزأروا فيهم زئير الأسد في النقاد . وزاروهم بالاجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعه . وتركوهم متمزقة متمزعه . وعادوا بالأسارى الى حلب وباعوهم في الأسواق . وامتلأت بالأسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس الى انطاكية . واراح من الامها الالمانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس بتلك الأموال المجتمعه . والذخائر المودعه . حتى قيل انه انما رغب في الوصول الى بلده . ليحصل على سبده ولبده . فأخلى له قلعته . لينقل اليها خزانته . ففعل ومارجع اليها . واحتوت يد الابرنس عليها . ثم ساروا على طريق الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقية . وسقتهم كؤوس المنية ، والقتهم على البوس والبليه . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما لقيت جموعه في طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بذقع غليل ، وسائلم بذكر حالاته في مواضعها . وذكر مصارف جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمة الغماء . والنكبة النكباء . والشدة الدهماء والليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشودها . وقوامصها وكنودها . واحزاب الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبنودها . وصل جارا على السماء نيول قتامه . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره . سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره . وانه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلبه . واتباع شياطين لارضائها متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبة . وانه في مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون . وقدا وقدوا للشر شرارا . وأضرموا للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهم على قمامتهم دائمة . وقيامتهم قائمة . والموت يدعوهم الى المقبرة التي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمناياهم التي يدعونها . وكان خبر وصوله متداولا على السنة الاراجيف . وتشيعه اعداء الله من قبل للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبر صحيح . ويقين نبأ بامر صريح . حتى اذا صح الخبر . سار العسكر ، ثم انقطعت الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان وايار . وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان واولاده ورسلهم متواصلة بما ينبيء عن التعاضد . ويبني امر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد ، وهم بانهاء ما يصح عندهم واعدون . ويزعمون انهم في رد الواردين وارادئهم

- ٦٠٥١ -

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا:انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخلوا لهم الطريق وودعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في آمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سالكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه، واقدرنا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولايدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالماني المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلا وجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله في النجح بموعود توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اولياءه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام . وليثب وثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتخاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية النفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرقة الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد آن للاسلام ان يسلم . وللايمان ان يعدم . وللتثليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللكفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبده . والبر أتي آتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده . ووصل الالماني المخذول بعدده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشر قد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وفد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبنود منشورة . وخيول مجفجفه . وسيول مجحفه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مفترون بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستندون في طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه الغمة . وكشف هذه الملمة حتى تخلف اماني الالماني . وتبطش ايمان الايماني . وتخذل انصار النصراني . وتجني وتبر رؤوس الجذوي والبيزاني . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين المهتدون في نهج الرشاد المتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض . لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين ، واراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثأر الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نقعه . ومافض الفضاء ختام قتامه . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالماني مخفف بالمامه . والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه . واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلية

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملأ احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشـام . فنحـن ننتهـز الفرصة . ونحرز الحصة . ونهتبل الغـره . ونهجـم عليهـم هـذه الكره . ونذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القـادم . ونمت بعز العزائم وذفل حدودهم بحدود الصوارم . فخـرجوا ظهـر يوم الاربعاء العشرين مـن جمـادى الاخـرة . في حشر يذكر بحشر الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجـام لنا متوافية باسادهم . وامتـدوا الى الخيم العـادلية ، واشـتدوا بمـا استصحبوه من البلية . في كل ذئب امعـط . وسـيد قـد تـورط . وسرحان سرح . وافعوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجـم ، وجحيمـي أقدم وما احجم ، وسعيري ناري اسـتعار خـدمة النار . وسـقري قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبـوار . واسـبتاري راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء . وسرجندي كرار . وفريري غير فرار . وفـارس يفـرس الرجـال . وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشى يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقـع اذا غوى في الوغى ماترك ولاابقى . ودخلوا الخيم العـادلية وتجـاوزوها . وقـد كانت اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العـادل بـطلبه . وعن يمينه ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري . وجماعة مـن المعـروفين بـالشهامة . والموصوفين بالصرامة . ولبث الملك العادل لبث المخـادع المخـاتل . حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشـار . وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبـر شمس الدين مودود . وهو في كل وقعـة يحضرهـا جـاد مجـدود . فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر. قبل ان تتصل به العسـاكر . فـكسر الفـرنج كسرة فـرشهم على الارض وذكرت الواقعة العارضة بـوقوعهم في النار يوم العـرض . وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفـت اخ الى اخ . وركبت العـــادلية اكتــــافهم . وفلوا فيهـــم اســــيافهم . وعقروهم وعرقوهم وبجـوهم وبعجـوهم . وحـكموا في الرقـاب الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعتقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

التوت من لحوم الليوث . وبثوا بعوث المنية في تلك البعـوث . حتـى رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم . وارعد وابرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل . ووصلت بهم الى النجاح منى المناصل . فلم تترك اللهاذم لها ذماء . وغادرها شـلها بالعراء اشلاء . ورأيناها كانها اعجاز نخـل خـاوية . ومـا احسن اجسام اهل الهاوية وهي هاوية . فكم جثـة بـلا رأس . وبنية بـلا اساس . ونحر قد نحر . ودم قد انهر . ويد قد بتت . وكبد قد فتت . وعنق قد قطع . وانف قد جدع وودج وجد مفريا . وظهـر قـد ظهـر مبريا وحلقوم قد حلق . وغلصوم قد فرق . وداوي قد دوي . وبالدم روي . وصليبي كسر صلبه . وقلب على صدره قلبه . وحربي أتـاه الحرب . وغرب في نبع عينه النبع والغرب . وكان السلطان قـد ركب وخشي أن جانب الميمنة نكب . وسير جمـاعة مـن كمـاة المـاليك والامراء على مقدمته . وانتظر الميسرة لتنهض في خـدمته . فـوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزية . وفـاز مـن الفـزوة بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابـن صـاحب الموصـل في اثناء المعركة . فعرف بركة سرعة تلك الحركة . لأنه اخذ حظا وافرا ولقي من النصرة وجها سافرا . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجـال الميسرة احد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد . ووصـل السـلطان وشاهد من مساءه الفرنج ماسره. وعرف لطف الله وبـره ونصره . وعاين هنالك مصارع الاعداء . ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين في مـــــــــــــــــدى فـــــــــــــــــرسخ

على الارض . وهم في تسعة صفوف مـن تـلال الرمـل الى البحـر بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل . وشاع القتل من الافرنج في كل قبيل . ولما وصل السلطان رأى عمـاد الدين وابـن زين الدين وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهـم . والهجـوم عليهـم . فانهم ندموا على ترك الاسراع . فراموا اتباعهم ليأخـذوا بنصـيب الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهـم . وشـكر عزمهـم وقصدهم . وأشفق من مضرة تشوب . ومعرة تنوب . فـان الدائرة كانت على العدو . وقد فاز بالنصر الحلو . والصفو المرجـو . وكانت

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبه . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ماهناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ماسلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقئت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونذكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولاانتظر . ولاترقبني ان احضر . ولاامهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا باذوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع . ولاتم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها . ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد .. وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون ماا كتبه . ولاترغبون فيما ارتبه واهذبه . فقال كاذك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدى الى طرقاتها ، فقلت مافات فات . وهيهات هيهات . واخرجت له مابقي من بشارات البلاد التي أنشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جداها بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المنابر .
وصحت بسماعها المفاخر . وظهـرت بعبـاراتها العبـر . وبهـرت
بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مبـاهجها مناهـج
الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وماا سحها نصره . ومااببنها
محجه . ومااثبتها حجه . وماأفرجها مسرة . وماأسرها فـرجه .
وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفـارقة عدة كثيرة
من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقـاطرين . وانتشروا
متغاورين . واغاروا اللواء اللاواء ناشرين . ووصـلوا في الميمنة الى
الخيم العادلية فاخليت حتى دخلوهـا . وتفـرقوا فيهـا بجمـوعهم
وتخللوها فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعراء .
فوضى بالفضاء . فمـا بـكت عليهـم الارض ولا السـماء . ورويت
السيوف من دمائهم . قبل ان تشبع الوحوش من اشلائهم . وظهرت
لنا نعمة الله في بلائهم وحبي الاسلام بهلاكهم . وضـمتهم اشراك
الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثـر مـن عشرة الاف
قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظـاهر .
ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرهم . لكنا فرغنا مـن شـغلهم
واخلينا بالنا بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفـاء جمـرتهم .
وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجـو
من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خـطبهم الخـطير . وان
ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هـذه الوقعـة بهـم حقـق
عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم ودورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . وا شتغلوا باستباحة احوالها المصونة . فاطلقنا عليهم الاعنة . وشرعنا الى نحورهم الاسنة . وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على الارض . وابدينا بارد ائهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكأنهم جاؤوا على موعد مهلك . وا روينا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا ا شلاءهم قرى الوحوش لاالضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من الخوف . وادرك الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم . وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم من حواليهم . ورضتهم بالدبابيس واللتوت . وتركتهم صرعي بتلك المروت . وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء . واكتسى عري العراء بتلك الا شلاء . وا فضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعت ثعالب الرماح من كلاء كلاهم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتن جيوفهم ريح النصر . وحنت من سماجة مرآهم وجوه الدهر . والآن الان الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبت نكباء نكبتهم . ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها الزواخر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفه صدتهم عن الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بواتر البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على اولهم وآخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الوقعة • وثم الناهضين الينا الرجعه • رأيت احد مماليكي ونصله قد خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسألته كم قتل • والى اين وصل فقال:اما انا فما أبقيت . وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم نجعة . وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة • وحكي من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر فجثا الصرعه • فعثر به راكب برذون • بغير رفيق ولا عون • فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده . فنزل بجده مستننا في جدده . وقتل ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي . وحل من وسطه ثمانين دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا.وامتلأت الأيدي بالأسلاب والاكساب . وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب . وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك النقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجح كل مرام . وبخبر بان عسكرا مجرا من الكفار خرج للغارة على الأطراف والاقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع النور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهي قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، ونفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخلف ، حتى وصل في البحر .كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالأموال . وحلى منهم بعد عطلها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان نبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمدهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تتميمه . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكرنا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشرة . وشاع هـذا الخبـر على الســنة الجــوا سيس والمستأمنين . فـاحضر الســلطان امراءه وخــواصه المؤمنين الميامين . وا ستشارهم فيما يقـدمة مـن الصـواب . ويفتحــه في المصالح الراجحة من الابواب . فاشاروا بايساع الحلقة . وادارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتـى يؤنس الى الخروج لحربه . فـوا فقهم السـلطان على هـذا الرأي وحسـن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . وا شتغل بالتدبير في الفوز بـالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحـوالي سـفوحها . واحتـوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتـب اليزك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالنوبة في يومين . وضويق باهل الصـدق منهـم اهـل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليزك اوقات نوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فـالكتب متـرددة اليهـا ومنهـا السباح . والحمام اليهـا ومنهـا تحمـــل البـــطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخـرج ، واليهـا وعنهـا تعـوج وتعرج . واخبـــار ملك الالمان متـــواصله . بـــأن انصـــاره له خاذلة . وانه ضعف ووهى . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعـوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المســير . واعتـاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبـل ان يصل الى محل قمعه . وانه قدا شتغل بالاذفاق في رجال الاستجناد والاستنجاد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصـحابنا يأسرونهـم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمـع قـطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المســلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مسـتمر على المودة راغب في المحبـة . ويعتذر عن عبور الالماني . وانه قد فجع في طـريقه بـالاماني . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقه . مـا أضعفه وأوهاه . وألهبه وألهاه . وأنه لايصـل الى بـلادكم فينتفـع بنفسه أو ينفـع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجـع . ويمـت بمـابه كاده . وأنه بلغ في اذاه اجتهـاده . ويطلب رسـولا . يدرك بـه مـن

السلطان سؤلا، فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بمـا ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة انفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معـه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكنود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجنيق . مـن الرمـي غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهـي مجـانيق مجـانين . وميادين ثعـابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صدقعهم صدقعها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقـدام وأقـدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياع . وخرجوا بـالفارس والراجل . وأموا بالحق أمـة البـاطل . وجـاوزوا تلك المجـانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها مـن ورائهـم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقـات ممـن يحميهـا . خـرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فـاحترق جميعهـا . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعـروفين فيهـم فـارس كبير . فمـا أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبـذوه فـطلبه منهـم الفـرنج بالأموال . ولم يعرفوا بالحال . فـأخرجوه اليهـم قتيلا . فـأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه نوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخمدوا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقـودهم المنحلة وعقـولهم المعتلة . وطمـع فيهـم الناس . وعرا طمعهـم الياس . وصـارت الخنادق تهجم . والستائر تهتـك وتضرم والحـدود بـالمصال تثلم .

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فأبت بالحالة الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم بانكاء مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار . وانفق على أحدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت . وأن الأفكار باستدعائها عنيت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالغلات . فرأى ان ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعل له اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في كل مابه عز الدين السآمة . ويعطي ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملأها بأربعمائة غرارة قمح . ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام . وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة . وهي بساحل بيروت منبوذة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البغية منها وتكتيمها . وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . وملئت بالشحوم واللحوم . وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا ان تشتبه ببطس العدو في البحر . وأن لاينكشف للفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا . وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم . وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . والقوم

لجهلهم لايشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث . وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حاذوا بها عكا صوبوها نحوها والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها . وقد عقت رفقتها . وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزأ البلد بها شهرا . ووجد منها لكل كسر جبرا . يالها من لطيفة قضينا منها الأرب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملأوها بالغلات واصناف الأقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها عند موافقة الريح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنتة بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لايبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت . ولا شك ان كتاب اجلنا الى هذا الأمد موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . والمت القلوب وألمت الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولايخيب من رجاه . ولايضيع من استرعاه،فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة تلك بطس كأنهن الاعلام واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواريها الحسان وخفت رواسي سواريها الثقال . وذكرت بقوله تعالى:(وهي تجري بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والريح تطردها طرد النعام . والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم اضل من الانعام . فما

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشـوانيها . واحـاطت بهـا تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهـي تشـق عليهـا وتشـقها . وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منهـا البـر الإيمـان الأيمـان . وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبـالها الرعان.وعبـرت والكفـر خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثـر . ووصـلت الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها غمة الثغر . ودفع ماألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التى ادركت الأرمـاق . وأدرت الأرزاق . وتـلافت الأرواح مـن التلف . وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان لايبقى لنا شيء نقتاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فـواته . فبينا نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هـذا الهـم متذكرون . اذ ظهـرت العيون بالقرة . والقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنهـا جبال باقبالها تروع ونسور اجنحتها القلوع . وشـعر الفـرنج بهـا فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقـاربها وقـربت مـن البطس شوانيها . وقويت في البطش أمانيها.وحمى مافيها من فيهـا من الرجال . وهي تجري بهم في مـوج كالجبـال . وكأن جـواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثـوب بتلك الاعلام المنشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصـدقات الى ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شـانيء . وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالىء . وجازت والكفر خزيان ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصـولها أوان انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغـلاتها . وأزوادهـا . وعصمت أرماقها . ودسمت امراقها . وقسمت ارزاقها . واشـبعت

جوعها . وشـبعت صـدوعها، وأنالت آرابهـا . وأزالت اجـدابها . وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق . وسكنت بعد القلق .
وعاد اليها بعد الفسـق اسـفار الفلق . والحمـد لله المغني بعـد الاعدام . المدني السني بعد الاظلام . المذفى باوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والنفقات الى عكا ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار ضـمينا . يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معـه الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتـورته اسـباب المتـالف والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بمـا في طـريقه من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الفـا دينار ومعـه مـن نفقات الاجناد ودائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمع له خبر . ولم يظهر له اثر . فظنت بـه الظنون . ومـاتيقنت المنون . وكانت له لا شك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهـي مجملة محتمله . فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهـب حـق اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب مـن حـاله الناس . فلم يذهب بذهابه الذهب الذي صـحبه . وطهـره الله مـن الرجس وعنه اذهب .

ذكر وصـول ولد ملك الالمان الذي قـام مقـام ابيه الى الفرنج بعكا

ذكرنا حديث الالماني وملم حادثه ، ومـااداه اليه مـن دواعي كفـره وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خـامس عشـري

رجب .ولقـــي في طـــريقه على اللاذقية الشـــجى والشـــجن والشجب .وانن ضعف خيلهم .بضعف ويلهم .ووجدت لهـم مـا بين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت .وعلى اعواد عظـامها سواد الغرابيب خـــطبت .وقـــد اســـتقبله المركيس .وقصـــده التأنيس .وان يهديه بضـــلاله الى الطـــريق التـــي تـــؤمن طوارقها .ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقها .فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان .ووصل خبـر وصـولهم في سادسه الى السلطان .وحزرهم من شـاهدهم في الطـريق بخمسـة عشر الفا .وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفـا .ثـم انتقـل في البحر .الى عكا في موضع الحصر .ووصل اخر النهار سادس شـهر رمضان .بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان .فلم يبق له وقع .ولم يحصل لخرق القوم به رقع .واقام بين جنودهم .كأحـد كنودهم .وقال الفرنج:ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا .فانه لو اقام في موضعه .وامدنا بفيضه من منبعه .لهيبـت عظمتـه .وعظمـت هيبته .وارعب روعه وراع رعبه ورجـي منا وخشي مـن المسـلمين قربه .وقد قطع بنا منذ وصل .وحص لنا جناح نجاح حصل .ووصل في البحر وحـــده .ولم يســـتصحب جنده .ثـــم وصـــل اليه الاصحاب .وتقطعت بهـم الاسـباب .ثـم رام ان يظهـــر لمجيئه وقعا .ويبدي له نفعا .ويثير لنفع غلة ثاره نقعا .فقـال:الام القعـود عن القوم .ومابقي الا النهوض اليهم مـن اليوم .ولابـد مـن ضرب المصاف معهم .واني على الخروج اليهـم لادفعهـم .فقـالوا له انت ماارثت وهج قتالهم .ولااثـــرت نهـــج نصـــالهم .ولاحـــربت بحربهم .ولاكربت بكربهم .ولو حزبت بحزبهم .لاصـحب جمـاحك لجماح صحبهم .فأبى ونبا .وشب الشبا .فلما عرفـوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سـهله . قـالوا له:نبتـدىء بـالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجـل كرجل الدبى . وخيل اغصت الوهـاد والربـا . ومـرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشـعلوا الخـرصان في ليل النقـع عوض السرج . وقربوا مـن تـل العياضـية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلمـا

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الجدور . واوردت ظماء الظبي منهم ماء التامور . وانبعث بالنبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من اعناقهم الديون . وطيرت بإطارة السهام الى الاحداق بهم الاحداق . وخاطت الاماق وماخطأت الارماق . وصار كل سهم شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان . فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتر . وذيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفره . فاعرضت بالوجوه المتنكرة . وابنا بالانوار المسفره . ومر الالماني متألما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكلوم قلبه متكلما . وقد عاين ماعاناه من العناء . وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء . وبلي مما بلي به من البلاء . وعلم ماجهله . واستصعب ماا ستهله . وذاق ماضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتلى رصعه لو تم صرعه . لكنه تجرع من الغصص ماسهل عليه الموت جرعه . وتاب وماثاب . وابى الرجوع الى اللقاء لما آب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره . واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة الميناء عظيم الشان . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام والات ابرزوها . ومكر مكروه ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته وريب رأي رفعوا راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارهفوا غراره . وعنان عناد اطلقوه ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها وعقله معالقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس

صاريه . لايطاوله طود ولايباريه . وقد حشي حشاه بالنفط والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته .أعدى اليه بآفاته . ورميت فيه النار فاحترق . واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولي النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب يسري فيها النفط ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن التي لنا بالمينا و ردوها . فتعدي عدوانها . وتنير وتسدي فيها نيرانها وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللشر مستمدون .حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس ماقدروه واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا . فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج الصاري وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعادت على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشبع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قداح الرأي في مكر مكرهم . وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . منفرد عن البلد في وسط البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلطنا على مراكبهم التي في المينا . واذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيرا فلأي سبب جينا . ومن حديث هذا البرح انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعليناه . وبالعدد والرجال قويناه . وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولاحولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريفه . وصعد الرجال اليه في تجاويفه . وتعبوا في ذلك أياما وشبعوا تسوثيقا واحكاما . وهو بمرأى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه . ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بتلك البطسة زاحفين . وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط . وتوالت امطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور دينه متناصرة . ودلائل نصر اوليائه متظاهره . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور . ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحذار الفرار وكادت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم .

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطـاقة لنا اليوم وعادوا وقـد غرمـوا ورغموا . واخلف ماعزموا وزعموا وا شـتغلوا بمـلء بـطس لهـم شحوما واحطابا وادهانا واخشابا وا شعلوا فيها النار والهبوها . وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها .وادنوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق . فانزل الله الفـرج وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتده . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة للعـادة خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بـطس اولئك الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطردة الانابيب مستهلة الشآبيب

ذكر الكبش وحريقه
بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للغوائل غائلة . في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طـول رمحين كالعمـودين الغليظين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فـكم سـور اذا نطحتـه طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهـذه الدبـابة في هياة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها بـاعمدة الحـديد . وكملوا لها اسباب الاحكام الشـديد . ولبسـوا رأسي الكبش بعـد الحـديد بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البـاس . فلم يبق للنار اليها سبيل . ولاللعطب عليهـا دليل . وشـحنوها بـكماة المصاع . وحماة القراع . ورماة الحـدق وكسـاة الحلق . وعفـاة الحتف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من كل سرحان لاينظر الا من جلد أرقـم . وكل شـيطان لايقتحـم مـن الحرب الا جهنم . وكل شجاع لايعتقـل الا شـجاعا . ولايرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولاانتجاعا . فلما استدفت لهم هـذه الدبـابه وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطـافت بـذلك الكبش تلك التيوس النبابه . وامدوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سووا بين يديها الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها وقروا بها اعينا بل انفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعج مـرآها . وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هيأتها . وعدة تـروع هيبتهـا . وبلي البلد من بذوها بالبلاء الداني .وتغاشت وتعاشت دونهـا نفس الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هـذه مـاني دفـع خـطرها حيلة .ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيم الامل . ومن للكبش العظيم وقطع رأسه.ومن لبناء الحديد ونقض أسـاسه . فإن كانت هذه الدبابة دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمـانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام بـرهانها ونصـبوا على صـوبها مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من حواليها . وطردت المطرفين بين يديها .ثـم رمـوها للحـزم بحـزم الحطب حتى طموا مابين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فتـرنم في أثنائها عجاج اللهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فـاشتعلت نار ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجـاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبينات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فاطفأوا نار الظـاهر ولم يعلمـوا بنار البـاطن . ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمـدوا الجمر . احمدوا الامر . ورجعـوا ولم يزل اللهـب يأكل سـقوفها . حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق .فانهد ذلك النيق . وصوح ذلك الروض الانيق . ووهن ذلك التركيب الوثيق . وذفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبـابة . وخـرج من بالثغر المحروس. باشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب اثلج صدره وبـرد يقينه حـره واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقـل في الة لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد أصـحابنا على عدوهـم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم ينشد وهو ينشيء وينشد جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن الشقاء ادركهم.والشقاق أهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وان ترتيبهم مدمر . وأن آلاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) (الصافات : ١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه الاجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر . وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك . وقد استصحب غلمانه الاكاديش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم رونق . وصفاء لم يشبه رنق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى إقدام المتهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا . واضطرموا واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام . ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروخ . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم المجانيق بالاحجار . وآننت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بحد الاقدام . وآفضى الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ القت الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب.وفيها امراة محتشمة . غنية محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه المرجو .وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل الدفع وعم .وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضح الحق وتحقق. فاحضر السلطان الامراء الاكارم. ورجال الحقائق الضراغم . الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه .وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفائن ضمائرهم .واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم احداق العساكر وانما لايقدرون على القصد دفعة واحدة . الا اذا كانت أيديهم . متساعدة وآراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم واسرناهم ، وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم .واجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه . فخيمنا هناك على أحسن تعبيه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و حللنا التلاع والآكام . وركزنا بتلك الأعلام اعلام . ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين . ولأسباب التوقي من الامطار مستجدين.

وأضحينا على تلك الاطواد موطدين . وعند تلك الاوتاد موتدين . وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة ، وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . واحبت الرجال التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق . وانارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لمراعفها . وذوب اليزك بحالها تدور وترويه وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب. والزحف يتعاقب، والاقران تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون . والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم . والرقاق بصليلها لشوق الجماجم تجمجم . والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل . ولاكارم الا للكلام . ولا سلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرج والجم . وتقدم وأقدم . وأصم وصمم . واضر وأضرم . ولاتله حتى تلهب . ولاتعج حتى تعجب . وأقطع وصل . وأكتل بصاع المصاع وكل . ولاتقلق والق وقلقل . ولكل داع إجابة . ولكل ساع اصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل شهم في المرام سوق . ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماء قدعه ، ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل عضب عض ، ولكل ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصب في التشجيع ، ومن له جراءة الهيجاء هاج الى الصريخ بالجد السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح في دياجير القتام متبلجة ، ولله نعمة في كل بلية ، وسر في كل قضية .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وماجرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف بنالتكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ماطلب غاية في الكرم الا ادرك ، وماكان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته للسرور ، فلقد كان جارا للكتائب ، بارا بالاباعد و الاقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قارا على قلق الذوائب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طرير الشبا ، وحبه لعقد السودد معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على مايحبه ، وهو جاهل بمزاجه.ذاهل عن علاجه.فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ماأزهى ازهاره ، ومماأنضر نضارة ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاتراب الى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وآذن الزمان بعد الأجداء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وماظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه مغزين على ظن أنه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع مايحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها و سميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الاسباب والأمور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الأحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه وذهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له مااستحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة الهناء ، فاستأذنه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه اصحابه . ولج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانه منزلته عند السلطان جهده ، وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا .

فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغادى ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغلل ، وأعلهم ماعراهم وعرتهم العلل ، وباؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى فراره ، ومقضى قراره ، يخبر انه طواه، الطوى ، فنواه الذوى حين التوى ، من حذر الثوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل ، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم في استعار ، فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال ، فقبلناهم واذقنا فيهم والفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ما اقووا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتندم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، وا شرقهم جرعهم ، وعرقهم قرعهم ، واخلفهم خاف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ، ونلي ونقلق .ونفل ونفلق .ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز.ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق.ونخرج ونحرج.ونلج ونلجج ونضري ونضرب.ونغلي ونغلب ، ونجن ونجني ، وننيف ونفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونتصدى ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر .فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد ، وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال ، وأخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها ، وكان اليزك في تل العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ماتركت الاتراك ، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الامن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحى

تلبيه ، وقد امتــزجت زجـــرات الجـــاووش ، بنعـــرات الجيوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهـر بقـرب البحر وصفوفها مشتدة مســتدة ، والسـلطان في القلب كالقمـر في الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند الخروبة ، على المهاب الحـالية والحـالة المحبـــوبة ، ومقـــدموا ميمنته ، عظماء دولتـه ، صـاحب دمشـــق ولده المبجـــل ، الملك الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصـــاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي حسام الدين بن لاجين : قـايماز النجمـي صـارم الدين ، والأمير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لايرجو منازلته الا من فيه بـان الباس ، ثم بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طـالما بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرهـا ، وعظمـاء الميسرة ومقـدموها ، وأمـــراؤها ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معـز الدين سـنجر شـاه صـــاحب الجـــزيرة ، والملك المظفـــر تقـــي الدين ذو الســـطوة المبيدة المبيرة ، وســيف الدين علي المشــطوب ، الذي نشـــب بناره الحـــروب ، ونصـــب على العدا منه الكروب ، والهـــكارية والمهـرانية ، والحميدية والزرزارية ، وأمـــراء القبـــائل مـــن الأكراد ، أقتال القتال وأجادل الجلاد ، ورجال الحلقــة المنصــورة واقفون في القلب ، لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب ، من كل فارس فراس ، وهـرماس رمـاس ، وضـيغم ضـاغم ، وضرغام غارم ، وليث فضفاض ، ملوث بفضفاض ، وقسور قاسر ، وهزبر زابر زائر ، واسد في غاب الاسـل ، وقـــارع في القــراع بـــاب الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الاقران ، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارىء (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأمـوالهم) (التـــوبة ١١١) ثقـــة بـــوعد القرآن ، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر الجنان ، وســابق الى حلبـــة الشـــهادة ، وســـامق على ذروة السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العـدا

عن الهدى بعاسل ، وســـار الفـــرنج شرقـــي النهـــر لنا مـــواجهين ، وللكريهـــة غير كارهين ، حتـــى وصـــلوا الى رأس النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فـانقلبوا الى غربية ونزلوا على التل بينه وبين البحـــر ، والجـــاليشية الرمـــاة منا حـــولهم جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سـائلة ، وجـرح في ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث،ومانبا عن كثير منهـم ناب النائب الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقـاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجـل مطيف محدق بهم كالأسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتـى كادوا أن يخالطونهم ، وأرادوا يبـاسطونهم ، والسـلطان يمـد الرمـاة بألرماة ، والكماة بالكماة ، وهـم ثـابتون نابتـون ، سـاكنون ساكتون ، ونحـن نقـــول لعلهـــم يحملون ، ويغضـــبون فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم . وتفريج الغمة بنزع جمتهم . واحس العدو بالضعف . وانه متـورط في الحتف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض . ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقـن ان صح منه الثبات بانكساره . وعسـكرنا يصـافحهم بـالصفاح . ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السـهام . ويلهبهـم بحـدمات الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشـويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب . ويخيض في دأمـاه الدمـاء منهم سوابح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم مـاء الفـرند . ويغيظ بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند . وادبروا مولين . وارخصـوا مـن مهجهـم مـا كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهـم ويقلعهـم . وهـــم مجتمعـــون في مسيرهـم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهـم . يتحـركون في سـكون . ويتظاهـرون في كمـون . ويتـطلعون في غروب . ويتفللون بغـروب . ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمـود . وكلمـا صرع منهـم قتيل حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهـم . ولا

يصبح لنينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وابلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأذبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما هماما . واسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروع اذا ابدى له ناجذيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا . وبنار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصفين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما رامه بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوج أبلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم.فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره . وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكند هرى ، وأقام ملك الالمان على عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد . وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهـم . والأسـد سائرة بـالأسل في عرينهـم . والحمية مشـتعلة في عيونهـم وعرانينهم .ونزلوا رأس العين . وتطرق بها اليهم مـن عسـاكرنا المنصورة طارق الحين .ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيران النصال والمناصل لهم محرقه . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف . والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المذون من الأهداف . وما دارت بهم الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصـوب وتـطيل وتـطول . وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما ابصر الفرنج ما حل بهـم مـن العـذاب . عدوا الغنيمـة في الاياب. وشرعوا في طريق الذهاب . فعـادوا مـن غربـي النهـر راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهـم خلق,وسرى في حجـب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين . ورحلوا سـحرا خـاسئين خـائبين . وخيولهـم الناجية مجرحه . وقلوبهم الراجفة مقرحه . واشلاؤهم مـن كسـوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه . وعرفوا ان حركتهم للهلكه .وان هلكتهم في الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا مـن لحـوم الخيل . وهـم يدعون بالثبور والويل . ومـع كثـرتهم قلوا عناءا . وضـلوا رجـاءا وذلوا بلاءا . واعتلوا جدبا وغلاءا . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين من مراميهم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصـحابنا وراءهم يطلبون اردائهـم . متعـطشين الى دمـائهم . يرمـون ارواءهم ، وثبوا على جيادهم ، وثـاروا لمراد مـرادهم ، ولاقـوا اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبعهم ، فـاندفع الاصـحاب حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحذوا واجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيره متسعير . وطلبـوا بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال.ولولا ما نفق مـن التياث مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حـزب الشـيطان! ولله في كل قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بـلألاء آلائه . ومـن آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجره الرابحة . انه رأى ان يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمـع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شـوال منتخبـي رجـاله . ومنتجبـي ابطاله وخواص أتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلاد جلادته . وفي اقاء العدا عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بـأن يكمنوا على سـاحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضـوا وكمنوا ليلة السـبت متنبهي الهمة . متيقظى العزيمة . وخرجت منهـم عدة يسـيرة بعـد الصباح . منادية بحي على الفلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما . واسرعوهم ضراما . فـطمع الفرنج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها . وبتت علائقهـا . وحثـت سـوابقها . واخاضت بحر الحرب سوابحها . وقد افاضت سـوابغها وشـامت صفائحها . وتجردت عن رجـالتها . وتفـردت بضـلالتها . وحملت بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطارد اصحابنا امـامها . وانهزموا قدامها . حتى وقفـوها على الكمين . واوقعـوها في الهلك المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها فرار . ولم يطـق مـن غرتـه ان يمضي غرارا . وكانت في مـائتي قنطاري ، من كل مقدم بـاروني وبـطل داوى واسـبتاري . فقتـل معظمهم . ووقـع في الأسر خـازن الملك وعدة مـن الافـرنسيسية ومقدمهم ، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقـطع بهـم سـببهم . وما وصلهم اربهم . وجاء الخبر الينا . فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هنالك الاحسـان . وجـاءه مماليكه يقـودون اولئك الاعزة بخـزائم الذل . ويجــودون بمـا استخلصوه من ذلك القل ، ويقدمون المقدمين من سراة الاسـاري . وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى ومـا هـم بسـكارى)

(الحج ٢) فقد رضتهم التوت وقضقضتهم اليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدهون . وسيوف ذكور تتولد منها المذون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفدينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحبير الحبور لابسا . وقد جمع اولئك الأسراء . وما اسعد الله إلا في تلك الساعة اولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما آنسوا فاكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت نوبة اليزك لأخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فانفذنا اليه من ممالكينا سرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الأنفس بصنعها وقرت . ولما اصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين والمنايا الى ناديهم منادين.فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم. وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقـومون فيهـم رجاءهم . حتى ابعدوهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مـرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهـم لبـاس الجلد لبـاس الجلاد . وفلقوا البيض بالبيض . وفلحوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بـالفضاء . وعروهـم بـالعراء ولتوهم بالتوت . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة مـن مقـدميهم . ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة انثت بأوفر حظوه . ووقعـة انثت بـل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمـد لله الذي تـزكو انعمـه بســقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في الذوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجـل مصيرهم الى مصرعهم . لكنا مـاقدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتـظر مـايكون مـن العسـكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصـة الصـحة . ولزمـت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمـد لله على المهلة في السنتين . فأقمنا مع السـقام ، وسـقمنا في المقـام ، وصــبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقـامنا في هـذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومـامنا الا مـن التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الالثـاث . والحمـد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهـاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شـمل الصـيف الرفيق . بشـمول الشـتاء العنيف . وانحرف حريف الخريف كانحراف مضـيف المصـيف . واشـتعلت

رؤوس الجبال شيبا الثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بـالمرج . والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل النيل وجرى . وطمر المطر هـوادي الوهـاد . وقبض انامـل الانام عن البسـط للجهاد . وجمد الخمر . وخمـد الجمـر . وارتعـدت الفـرائص . وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء يعدو ويعدي . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا . واشتغل الملوك بملازمة المشـاتي . ومنادمـة الدواتى . ومناقلة المناقل . ومعالقة العقـائل . ومعـاقرة العقـار . ومسـامرة السـمار ، ومـداناة الدنان . واجتناء الجنان . ومناغاة الغواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف . وملامسة الطائف والطاف . فلت نار عزم السـلطان حـد الشـتاء العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر مـن مشى الى المشـاتي . وما صده البـرد عن مقصـده . ولا رده عن مـورده ولم يحتفـل باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكترث بكارثه . ولم يحـدث امـرا لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحـر الحـرب عن الاصـطلاء بناره . وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سـماء الآلاء وارضـاه لما طهر بدم انجاس اعدائه ارضه . واستمر على بذل جهده في الجهاد . ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد . وقال انمـا أربـأ بهـذا الأرب . وأرى راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله عنف الثلج . وما يبرد قلبي مع تقلب الحـر والبـرد الا بـرد النصر والفلح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفهـا عن العـود الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امـورها وانحـلالها . والفرنج قد امنت غائلتها . وتـكفى في مـداومة قتـالها في ذوبهـا مقاتلتها . فاذن للجمـاعة في الانصراف على المواعدة في المعـاودة في الربيع . والرجـوع الى مـراد الروع المريع . وليأخـذوا اسـباب الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجـال المحققين في نصرة الحق للرجـاء مـن اهـل الغني والغناء والمضـارب والمضاء . فسار صاحب سنجار عمـاد الدين زنكي خـامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد.وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه وروده . ولقد تمت بأيامن ايامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات . ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أردنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكنا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الأصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاءه . وسر بفضائله اولياءه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والنفوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلامة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس بعودته متسهنة . والالسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه الزاهرة متفوهه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهة ولا شك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربيحه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجحه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد أمسى مقتل الكفر بكل سهم مصيب . وهو لستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب . وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . واظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخلوا ساحل عكا من ارعابها وارهابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البدل الى البلد . من الثابتين في الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى البلد من البدل . فان المقيمين في عكا شكوا امراضا معترضه . واعراضا ممرضه ،وكثرة السواد مع قلة النفقة والزاد . وكان في البلد زهاء عشرين الف رجل من امير ومقدم وجندي . واسطولى وبحري ومتعيش وتاجر وبطال . وغلمان ودواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على الموضع .موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ورأفة.وما افكر أن في ذلك مخافة وآفة.فقد كان فيه امراء امروا الأمر والفوا الصبر ومانعوا الحصر . واجترأوا وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكامن المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم وينفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين ابي الهيجاء السمين . فانه انفق ما ادخره من الألوف والمئين ، مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق وهناك ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

يذفق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام . وتبدد بتبدد نظمهم النظام . والزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول . فخدموا على ان يعفيهم بالبذول . فلم يقبل منهم بذلا . والزم بذقل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا الا بعدلأي . وقد بلغوا في غي الرأى الى اقصى غاي . واكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين . واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين . واذهبوا الايام بالمدافعه . وابطأوا عن فرض المسارعه . والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم . ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل عشرين اميرا مقدمهم الأحمد . سيف الدين المشطوب علي بن احمد . وامر السلطان بالمناداة في الابطال البطالين . ليحضروا لقبض الذفقات وكان يحضر الجاووش في كل يوم مئين . ويصبح ذواب الديوان في امرهم مرتبين . لحرصهم على توفير الدرهم . وبخلهم بالذفقة ويعدونها من المغرم . ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو في نصرة النصارى . وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لايجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم القبط قطب . وفي الخبط خطب . وللشر شرك . وفي الحسن حسك . وللمشرك مشارك . وللدين تارك فارك . ولهم اخلاق اخلاق . وطباع بالطبع اغلاق . تأوي للبخل والتبجيل الى التأويل . وتقلي لتكثير السوء في الخير سوى التقليل . وهم جالبون للغي . طالبون للبغي . كاسبون للذم . مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولي الخزانة . يرى الشح بما يجود به السلطان من الأمانة . واصنعهم في الكفاية عندهم امنعهم للاطلاق واعذقهم بالحذق أقذعهم ، وأعقدهم للحق أقدعهم . وأجودهم أرداهم ، وأضلهم آهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على الخيانة . مختلفون في الظاهر لابداء الصيانة . وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم . ويوحشونهم بخطابهم ويذفرون بكلامهم . ويقابلونهم بالجبه.ويعاملونهم بالنجه ، ويواجهونهم بالسوء ويسوؤونهم في الوجه . ويشتطون في طلب الضمان . ويشترطون ماليس في

الامكان . ويطـردونهم بقبيح الزجـرة . ويكسرونهـم في صـحيح الأجرة . والسلطان يجود جـود السـحاب . ويأمـر بـالعطاء الحساب . ويجد حث الذواب . ويجد في بعث الأصـحاب . ويقـول انفقوا ولا تخشوا اقـلالا . وانهضـوا الرجـال خفـافا وثقـالا . ولاتـؤخروا شـغل اليوم الى غد. امهـالا او اهمالا . ولاتقدموا على هذا الفرض فرضا ولانفلا . ولاتعتقدوا ان لنا أهم من هذا الشغل شغلا . وذواب الديوان على عادة جهالتهم . وعاية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . ومادخل الثغر الا قليل من كثير . وماصح من البـدل الا بعضـه . ومـا قضى حـق الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقـوى اسـباب الضـعف . وأوفق دلائل الخلاف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سـنة سـبع . فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لابنفع . وأقام الملك العـادل على البحر لازاحة عال الداخلين . واراحة قلوب الواصـلين . حتـى عاد الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جـانبهم . واقتنع البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصـلت مـن مصر بـالغلة بطس سبع . وكان لها الحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جمـاعتها ومساعدتها . ونقل مافيها من بضائع وحـوائج . وسـلع وروائج . ومأكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهـدهـم . وانتهى الى الغاية جهدهـم . فلما تسامعوا بـالبطس تشـارعوا الى الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب اهـل الثغـر . الى جـانب البحـر . فزحفوا زحفا شـديدا وحملوا جندلا وحـديدا . وأتـوا بسـلالم لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهـم حـولها كالمعصـم في السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضـيق متصـادمين . فاندق بهم السلم المنصوب . وسطا بعصابهم المعصوب بها لنصـب سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا كؤوس المنايا وتسـاقوا . ورأوا غمـرات الموت فـزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه .
وألفوا الأجل كامنا فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواثب السباع على
الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع . واطالوا بشبا
العوالي للعوافي باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون
الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم
المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على اعقابهم
ناكصين . ومن حسابهم ناقصين . ولا شتغال الناس بكشف ماعرا
من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهائهم بثقل الغلة . عن نقل الغلة .
وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضرب
بها الحشف . وأذهب بكسرها كل مافيها وأتلف . وغرق من كان
فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها
زهاء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر
منتبه . ونهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع
ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته .
وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا
اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدروهم
وصدوا عنها بنحورهم . وبنوها بأبدانهم الى أن بنوا ذلك
البدن . وعمروا ماخرب وقووا ماوهن . وقتلوا وجرحوا من العدو
خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب
عن طريح صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطليح للعقير قريع .
وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجد بهاء الدين
قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر
الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل
عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان
بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك
الأسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد
بهلاكه ألم الألمانية . وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر
الى سقر . كند كبير يقال له كندتيباط دافع القدر فما قدر . وهلك
منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم
واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس . ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا . وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم الجلائل . من كل آنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصوغة نضارية . وآلة فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصحاف . وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب . ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب . واظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون . وليمين الايمان مصافحون . فلما اكرموا بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمة ، وأسلم منهم شطرهم . وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهدية مائدة فضية عظيمة وعليها مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا . فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتهم بها اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ماأظن في الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه . وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر حباله ومعهم ملوطة . مكللة باللؤلؤ منوطة . وبأزرار الجوهر مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الألمان . واسر فيه رجل كبير قيل انه ابن اخته وهو كبير الشان . وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مـكارمه المكاره . ونزع بلبسة إفضاله لباس الخمول ذوو الفضـل النابـه . واعاد روح السـلطان باعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه . وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العـلاقة . وروى رأيه بـري رأيه . وتلقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثـاري بمقـدمه . وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا أملي . وقوي عملي ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبـه قـدري وذوه بـذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي .وسن غربي واسـنى غاربـي . واقرني وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان إسـتكتبني فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويت بـه لأقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولاتوليت . فـانا شـاكر نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سـبع . ومـافي لقـائه للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومـن ذوي الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مسـاورا . ولكل هـول مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فـاذا هـو الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الأكراد . كانوا من الآسـاد . ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية المعجبة المحسنة . ليكبس شـواني الفـرنج في مـواضع الربـط . واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا عواليها بعواليهم . وظفرت اسـاطيلنا وطـالت . ووصـلت اليهـا وصالت . ونالت من الظفر مـانالت . وأحـرقت الكفـر شـواني برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العـود تـأخر لنا شـيني مقدمه آمير مبارز كالاسد الخادر لايصحر الا الفـريسة ولايبـرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن اركز ، فشين الشيني وشـأنه . وماأعانته أعوانه . وامتلأت بالأعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

آركانه . واضـطرمت بـاهل النار نيرانه فتـواقع مـن فيه الى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقـف الأمير على قـدم جلده يجالد . ويجد ويجاهد . وقد اثقله بلبس البسالة الحديد . وخف بـه العـزم الشـديد السـديد وقـد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد . والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولاا سـتطاع الانقياد بـالطوع . ولامكن العدو من مكانه . وأخذ مـع الشـانيء بشـنآنه . ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فـاجتمعت على مـركبه مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خـذ منا الأمان واستأسر . وهون الأمـر عليك ولاتعسر ويسر . فـالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهـلاك أن لم تعطناالبد وثبت على هذه القدم . فقـال مـاأضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير . ولايخاطر الخطير الا مع الخطير . فسـموا له كندا أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاه . فلما دنا ليأخذ يده لزمـه وعانقه . وقوي عليه ومافارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشـهيد السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخـل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر . وسعداء المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضي بن قريش الكاتب . وكان صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بـالغ الحـكم . مهيبا يخشى مرهوبا لايغشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة مـن الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخـطابه في الخـطب مسـتمع . ولرأيه ري وريا . وتدبيره للأمـور بتنفيذ الأوامـر السـلطانية دينا ودنيا . ولم يكن له في الكفاية كفء . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفء . وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق قد تـركه . ورغب في ابتياعه القـاضي المرتضى ليملكه . فتقـاضى ديناره فـانفصلا على التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبـكر البـائع الى سـلام

المشتري ووثب وثوب المجتري وطعنه بمديته . وهو آمن من في خيمته . وفتك به فتك اللعين ابي لؤلؤة بالفاروق . وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله . ومضى بسالك سبله . فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لولم يعاجلوه . ففجع المنصب بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ولزور الربيع ريث . وللسحب سح . وللضح شح . ولعين الشمس غض . ولوجه الغيم ومض ولأيدي العارض بسط وقبض . ولنواظر البرق تنبه وغمض . ولنواجذ البرد كشر وعض . ولفص الفصل ختم وفض . وكل صاد في بحر كانون كذون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأوحال أحوال . وللأهواء أهوال . وللشمال شمول . وما للقبول قبول . وللجنوب نذوب . وللدبور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا صبابات وصبابات . وللندى الندي جنايات وسرايات . وللجو الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي الرباب عمائم . وللنكباء نكبات . ولشبا شباط شبات . وللرواعد رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفة وعتو . وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابته في زوايا الثلوج النازلة خفايا . وللعواصف القواصف عواص غير قواص . والعارض عارض للحب في العراص عراص . والقوارس قوارص . والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه . والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم . والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا . ولتجهيز البدل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد . وتعود وترجع اليها بالاجناد . ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض الذواب في ذلك وإليهم يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . ويدفق فيهم الاموال . والأمر مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

سنية . ولوا فح عزماتهم ذاكية وذوا فح مكرماتهم ذكية . والمماليك الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يغادرون به ولايبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضالة ضلاله ناشد . ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة في المشقة التي تعدها الأشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة صدقوها . أولقوا غمه كشفوها ، او صرفوا أوجههم الى نائبة صرفوها .

ذكر ماتجدد من الحوادث وتكرر العزائم من البواعث

في يوم الاربعاء تاسع المحرم ، سار الملك الظاهر لقصد بلد صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي من اصحاب الأطراف السفر . فان السلطان رخص لهم في ذلك . فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . وأقام السلطان في اصحابه . وخواصه وملازمي بابه . وملابسي جنابه . ورجال رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك المظفر تقي الدين ليتسلم مافي شرقي الفرات . من البلاد التي كانت مع مظفر الدين . مضافة الى ميافارقين . فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر وميافارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد وماردين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء منها الطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من يشترط الفسحة له في استضافة ديار بكر الى بلاده . ويقال له لا سبيل الى قصد أحد ولاانتزاع بلد ولاازالة يد . فان أرباب البلاد اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاقد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متباعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهي . وبلغت المنتهى . وأنا ادخل على الشرط وعنه لاأخرج وأجمع العساكر والى نصركم مورد في الروع ومصدر ، ومازال يستسعف السلطان عمه . ويسترهف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى اخذ دستوره . واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع ايابه ،ويحكم في العود اسبابه . وانما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لاتدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد مااستشار ولله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون . غير ماكان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم ايضا ابقارا وأب قارا . وسار بالغنيمة سارا . وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . ففرق في بحر الأسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا . وماهديتا بل اهديتا . وشاهدت الأسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على الذين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا من البلد على العدو بالنائب الاعضل والناب الاعصل . وكبسوه في مخيمه . وخيموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتى اسروا من الفرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوهم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين . كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي.وفي الأحد ثالث هذا الشهر . شهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت النوبة الحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعه . وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش . وهذا الخصي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفر للاسلام بحمل الذحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج . ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف . فأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد الساحل . ويكمن بعسكره وراء التل الذي كانت فيه قديما منزلته . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصبة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول . مستظهرا بصحبة ولده الملك الافضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولاجسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصل اليه من بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحنية . وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام . وعامت في بحر لياليه وايامه الاعوام . وهو ممسوخ الحليه . ممسوح اللحية . قد بلى مما بلي . وقلي من طول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لذاته ولذاته وما عدم . وكم جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتى لم يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا ذهابه . فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعه . واختياره الضيق على الارجاء الواسعة . فسأله كم بينه وبين وطنه . ولأي سبب حركته من سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بالاطلاق . واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفرنج راكبا على فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله خدام اولاده الصغار . ان يأذن لهم في تجريب سيوفهم بجرح الاسارى الكفار . فلم يأذن لهم في ذلك وأباه . فأرضى كل منهم بامتثال الأمر الذي أباه . فقيل له لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم . فقال لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر . وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقربه ومجاورته الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقدم في ذلك التاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وقد استصحب معه مماليكه الترك . وقد نوى بالمشركين الفتك . ولسترهم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواضبه . وصوافنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه واظمأ جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فعن

ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيلترددأماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافاته الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع . ومن ديمته وبل النبل من الاحداق والنواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لاعرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الاول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب . ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . وافلت من يده وطار . وحشا حشاه الباز الذي نار النار . ووقع على سور عكا . وحزن الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى وما آب . وثبت وما ثاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى السلطان انفذوه . فأبدى السرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده للظفر والمنحة فألا . وبذل فيه الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها . ويجرون بجواريها . وينهضون بسواريها ورواسيها . وينهشون بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم . واسروهم باسرهم وسبوهم . وبغتوهم من البلاء بما اتوهم به وبلوهم . وكنسوا كل ما كان في الكنيسة . من الاعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم . ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا . واقتسموها خرصا . وزادوا بمانالوه حرصا . واستغنوا مما استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل الذبل ديمه ، وركبوا باسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل أرهف حد عزمه . وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق . واعتناق الغلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شده . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقرير . وحمل له هدايا . وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . ومابطشت يد عادمـة الا يد كيد الكيد . واسـتولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امـواله الغزيرة . وسيأتي ذكر وروده ، وماتم به لاحزاب الشيطان وجنوده

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصـلت مـن ثغـر بيروت كتب مبشرة . وبالنجح متجددة . وهو ان اصـحابنا اخـذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مـراكب الانكتير خمسـة وطرادة . ولم تكن لولا اباء رجالها الضيم معتاده . وبحـزام القهـر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخاير مـن عدة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطرادة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البـلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فـأما السبايا فقد اخرجن على البيع بالذقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بـالجد والجلد . والعدد والعـدد والمدى والمدد والجمـع المحتشـد والجمـر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضـب . والسـمر السـلب . والجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بـالوشيج والامـر المريج . والقصـد بـالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والاوبـاش والاوشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضـباع . والضـواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والحمـر والسـود . ودبـوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبـوا . وغبـوا وعبوا وجابوا وجبوا . وزحموا ورجمـوا . واقـدموا وتقـدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيهـا ونصـبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كانهـا تـلاع . وهـي في الجـو مترامية . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاض الجدار . منفضة اسوارها لانفضاض الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قـائمة قـاعدة . بـارقة راعدة . صـادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال اجنتها . وحنايا الحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجـار . ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق . صوائل بالفلق على الخلق . مـطايا للمنايا . روايا لخبـاياها البـلايا . في كفاتها افاتها . وفي حـركاتها ادراكاتهـا . وللتعـنيب عذبـاتها . وللترهيب جـذباتها . ومـا اعظم جنايات جنادلهـا . واظلم غوايات غوائلها . وهي الروائم الروامي . والحوائم الحـوامي . والهـوادم بالهوادي . والصـوادم الصـوادي . ودواعي العـوادي . وذواعي الذوادي . والذواعب بالذوى . والجـوائب بـالجوى . والصـوائب بالمصائب . والذوائب بالشوائب . اذا جـذبت جـذت . واذا قـذفت اقذت . واذا طوحت طـرحت . واذا حاقـت حاقـت . واذا اطـارت ابارت . واذا القت القمت . فشق على اصحابنا بـالبلد شـقاقها . وكادت تفتح اليه الطـريق طـوارقها وطـراقها . فـاستصرخوا بنا وانهضوا . وحضوا على حظنا وحظهم وحـرضوا . واسـتنفروا . واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبـا في العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسـير مـن كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العسـاكر عنه ومـر الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب . ونكايتهـا في الضر والضرب . وعرف امـاكن القتـال . ومـكامن الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظـل . ذل جمعهـم وكل . وترك الزحف واذفل . واذا عادوا وعدوا . واناروا في الحـرب واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه . وفطموه رضيعا له ثلاثة اشهر في غير أوان فطمه . واسـتحلوا بحـكم الجهـاد في جنح الظلام ظلمه . وفجعـوها بـواحدها وسـاعدها . وكدروا صـفو

مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدها . وحرموه در لبنها فدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهــة . والخـد خادشه . واللوجه خامشه . معولة مولوله . مــذهلة مشــتعلة . وقــد شدهت ودهشت . وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها . مذ ســلب طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنهــا . وتــكرر بــالحنين والانين ترجيعها . وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعهــا . وهي نائحة في كل ناحية نادبة في كل ناد . نادية لكل فــؤاد . عادية في كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفــه . وبــالنحيب هاتفه . وللدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مســتوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صــدرها بتقــطيعها . ضــارعة لفقــد رضيعها . معولة على الطفل معولة على اللطف . متذكرة مــن الذكر متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . ونار اكتئابها ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفــراتها . وتتلهــب حسراتهــا . تبكي ببكائها . وتشكي من دائهــا . وتنشــد ضــالتها . وتـــطلب مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها . فلما شاهد السلطان حريبة حــزينة . مســكينة مســتكينه . متجننة متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شــكواها وفهمهــا . ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وســلك بفضــله طريق التوفيق . وطلب الرضــيع . فقيل له انه بيع واضــيع . فــان آخذيه باعوه بثمن بخس . ولم يعــرضوه في ســوق بــز ولا ســـــوق نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه . ويلوم بــاذله كيف لم يصــنه . حتى جيء به في قماطه . وقــد كاد يلف في عبــاءة اعتبــاطه . فلمــا بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها بــرد روحهــا . وأسا ماساء الاسى من جروحها وقــروحها . ورو‌حهــا بــروحها . وفرع دوحها . واغناها بغنائهــا الشــكر عن نوحهــا . وظهــر سر سرورها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ماا شتراه من مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياديه .

- ٦١٠٦ -

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم . وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب الذوم بكل حد مرهوب وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دائية . انتقل السلطان الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة . بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه ان القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فامر الجاووش حتى نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليزك . والزم المقدمين والامراء بحفظ ذوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قلتها خرج بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجثمه . والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة . ونزل في خيمة لطيفة لاجله مضروبة . وصل من اليزك من اخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ماكان فيه وزحف . وانه قد ارعب وارعف . وأرهق وأرهف . والهى والهف . وأرهب وأرهج . وأعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وانار . فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم فأعادها . واستنهض الى الفريسة آسادها . واجرى في حلبة الحمية جيادها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل . وضرب يرنح اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظاهر العلو . والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهم ويغاديهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا . وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية . ورمي كما حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمه . والرمي مديمه . وبالاحجار متقاطره . وعلى الاقطار حاجزة . والجلاميد قارعه . والصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق . فدذوا منه دذو المحذق . وشرعوا في هجمه . واسرعوا الى طمه . وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم . واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلهم قد اقتسموا فريقين . وافترقوا قسمين ففريق يلقي من الخندق ماالقي فيه . وفريق يقارع العدو ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير . واظهروا انه في الجمع الكثير والجم الغفير . وكانت معه من الشواني خمس وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضاهي تلعة وتوازي قلعه . وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفوس لوعة . ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفاس للشرارة متصاعدة . وألسنة للشعل نضناضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصول اولئك الشرار شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كانوا من أهل النار

ببرهانهم . وأتتهم بـاتيانهم . وأضـافتهم في مـكانهم . وملك الملك بامره أمرهـم . وأراهـم أن بيده دفعهم وضرهـم . وملأ عين الملاعين . وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد آبارا . وأثـر في المكر آثـارا . وأرث للشر نارا . وأنار لنصرة النصرانية ثـارا . وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به مـن تـأثيره وتاريثه(٥٩) . وارتابوا وارتاعوا . والتـاحوا والتـاعوا . وغدت الألسنة ترجف والقلوب تجـف . وكاد البـاسل يجبـن . والبـاطل يخشن . والحق يلين . والدين يدين والسلطان قـوي الجنان . روي الايمان . صاف يقينه . واف دينه . شاف نصـحه . كاف نجحـه . مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معـاشه . متأن في تفكره ، متأت في تدبره . متـوكل على ربـه في نصرة دينه . متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتـروعه المخـافات ولاتخيفـه الرائعات . ولاتزعزع الخطوب طود وقـاره . ولاتفض النوائب خيم ذماره . ولايلين للشدائد . ولايستكين للروائع الرواعد . وكم سـكن الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببـركاته ونام الأنام ليقـظانه ، وآمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمـه لما درى . ولارد وجهه عما قصد . ولاصدف رأيه عما عليه اعتمد . بـل ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة . وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكتير ان جمع كفـره للتبتير . وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهـل التوحيد مولعة مـن نحـور أهـل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبـا في كتائبها . لتحتبي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها . بخيل تأبى الضيم مثل إبائه . وفخر مثـار النقـع يذوب عن لوائه . ووجه كلمع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام السلطان على هذه الحـالة . سـاميا في مـطالع الجـلالة . لم ينض سلاحه . ولم يخفض جناحـه . ولم يركز رمـاحه . ولم يردع للروع مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزادها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلأها غلة وذخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكي . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكتير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوادية . وقاتلتها نصف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فاكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خلق عليها . وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن استقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشح بالدين أحب الينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى اغرقها . وسعد أهلها . وافترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الأولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الوقعة أول حادثة للوهن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الأسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد اظهرت لها في الشر غائله . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى ان بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقربوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصحابنا يطلبون الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشد قراع . وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قوارير النفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد . وتنبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق .حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم في الالتهاب . فعوذناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب . ومن حر انفاسها برد النفوس . وكشف شعاعها ظلم الكروب . ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور . ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها . فاحرقها الله احراق اهلها بذنوبها . وكما أضاءت الافاق بنيرانها . اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد . فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة . وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتا لتلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو دق الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العدو بالذفائس والنفوس . ولما اصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته . فعلمنا بزحفه . وعملنا في حتفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم لامن حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبرد . مضمر الجرد . فضفاض السرد . قضقاض كالاسد الورد . مشتاق الى الطرد . ملتاح من ماء الوريد الى الورد . من الترك والأكاديش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب . ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب . وكل ثمل كأنه نزيف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره . وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم السوابح السوابق في بحور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق الشاكي . وكل مصمم مصمم درعه غير محقبه . وسهامه غير مجعبه . وسيوفه غير مقروبه . وقبابه لمداومة اجراء فيه غير مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله . وابيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله . وأشتبهت في النقع الوان خيله . وامتدت الى قرار الالقاء أعناق سيله . فكانما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب . وعد النقع في وبل الذيل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم . وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى وصلوا الى القدور على اثافيها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا بقنطارياتهم وطوأرقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون . ويعلون من دمائهم وينهلون . ودخل الظهر وحمي الحر . فافترق الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت من أشدها واجدها كريهة . غير انه في هذه النوبة عرضت نبوة . وكادت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليهـا بسـباق رجلهـم وراكبـي سوابقهم . فانتشب الحرب .واسـتجر الطعـن والضرب . وكثـرت الجراحات . وكرثت الاجتـراحات . واسـتشهد ممـن عرف مـن المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل مـن المشركين جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الوقعة . أن رجلا مـن مـازندران مـن اهـل الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأذن وقـت السـلام على السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد . فلقي الله بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العـدو فـارسا وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا مـن جـانب البحـر أطـلابا . وتحزبوا في ذلك الفضاء أحـزابا . وركب السـلطان مـن مجـالس عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبارة العـدو وإبادته . وتقدمت المقدمة وأقـدمت . وجحمـت نار اقـدامها ومـا احجمت . ومازالت نجوم النصول تنقض . وختوم النحـور تنفض . وعيون العيون ترفض . وديون النحول وحقوق الحقود تقتضي وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغـائب ، وذكباء لها من الذوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السـوابح . وشرب بكاس المنية منها المهج غوابق صوابح . وغبراء اساود نبالها تتواثب عن عقارب القسي . وثعالب لهـاذم صـعادها تتـلاعب في أراقـم السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبـان راياتهـا تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابغها تفيض عليها جـداول القواضب . وغران سوابقها تغيض في غطامط الغياهـب . وارواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضـارية على

الردى جريه . حتى دخل على ليل النقع الليل . وجرى من ديمة الدم السيل . والتفت لما التفت بالخيل الخيل . وأفرج المازق عن قتلى جرى عليها من السوافي النيل . واستشهد من المسلمين بدوي وكردي . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي . وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولامته وقونسه(٥٢) . وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى . وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد أخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواضب يفرين . وطوالع غروب في الطلى يغربن وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء . ويوا فقه القضاء في المضاء.وكل معتقل للرديني اخف الى الوغى من سنانه . وكل مشتمل للمشرفي خضيب الغرار ريانه . وكل ملتم بحثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة . وامتد راجلنا أمامهم . وأثبتوا اقدامهم . وطال القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣) وأعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب ذوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان . والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا انهما لاخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك . صادفت في الاجتياز بها أخاها هذا الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدراما النجاة من تلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فـاكرم السـلطان وفـادتهما . وأجـزل بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس أنه هرب الى صـور . وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقـوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبا قبوله . وانقـطع وصـوله . وكان سبب نفاره . وموجب استشعاره . ان هنفـري كانت زوجتـه ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده . وسـواء في هـذا الميراث . بين الذكور والاناث . فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا الكبرى . فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجتـه الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة. وبقيت هذه زوجـة هنفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهـل الملك لتكون الملكة لك زوجة . ولابد لي من تقويم هذا الامر حتى لاأبقي فيه عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخـذها له عروسـا . وأحضر لنكاحها قسوسا . وقيل انهـا كانت حبلى ولم تخـرج مـن حبـالة الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحـم المشـتغل . وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلمـا جـاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفري والملك العتيق فـانفتح بـذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قـر. وأخـذ معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سـنجار . وقـد سد بسواد عديده النهار . وافاض ببياض حديده الانوار . ومقـدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السـديد . والالمعي اللوذعي . والكميش الكمي . والنقاب الذقي . والعف التقي . وهـو ذو همة في الغزو عالية . وعزمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية مـن الكدر خـالية . وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقبـاله عليه بـأنسه . وسـار بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحـر ممـايلي النيب . وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خـدمة السـلطان مكرما الى جنبه . مقدما على صـحبه . فـأنزله في خيمتـه وخصـه بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعـاء ثـاني جمادى الاخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقـاهرة . بـالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجـي . الذي يسرع الى لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري ذي الزند الوري والسيف الروي وأمثـالهما مـن الممـاليك الناصرية . والمسـاعير الاسدية . أسد العرين . الشم العرانين . الغـر الميامين . وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخـروبة ونزل بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبهـا . فـركب السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامتـه وضـيافته الاسـتعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بآساده في عريسه . مقبـلا بكل فارس من جيشه فارس مـن خيسـه . في غلب كانهـم اجـادل والجياد مراقبها . وخيل كانها الظلماء والترائك كواكبهـا . ونقـع كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبـه . وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه . ثقال مـذاكيه بـاعباء عواليه . كانمـا نهضـت لاذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقـانبه . وتلقـاه من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهـو مـن جملتهـم البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهـو كاسـمه مسعود مجدود ، وتلقاه الامـراء والعـظماء والخـواص والاولياء . وساق على تعبيته . واجـابته دعوة الاسـلام وتلبيتـه الى جـانب البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العـدو بـانه اليه نهض واستنهض ، ولما انفصل السـلطان أخـذه معـه الى خيمتـه

واحضر له اسباب تكرمته . وآنسة بانبساطه . ونظمه مع اصـحابه في سمط سماطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حبـاحبه . وخصـه بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايليق به مـن كل بـاب . وانصرف عنه ونزل علي ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بباسها جـانية . وقـد علمـت الوقائع انها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فمـا نزلت حتى عرضت على العـدو مقـانبها . وابـرزت لعينه قناهـا وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قسـيها . ثـم جـاءت والقيت بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيسـت منه . واسـلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليهـا بآفـاته . واعادت جـــوانبه مهـــدومة .

وذواجزه مهدومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد مـن عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخـلا بـالهم عليه الخلد ، وقـد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بهـا فيالقهـم . ونحـن لا نألوا في الجهاد جهدا ولانترك جدا . ولا نجد من مضايقهم بـكل نوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق راسـه وحلق لحيتـه . واسـتلقى لانتـظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وسـكنوا وسـكتوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب فيثبوا ، وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمـق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمره ، وانسـداد ثغره .

-٦١١٧-

فصل من كتاب الى صاحب الموصل
في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائما في المقام الكريم . وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح . وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح . وشارك في الجهاد وشد الأزر . وسدد الأمر وازر وعضد . وظاهر واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم . واستضرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمرهم . واخذوا فيه نقوبا . وحكموا في الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد اشرف . والعدو بخندقه محتجز . والفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن جثوم الموت عليه في مجثمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر بلطفه . ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه . والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج . ووضح لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين الثلم . ويجلون عنهم بما يشبون من نيران الظبا الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الاصحاب الى الاصحاب . ويكفي هذه النوبة الصعبة فهو كافي النوب الصعاب .

-٦١١٨-

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفت بعدتها المناجده . ووافت بعدتها المنى جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيج . وماجت موج البحار في غدير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . وألمت بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده . واستظهر الاسلام بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختام قتامها . وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه . وابعث امداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكه وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في حصر الثغر ونصب الاته . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب من الضرب . واخذ منه مواضع في النقب . وقد اشفى على خطر عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التواني . ونهوض المسلمين من الاقاصي والاداني . والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فللاعذار اوقات ، ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات . وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذ ايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود نبيه يعرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكتير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا حرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خاليين من مقتضيات المرج . وكلاكما عن عسكره منفرد . ولحديثه في الخلوة مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لايفهم بلساني وانا لا افهم بلسانه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجماته . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعله يرد بسول ويصدر رسولا . فلما لح في الطلب . وألح في الارب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . ودخل وقد أخذ أمانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا ان ملوكهم منعوه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكتير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاع من تأمر الفرنج عليه واحكام . وقال الامور مفوضة الي . وأنا أحكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفاتني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه . وإن دامت بينهم الحرب والمعاداه . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حمله وقبوله . وأخذه من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاة . واستدامة المكافأة للموازاه . فقال عندنا بزاة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعفت فهي طلائح روازح ، ونريد طيرا وجاجا (٥٤)تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها الهدية على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة . واسألك غير

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هـل لكم حديث . فقلنا انتم طلبتونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حـديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سـادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعـه اسـير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واوصـل الى السـلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسـالتهم تسـفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثه . وهؤلاء طلبوا للملك فـاكهة وثلجـا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سـألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسـالات تفتير العـزمات وهـم مشتغلون بموالاة الرمي بالمنجنيقات وتسـوية المنصـوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السـور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعفت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقـوى . كي يثـوى . واهـل المدينة قد كثر تعبهم لكثـرة الذوب ولقلة العـدد والحجـر هـاتك . والسـهر ناهـك . والعمـل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقـه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشـاق متعبـه . والاحـوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنيقـات تنصـب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصـب . فلمـا اشـتد الزحـف . وزاد الضعف . احتـاجوا الى رجـال المنجنيق المقـاتلة . والتناوب على المنازله . وهناك ظهر ان العدد لايقـي ولايفـي . وان القليل لايكف ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجـل دخـول البـدل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتـداء في الاعطـاء جلب في الانتهـاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الاخرة يوم الثلاثاء . بما عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب من خيامهم ماتطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا . وامسى السلطان تلك الليلة ساهدا لم يذق طعاما . ولم يستطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلاقي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخاوف . وكل من الضرب في جبينه شامة . والطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :

في غداة صباحها في حداد

نسجتها ايدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهايته . ولم يبق الا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئا.ولم تنجدوا في الذب عنه سعيا . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولاقوة الا بالله لانملك لانفسنا ضرا ولانفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغرة من تلك الثغر افرنجي . كأنه جني مستشيط نجي . وهو يدافع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقته لجسمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه النشاب

القذفذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصماءها وتدمي . فلم تزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح . وقلة البدل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امنه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ما عاملنا كم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم مماليكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، وأغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه)(التوبه ١٢٣). وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالفرض المطلوب . قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الأمير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل باله . فسواه ماباله . وعمروا بركوسا . ورأوا في هربهم رأيا منكوسا وربحا في دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم الأمر الشاسع . وجاؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فنمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعة . وانهم خرجوا اله وله عن الطاعه . وانهم جبنوا عن بذل الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاءة بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الأمراء المعروفين . وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرتاش بن جاولي . وهو شاب أول ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر . ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل . المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل فلم تعد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم . وعاديا ممقوتين . وبحدود ألسن ألذ م منحوتين . وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته . ووقع بعد ذلك في الاسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الاحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم السور في مواضع الذقب . وعظم الخطب . وا شتدت الحرب وا شفى البلد وا شرف . وا شتفى العدو بما فيه واسرف . ولما لج العدو في الزحف . واستسهل في التطرف الى البلد طريق الحتف . ركبنا في عسكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم . والى مطمحه البعيد من أمره مرتم . ولما عاين اصحابنا بالبلد ماعليه من الخطر . وانهم قد اشفوا على الغرر . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه . وأعمى قلبه فجوره وفسوقه . ولقد خاذوا المسلمين في ثغرهم . وباءوا بوبال غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم . ومـاأرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام . قد استحلوا مر الحمام . وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الأعداء اضعاف أعدادهم . وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا ايديهم في القوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من الذقوب ، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب . ونحن وان كنا للقوم مضايقين وبهم محدقين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين ، فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون انهم ان خرجوا الينا في تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ، والله قدر لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايغالب في حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطاقة في دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس . وحمي الوطيس وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نعيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمعه ، ولرحى الحرب الزبون جعجعة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجيات راعدة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . وذشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان . وصفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في آجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى احجامها . ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاده . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من الذورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن انفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز انوفهم ، ولوصح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، واصبح يوم العسكر الجمعة العاشر، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه اسنته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولأذى مقامه بمقامه ممبط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الافرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد انس الفرنج به لتردده في الرسالات نحوهم في سالف الأزمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من بعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك مالايدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط ٠ فانفذ السلطان الملكين العادل والأفضل . ليفصلا المجمل . ويجملا اذا حزا (٥٥)المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدومه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم . وباشروا الأسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا. حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشـتطروا اعادة جميع البلد . واطـلاق اسـاراهم مـن الاقياد . فبذل لهم تسليم عكا بمـا فيهـا دون مـن فيهـا فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسـير . فلم يقبلوا وسـمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة وسـالت الى ثغـر البلد سـيل الآتـي الى القرار . وطلعـت في السـور المهـدوم . طلوع الأوعال في فـرج الأوعار . وانحدر عليهـم اصـحابنا انحـدار الصـخور المدهدهة ، وفرسوهم فرس الأساد المحرجة المكرهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صـد ، ومـازالت الكرات تتناوب والحمـلات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخـرج سـيف الدين علي بـن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسـليم البلد ومـائتي الفـ دينار وألف دينار للمركيس وأربعة الاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفـرنجية على عكا مـركوزه ، وأعطـاف أعلامهـم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وماأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضـاء وعز العـزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء ، ونسب السـلطان ذلك بعـد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثـار في ديار بـكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتـج تـأخر نصف العساكر فـوات الغـرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصدونه ، وماكان يضبطه السلطان الى هـذه الغـاية او لم يكن الله في عونه ، ونقـل الثقـل تلك الليلة الى منزله الأول بشـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة متلهفا على ماتم ، ثم انتقـل سـحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صـابرا على حـكم القضـاء المبرم ، وحضرنا عنده وهـو مغتـم ، وبـالتدبير للمسـتقبل مهتم ، فعزيناه وسليناه ، وقلنا هـذه بلدة ممـا فتحـه الله وقـد استعادهـا عداه ، وقلت له ان ذهبـت مـدينة فمـا ذهـب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشتها بعد الحـادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعـة مـن بقـاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسـولا ندبـه بهاء الدين قراقوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة الفظيعة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسـارى وصـليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وان تـأخر شيء مـن ذلك بقينا تحـت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الأكابر وفاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسـلمون ، فتقبـل السـلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفـرنج على عكا هـذه الرسـالة وسيرت بها كتبا

قد عرف أمر عكا وأن العـدو قصـدها ورصـدها ونزلهـا ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليهـا بـكلكلة . وحفـل عندهـا بجحفلة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحـر نحـوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمـدادها بحـارا . وبـرد الماء

بأهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارا . وتصل مراكبهم كأنها الاعلام السود . والامواج ناشرة بيض اعلامها، مالئة جبالها بأكامها . مازجة اصباحها باظلامها .
وتتنافس ملوكهم البـاغية . وطواغيتهم الطاغية . في الورود بنفوسها ونفائسها . والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها . مستخرجة ضمائر خزائنها . مستفرغة ذخائر مكامنها . موضعة ظعائن ضغائنها . مستبضعة متاع متاعها . مسرعة الى معاطن معاطيها . وترد بقناطير أموالها، وجماهير رجالها . ومساعير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقاتلون أبراجها بالابراج . ويسومون جدتها بالانهاج . ويرومون علاج كرامها بمراماة الاعلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افواه خنادقها أحجارا . ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال . ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا، ويدبون اليها المضايقة خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلاق . كانه حامل على الطلق . لاتلد إلا أمات الدواهي . ولاتدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهي .
ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفا . حتى يعود نافرهم للمنون ألوفا . وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه المدة . سوى من هلك بالضائقة والشدة . خمسين ألفا قولا لايتسمح فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هذه السنة .
والحالة في تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث . وتحدثوا في الحادث . وثاروا للثأر . وزاروا بالزار . وانبرى ملكا افرنسيس وانكتير . وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاؤوا في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحر منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول . وحملوا فيها الخيالة والخيول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطسة كأنها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجوم

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر مـن البـر والبحـــر . واحـــاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منهـا الأسـوار بـالأسوار . والظلماء بالادوار . ومنعت الداخل والخـارج . وسـدت على ناقـل الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهـج . وزاحفـوه بـكل منجيق كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابـة الارض التـي تقـوم عندها القيامة . وكل سلم لاترجي معـه العـلامة . وكل آلة آلت إن الفتح منها بالحتف . وأقسمت أنها تقسـم سـهام سـهامها لذوي الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جـانبنا وعمـق . وسـور وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقـه . وتسـتر عن طـوارق البـلاء بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولايدخل إليه لضيق مسالكه . وهـو متحـر متحـرس . متسـتر متتـرس . عاص على الهجم . عاس على العجم . لايقتحم سده . ولايندثلم حده . ولم تـزل الحالة تتمادى والواقعة وليدهـا لاينادى . والمدى يتـطاول . والمدد يتواصل . والقضية تتـرامى . والرمية تتقـاضى . ومقـاتلة الثغـر صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون(٥٦) . فمـن مسـتشهد عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القـرح . ومـن دام بـالجرح رام عنه . ومن نازع في القوس نازع منه ، ومن متعرض للمـوت خـوف عار عارض . ومن ناه عن السـلم آمر بالحرب ناهض . ومـن ندب فيه ندوب . ومن ضرب فيه مـن أثـر الضرب ضروب . حتـى ضـج الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هـذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظـل المصـابرة يقلص . والعـدم يتمكن من الوجود . والقيام للاثخـان في زي القعـود . وكاد البقـاء يودع البـاقين . والمذون تـلاقي الملاقين . فلم يشـعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تـاخر وتسـتر. واسـتشعر الذعر فتعـذر وتحذر . واستبدل الجبن من الشـجاعة . واسـتملى العجـز مـن الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظـن إنه لانجـاح له في العزيمة . ولا نجاة له إلا في الهزيمة . وجنب أمثـاله مـن الجبناء . وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فـأضعف قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثـابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم . ومابرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة وملافحة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على الخنادق التي طمت . ورمي في خروقها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلامة إلى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالذقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت مرابيه . وكثرت ندوب نقوبة . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو بالسوء الى السور . وطرق الظلامةالى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالذقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبه . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو في النقب فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقي الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل النقابون يوسعون ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعانقت الاسياف فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان وأصحابنا لايهولهم الهائل ولايميلهم ألى الحذار الجدار المائل . ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو نثروه . واذا نهضوا له اقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدروه . واذا بادر اليهم بدروه وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا . ومازالوا يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع . ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بألسنة المناصل .

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفاح . ويتماشون بمراح الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن الستائر الى الستور . ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح . ومن المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائح . ورذايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي القاسية . ورشفتهم الظبا الظامية . ولاينهض قويهم من الكلول ولايفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت من اسوارها . وأزدحم العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي الواغل . أن القوم مستقلون والموت مستقبلون . وأنه لاطاقة له بمقاومتهم . ولاقوام له بطاقتهم . وأنهم لايسلمون وهم يسلمون ولايبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا . وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولامرد لما فيه الله من المراد . ولامدفع لحكمه في البلاد والعباد . وأن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما غاب المعين . وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الديجور فلابد أن يسفر عن الصبح الدجى . ولايشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم السرى .

فصل من كتاب
الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هـذه السـنة مـن مـدد ملوكه . وكثر على نهـار الاسـلام بـاظلام ليل الكفـر وحلوكه . فالاسلام ينشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمتـه مـن ابـن نوره نوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجـري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد الرد عنهـا مـكايد العداة في نحرها . قد تمكن منهـا الكفـر على كره مـن الاسـلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مغصوبة بعـد ان كانت عارية مـن الكفر مردودة . واذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهمـاله . وأخيذة إغفـاله . وحـاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقـق الحـاجة اليها متغاضيا . ومابقي للفرنج مع اسـتيلائها على الموضـع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صـدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل دينه بالنصر . والمردي بمـكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هـو زمان استنجاح المنى . فـان العدو الخادر قد آن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين مـن إربـل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العـدو الكافـر . والطـاغية الحـاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من الكفـر في البـلاد والجـزائر . وماقصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هـو الذي تـكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنج ممن بعكا ومنا بين الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخرناه وعطلناه . وكلما ركبوا برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه .وكلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولالكيدهم مجال ، ولم يتسق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين الف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهم بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم في نهج القتال سالكون ، وهم حطب نار الحرب ، وطعم الطعن والضرب ، وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة ، وحصلوا تحت العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدرة ، ولما دخلت هذه السنة اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد ، وقلنا هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ماكان في وسعهم من الاجتهاد ، ورأينا أن نجدد للبلد البدل . وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه أكثر من عشرة الاف رجل ، ومن كل نمر مشيح وكمي بطل . فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بذلك الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبه ، وحمى جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع لهام ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام ، وباس واقدام . وناس واقوام ، وحشد ملأت به سفنها، وأخلت منه مدتها . ووصل ملكا افرنسيس وانكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما ورجلهما ، واناخا بكلاكل كلهما ، وبركا بثقلهما ، وزحفا بجهدهما وجهلهما ، ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة هائلة ، ودبابة للبلايا حاملة ، ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد ، واهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والثلم . وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان نقابي الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون ، ناكبون كابتون ، قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراخاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام . وتلفعوا من وقع بيضها بحمر اللثام ، ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم ، وهم يواقعون ويواقحون . ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله ، فخانهم بعض الأمراء الجبناء . وأخذ للحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى البلاء . وحسب النجاة في النجاء ، وهرب في بركوس قد اعده لذلك اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم ، واستصحب أمثاله . واستتبع وأبعد في فراره وأبدع ، وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأمطى أفاعي الكفر في نهش الراقين . على أن الأصحاب ماأنذوا بالأصحاب . ولم يقابلوا الضراب بالأضراب . ومازالوا يواصلون بالقواطع ، ولايرتاعون للروائع ، ولايريمون مقام المقامع . ويطالبون من الأرواح بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعة فظيعة . كل منة لها غير مستطيعة . ولولا ماإتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم تكن عكا بالممكنة للعدو ولاالمذعنة ، وأن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب . وان ملكت واحتلت فما اختل الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السلك ، وانما نبه الله بها العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . ونوسعهم الردى في مضايقهم ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . ونكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما بـرز الا مـن واراه من بطون الخوامع رمسـه ، فهـم مقيمـون لايريمـون مخيمهم . ولايرومون ان يهجروا مجثمهم ، ومـاأنسوا بمـرابض المضارب . الا لذفرتهم من مضـارب القـواضب ، وهـم مـع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصـاف ، وآونة بـالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعتـرضهم اين واجهـوا وذواجهـم أين اعتـرضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهـم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعـوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمذون له بـارزة . والعـزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهـر الكفـر يرتمـي وينتمي . ويصل بجمعه الهام الملتهم . وبجمـره المحتـد المحتدم . وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السـابك في نار الوغى سـبائك الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شـك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعـود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخـرج حـكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ماصرف الله قلمـي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وتـرحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمي وكلامي . وعرف شـيم مخـايل الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمـري .

وماجراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه . وماضيع احسانه . وهو للفقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا . وماعرف الا بعرف . فما صرف الا عن صرف . وما سفارته الا في نجح . وماا سفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة وامينها . ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد امدادها . وبسداده الثغور سدادها . ودواته دواء المعضلات . وبعقده حل المشكلات . وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطة قط هوادي القطوب . وببريه برء الامراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي الامجاد للانجاد ، وبحركته سكون الدهماء . وببركته ركون الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من لايعينه . فخفت على عكا من وقوف قلمي عنها . وكان قد الهمني الله فانه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة . والعارفة الطريفه .

ذكر ماجرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها العسكر . فضرب الكوس السلطاني . فثار المعشر وقام المحشر وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتعير الشمس من نسج حافرها نقابها . في غلب كالقواضب .يروون القواضب . وطوالع من الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حماة الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق وانهزم الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعللا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا ثم وثبوا . واسعروا نار الحديد والهبوا . ونظموهم بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت سيوفهم بالاعناق والطلى . وحلت من حياة العدا الحبا . ودخل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثيرهم وآثار عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة المستأسرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صار الى صور ورتب الدوك نائبه وولاه الأمور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه ورضي بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراءه رسولا بتحف تليق به . يستخرج ضمائره فيما هو من اربه . ونقل خيمته يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التل الذي كان عليه نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلى الذي اخلاه عاطلا . ومازالت الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى احضر مائة الف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلبوت . ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجل المضروب والوقت الموقوت . ووقع الخلاف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان اسلمه اليكم على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل الرهن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع . والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم . فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا خلاص أصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في الحال ، بصليب الصلبوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهي التـرم الاول . وجـاء الرسـل وابصروا الأسارى حضـورا . والمال مـوزونا مـوفورا . وظنوا ان صـليب الصلبوت قد ارسـل الى دار الخـلافة فليس له وجـود . فسـألوا احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقـروا بـه شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون ، وان الاداء بخـلاص اسارانا مرهون . وظهرت علامـات مـكرهم . ولاحـت امـارات غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخـرج الفـرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخـرج ملك الانكتير الى خيمته . ومعه خلق من خيالته ورجالته .

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخونين بعكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجـب ركبـت الفـرنجية بـأسرها وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجحفلها وحفلها . وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية ودل كيسان . ونفـذ اليزك وأخبر السلطان . وركبت العسـاكر نحـوها متسـابقة متلاحقة . وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا اسارى المسلمين . وفي الحبـال واقفين . وحملوا عليهـم وقتلوهـم بأجمعهم . والقوهم على مصرعهـم . فحمـل عليهـم العسـكر وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسـع فيهم خرقا واستشهد منا كردي حميدي وبـدوي . وكلاهمـا مـن الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلمـا انصرف العدو الى خيامـه ، وركد الروع بخـار قتـامه . شـوهد المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسـوا مـن حلل الجنان التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم . ووصفوا في سبيل الله مواقفهم . وما اكرمهم رجالا . واحسـنهم في الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر الوفاء . تصرفـ السـلطان في ذلك المال . وبسـط فيه يد الغـوال . واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربـابها . وتـرجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد الحاجة اليهم . فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصابوت الى الخزانة . لا للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا الصليب شديد . والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا ولاصادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل للسلطان . ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبابه . واجتمع بناديه لاجالة قداح الرأي أصحابه . وسح سحابه وصح حسابه . وحكم فأحكم . ويري فابرم . واستشار وأشار . واستثار وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كمونه. وغرته عكا فطمع في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته باديه . وثوراته عاديه . ونكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه . واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى مواجهته . واغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته . والان الان الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى السعه . وابرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب . فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتئيا . ويقصد الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق اما اجام وغياض غاقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكثبه . وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعته

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر . وامير من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها من المخارج والموالج . وكشف المواضع التي يلقى فيها العدو . ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا ينقضان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . ونتخذها لمبار المرام مبارك . ولمدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على اماكن ومكامن . ومواطىء ومواطن . ووقع الاجماع على الاجماع على اللقاء والقراع . في مذاهب تعينت . ومسارب تبينت . وسهول عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفرنج اذا ساروا سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجد في اعترائهم واعتراضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا القاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران . واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطة بالصهيل . والارض مضطربه والسماء محتجبه . والقباب تقوض . والعياب تنفض . والجعاب تنثل . والهضاب تنتقل والذئاب تعسل . والزغف تفاض ،(٥٨) والحتف يخاض . والخيل تسرح . والسيل يمرج . وذوائب الذوابل تنتشر . واذيات الذوائب تكشر . ولواء اللاواء يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخفق . والبوارق تأتلق . والدو دو . والجو جو . والحديد تبوج والعديد تموج . وقد ثارت الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجت الضوضاء . وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السلطان تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فرعدت كوساته . وغردت بوقاته . وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت ذيوله . واصطحبت خيوله . وبرقت لوامعه . واشرفت طوالعه . ومضت عزائمه . ومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مطار مطارده . وتألقت الخرصان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردالضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوابح يموج على شكائمها اللعاب .
وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب .
مشتعل القواضب . وقب معقودة السبائب . مقودة الجنائب .
معصوبة الهوادي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب
ملوثة البرود بالقضب . وترك كالاقمار في هالات التروك . ومماليك
في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق قد خلقوا
للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العراب . هضاب على
هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقباب اليلب
مستعصمين . في مسرودة الحلق . مسدودة الحدق . تقهقر عنها
اللهاذم . وتقهقه اذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو
ولايصاب . ويعيب الاقران ولايعاب . من كل ناصر للحق على ضامر
للسبق . خارق للنقع راقع للخرق . فاتق راتق للفتق . معنق الى
الضرب ضارب للعنق . وفيلق همه فلق الهام . وجحفل ملتهم
للجحفل اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رحب الباع .
خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض
السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواخر. فزرأت القساور.
وأزهرت الزواهر. وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير .
وأشبه سهك الماذي بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك
الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم
المحفل • فوقف لهم وقفا أثرهم وألهبهم بنيران النصال .
وأسعرهم . وقطع طريقهم • وقصد تفريقهم • وسطا على
أوساطهم ، ونادى بايراء زناد إيراطهم فانقطعت أواخرهم عن
أوائلهم وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الأجل •
وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم
ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل ، وأوقد نارا على
اهلها مشعلة . وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله .
وذفذ الى والده يستنجده . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت
بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا. ومتى تتفق مثل هذه الفرصة لو ارى لي

مساعدا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهــو متحقق أنه لو ساعده القــدر بــالقدرة لمرى در النصر على مــراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثــم قيل للسلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبــطأوا عن الاصراخ . فآذن روح الفــرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عاديا بحماته . فحمــى بمدده امداده .

والملك الأفضل قد بذل وسعه . واوضح في الجد بشرعه . وقتل من وصـــــــــــــــــــــــلت اليه يده ولقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهــف على ما فاته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقــد انهــاض بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتــح لارتجــائه رتــاج النجــاح في النصر . ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خــواص الامــراء والممالك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك . واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتــر . وانه لو اتصــل بهــم مدد . لم يبق من الأعداء أحد. ونزلنا تلك الليلة بــالقيمون في الوقــت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخافـ فيها من العدو الغاره . علم الدين سليمان وحســام الدين بشــاره . ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لهــا الصــباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاســاود . وامــر الســلطان المشــورة بحضور أوليائه وأمرائه . الأماجد الأجاود . والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جــريحهم . ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب الســلطان الى الملاحة وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف مــا حــولها بــالحوم . وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل يا بالية

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بارض الا احيا ماحلا . ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاستراحة . وأقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الاذكار الى ثواقب ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحة رممهم . واخبره بعض الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهلكت بين عكا وحيفا اربعمائة فرس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو انكم كبستم كسبتم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن حتفه بظلافه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم الى البوار . ووافد اهل النار الى النار . ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا في عراضهم لاعتراضهم . وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم قطعوا ساقه العدو عن اللحاق بمقدمته • وفلوا عن الحدة في الحركة حد عزمته • وقتلوا خيلا وخيالة • وفوارس ورجاله • وقدروا وتمكنوا • وجرحوا فأثخنوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا قطعوها • ووقذوا نفوسا قلعوها . وغنموا أقمشة وأسلحة •

وحصدوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهـر حيفـا
وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في فلهم السيف . فـأقاموا إلى هـذه
الغاية لمداواة جريحهم ومـواراة طـريحهم • وإراحـة طليحهـم •
وإثارة ماركد من ريحهم • وقـد رحلنا وسـبقناهم الى طـريقهم •
عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم •
فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهـم ، والله يجمـع
شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة •
ولأعدائنا مـن عبـطة • الا ونبـادر ببشراه الى المجلس لتقـوى في
نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في مواقفنا شـيمته وتـروض
مواحل الامال مع اوان الديمة الربيعية ديمته ، ويغلو في سوق رواجه
من الدين ماظن أنه رخصت قيمتـه-وكيف لايأخـذ ذلك الكريم بثـار
الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، واذا تـأمل عرف أن الخـطب
عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعـد
المقيم وسيقتضي دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء مـن اخبـر بـرحيل الفـرنج
السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحـة الجـرد طـائرون
وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهم في جمع لهام . وقـد انقسـموا
ثلاثة أقسام كل قسـم راجله بخيله محفـوظ . وبـأعين القسـمين
الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقـدم مـن الليل
بركوب الخيل . فركب في كل خواض للغمرات . فياض بـالعزمات ،
رواض الجامحات نهاض بالجانحات ملتثم مع اللثم بالذقع والدجى ،
ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم
بجمرة الظبـا ، على نزائع يذقلن الردى على صـهواتها وصـواهل
يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظـلام بجهـاتها . وبـارين
الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلائها ، وفيهم من
رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المذون على سابق ، وكل تـائق

إلى المازق مازق • وكل طائر في الغبــار على ســابح • وكل غابــق بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقــاق متخــطيه إلى الرقاب ، وسار العــدو وسرنا نبــريه ونبـــاريه ، ونجتـــري عليه ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي • وتصــمم وتصــمي ، وطيور السهام تقصد من الاحداق اوكارهـــا • والأوتــار تنشــد بــالارنان اوتارها • وهم في لباس حديد سد على السهام المنافــذ • واشــتك الذشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهـهــا غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحــدودها . فحــلأناهـم عنها . وأبعدناهم منها . وكان الحزم تــركهم حتــى يخــرجوا الى الفضاء . فيدخلوا من تمكننا منهم تحت القضاء . لكنهــم ارتــابوا وارتاعوا . وطلبوا النزول بهــا فمــا اســتطاعوا . فــانحرفوا الى الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجــل . واجتمعــوا ســارين . وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزهم ونهزمهم ونحفــزهم ونحــزهم . حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتثلمت الصــفاح . وتحــطمت الرماح . واجرت الأنهار الجــراح . وجــرى بــالأرواح الســماح . وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا يرجون . وما كادوا ينجــون . ولما نزلت بهــم في مســيرهم الذوازل نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطــاعن الضارب . الباسل الســالب . الغضــنفر الهــرماس . الفـــارس الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدم اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اســمع متنصــت . ولعطاس النقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلفــت . ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لايروعة الروع اذا حفزته عزمتــه . ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصفين على صافنه . ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه الى مقاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه . فما برز اليه الا من برزت اليه مذونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف للكفر كفها . وبكر للعنصر زفها . واذف للشرك جدعه . وذي انف للفتك صرعه . ولبه للغضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلية للمتقشمر طنت فيها انيه صفاحه . واجفان للاقران ذبتت فيها أهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل ما أجل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه خانه.وما صانه.فعثر به في حالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لذقل الحديد القيام وطعن وضرب وأتاه من الكوثر سلسبيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في اسفله ، وتقاربت مابيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما اصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتظر مايكون من خبر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحاتهم ، وكذلك ماملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم في ساقة اليزك ، مستيقظا للحفظ والدرك ، فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، كبوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شدة ، واسر ثلاثة ، قبل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاحداق به من أمامه وورائه وأقام يوم الأربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الأول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان في اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتموهم واصطلحتم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : ما الذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسالك الأسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكالمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هنفري بن هنفري ، فلما سمع ملك الانكتير ماراعه ، ما استطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ماجرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الأصحاب ، واستحضر من أسد غابة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيل الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما اسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معتقل افعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على أدهم ، فأحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت بذسور ضوامرها الأرض الى السماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . الترك على الأكاديش ، وأحدقت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت بيضها لمعانقة الأعناق ، ولمع شرار النصال في دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج ، فإن الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعانقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الاسباب ، وقربوا من ارسوف ، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف ، وضاق خناقهم ، وحاق بهم ارهاقهم ، ونشبت الجاليشية فيهم بالذشاب ، وشبت نيران المرهفة في أولئك الاوشاب ، فاحتملوا في جلودهم الجرح ، ومن اجلادهم الطرح ، ووجدوا الموت الغالي مسترخصا ، وايقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا ، وعرفوا ان البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق ما لقوه من النكاية غير محتملة ، فحملوا على الاطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلئها شوارع القنطاريات عن مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت من وجوه النصر بالصفور ، واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الاسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرماح اشرعوا ، ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة اردتهم وردتهم ، وصدفتهم عن الاستنان في جدد تلك الحملة وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس ، وفرشت بالعراء لهم أشلاء ، واثخذوهم طعانا ورماءا . فنزلوا في ارسوف وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اسد العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع . وثبت عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمي في موضعه الاول ، وكانت العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشبة ، فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبر ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء ، واقام العدو يوم الأحد في موضعه ، منكوبا بتعب تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بها ورطه ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالنوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا.

- ٦١٥١ -

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل مـــن عكا

وسلكوا في مواضع ماليزك عليهم فيها سبيل. ولا لقداح القراع في مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومـــن المورد الى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة مابين المنهلين ، واذا لزوا لم يبعـــدوا بين المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعـــه ، وفي كل مـــرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازله ، وأوردناهـــم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم الحمـــام في كل سبيل ، وسار صباحهم منا في كل مغـــدي ومقيل ، وطـــريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال ، وكلما وجدنا فسحة ضـــايقناهم ، وأرهقنا حـــدود العزائم والصوارم وارهقناهم ، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفـــر فيها يبور . ودائرة الســـوء على اهله بنا تـــدير ، ومـــاء اهـــل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخـــر مـــوعده في نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شـــغلهم ، وشـــملت نعمته لنا بتبديد شـــملهم ، فمنهـــا يوم رحيلهـــم عن عكا ارهقتهـــم اليزكية الزكيه ، ونكأت فيهـــا منهـــم الرمية بـــل المنيه ، وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك .فتولى اسعار لهب المعترك .ووقف لهم في المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخـــرهم عن اولهم. وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتـــر وبتـــك ، وفتـــك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهـــر حيفـــا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عســـكرنا وقـــد تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعور عن السهول . ولم يبق اليهـــم

نهج للوصول ، واقام الفرنج في تلك المنزلة اياما ، وقد نالت معاطسهم ارغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، وأحكموا التدبير ، واستأذنوا المسير ، ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأذنت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولمن تزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فاذا نزلوا بالمنازلة ، ارتزوا الى المنزلة ، ولاذوا وهم اهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعاديهم شاكين في منهتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم النشاب واعجزهم وازعجهم وأحرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم ، كابروا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الأطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعدوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طلبه ، وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية ، والأنف والأبية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في الذوبة من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمه من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلفه وتلافى ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى باسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها ورابطهم بالأسود في عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرمله ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحله ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امر ان الخيام به تبنى ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس التيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الأمر .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلدين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل ذخائره ، من كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وتقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنبا متجبنا. وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فندخلها اتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذ يوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خلل ، ولا الى يدها شلل ، ولا الى حدها فلل ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفتها واستحسنها واستلطفها ، ورأيت سورها قبل فصم سواره . ونورها قبل نيول نواره ، فما رأيت احسن منها ولااحصن . ولااحكم من مكانها ولاامكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاوطار والاوطان . وساءت اسواؤها .
ونأت انواؤها . واناخت لاواؤها . وباخت اضواؤها . وسمع غناء
المعاول في مغانيها المعوله . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة .
وناحت تلك النواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف .
واخافتها المخاوف . وذكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف .
ونعتها النواعب . ونابتها النوائب . ونزلتها النوازال . وغالتها
الغوائل . وسفتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها
من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوه . وصوحت
مجاني مبانيها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها .
وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طلولها واستوقفت . وأسيت
عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت .
ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع . وأهديت
لسقياها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه
لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من سكانها .
وتخلف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني
شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر
ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله . وتفضيل جميله
باد على التفصيل والجمله . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد .
وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم
الخميس . واعاد اليه رسم التأنيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن
شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبة . وقد نال بما رتبه من
مصالح القدس المثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد
اكمل من كل ماراه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان
وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئا
من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقاه الملك العادل . وجاءت منه
الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جدة .
وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضافرة . فانه
تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خيالته متنكرا . ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقذ . والطعن في لبته ينفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به واسره . وافلت اللعين وأخفى أثره . وقتل واسر من خيالته جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون . وهي قلعة منيعة معجبة الظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وفل غربها وثلمها . واشاع بها الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولامربع . ولا شتا ولاصاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف . وتحلحلت به الصفوف . وتمخضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . واما النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدها الجهاد . وانضاها الطراد . وفرى جلودها الجلاد . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنفر من رنة الحنيه . وانة المبرية . كأن عندها للاوتار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاريها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من الذفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما النشاب فانه قد فني . بعد ان اتخذ من اخشابه جميع ماوجد واقتني . وقد عدمت اشجاره في منابتها . واعوزت اخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائن . وانفضت منه ومن كل مايذخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومايجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشون . وينصلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال . وحسبها ان نصولها اعدمت من حديدها المعادن . وخلت من نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده . مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . ومااستمر على مساعدته . وموازرته ومعاقدته . الا صاحب الموصل وسنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ماجار . فهو يحضر تاره بنفسه وآونة بولده . ويستمر من جد الموازرة على جدده . ويواظب بعدده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة في المواصله

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاه . والمواتاة في الموافاه . وموالاة الاستمرار على الموالاة . والاخذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظاهره . بالمصاهره . وترددت

الرسل اياما . وقصد التئاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير . وان يعول عليها من الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري فيها الامر على السداد . وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها»

وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولايمكنهم من الحصون التي في الذرا . ولايقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد . وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب. وما اخر الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الفرض وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل امر الوصلة . وازاحة الجملة. وازاحة العلة . واعتقدنا ان هذا امر قد تم . ونشر انضم . وصلاح عم وصلح أذم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع ينقضي بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع النشر . وذاع السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجبهوها بالعذل والذع . ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئننا بافجع ملم مؤلم . وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما تعسر . وان ابى ابيناه . وان اتى اتيناه . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحـن لاختلاف الدين ندين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ماطلبت . وسلت بعد ماسألت . ونزت بعد مانزلت . وكرهت وكانت شرهت . وكانت اكتحلت فودت انها مرهت ، فأرسلت الى الرسول واقبلت عليه القبول . ثم تصلبت في القسم بالصليب . انها مجيبة الى التقرير والتقريب . وانها مسارعة الى التكمين . لكن بشرط الموافقة في الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتظام العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير. وصغير بصغير . وبشر اولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير . وعطل التقدير . وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى سارت اليهم بكره . واحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بساط نشاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه بتقريبه وتمكينه . ويليه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصل . ولسمو منزلته دنو المنزل . وعلاء الدين ابن اتابك الموصل عن يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره . ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلته منافس . ثم تفرق الناس بانس جامع . وعرف شائع . وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرمله ليقرب من العدو ومواقعته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقد اركب العسكر

للقتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حالي الجملة . خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا عليهم . وقربوا من خيامهم . وأخذوا عليهم من ورائهم وامامهم . وناشبوهم بالذشاب . وكاثروهم بالأوباش والأوشاب . فركب الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايديهم . فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة . وكانت مساعاتهم الى السعادة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان مايخلو من وقعه . ولابد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وامذوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم اعراب على عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحاب . فركبت اليها من الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت العرب امامها . وحققت انهزامها . وماقدرت على قصدموضع الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانين دون العرين . فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم ذشبوا بردهم عن وردهم . وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم اياز المهراني . وجاولي الغيدي، وصارو . وسروا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسان معروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخيل تقاد اليه . والاسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس . وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لاجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما الحادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقة اظهراها ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف بالصنيعة ليتفقد الأساري الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المركيس . وانه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى المركيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكلما ابرم عهدا نقضه ونكثه . وكلما قوم امرا عكسه وعاثه . وكلما قال قولا رجع عنه . وكلما استودع سرا لم يصنه . وكلما قلنا يفي خان ، واذا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحد سابع عشر عاد السلطان الى المخيم بالنطرون . وأقام على الثبات والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

ارسلان صاحب ملطيه مودعا وركب السلطان وسارمعه مشيعا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصداق مائة الف دينار . ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار . واستبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذي القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها . وخيموا في اقطارها وسهوبها . ولم نشك في انهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام السلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منها زوايا ، ولنا في كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالت الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحلت الأوعار . فعزم على الرحيل ، وامر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبل العصر . وقد نشر السلطان لواء النصر . ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامه . ونوى بها الاقامة . وشرع في تحصين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجةفي قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وآذن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم

الظنون وتزايل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة . تم على العدو بها صرعه . فان السـلطان نفـذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصبحوا الا حصنهم المجذوبة . فـوقعوا على سرية الفـرنج فـاستأصلوها . واسروهـا وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعـى كريمـه . وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه مـن العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقـدميهم سـتة واسر اربعـة . وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسـنة على الحسـنة غير ان العيد بـالقدس كان يوم الأحـد ، فلم ير ليلة الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص . وصلى الناس في القبـة العيد حـواليها العـراص ، ثـم انصرف السلطان وقد بر عمله . ودر امله ، ووفر اجـره . واسـفر فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجـة أغار على طـريق الفـرنج بـالرملة سـيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهمـا يجـد في الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم وامـوالا . وسـاقا خيلا وبغـالا . وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا بين يدي السـلطان على ركب الذل جـاثين . وتـوالى على الفـرنج النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهـم الحروب . وزادت الكروب وضاقت عليهـم الارض . واسـتولى على

عقود عزائمهم النقض ، ورأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا . ورحلوا الى الرملة عائدين . وبالسهول من الحزون عائدين ، فان الثلوج دامت على اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضح في النصر من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في الصخر . وقد سفرهم بنفقة . وجعلهم من الاحسان على ثقة . واصحبهم بعض حجابه . ونداهم بندى سحابة . وسير مع المندوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهدهم في كل يوم بتفقد بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سوروثيق وأحضر من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب . بناها بالاحجار الكبار الثقال ، فجاءت ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبه للقدس المعمور . كان آمنا من قصد العدو المدحور . وفي عصمة الله من المخوف المحذور.وقسم بناء السور في مواضعة على اولاده واخيه الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه . ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

بذفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلماني واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستنجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيوش المترادفة المترافدة . والجنود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهاطلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الأرواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستوحشا من ابطائه . متعطشا الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضي الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماردين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوذ على جميع مابها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في ديار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدأ به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر . وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبته ، وهبت روعته . ودبت الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره . وارتجت تلك الآجام من زأره . وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد ببلائه . وهابت الأعداء هبة اعدائه . وزلت الأقدام لاقدامه ، وانخفضت الاعلام لاعلاء اعلامه . ذفي عدله من جبل جور جبلة الجور ، وأنهب بنهابه اليها فوران الفتنة على الفور ، ودخل قلب قلب ، وحكم في عداتها الغلب القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان وأطلق من أسره ، ففار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق باذن الشذف شذفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمته أمته ، وماأرجأ له نجح رجائه رجاله ، وماأبطأ له عن اعانته أبطاله ، وأجناه ثمر الطاعة أجناده ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجاده ، وجر عسكرا مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بترا ، وصواهل ضمرا ، وانهض كمته وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، وذسوره وبغاثه ، وسمانه وغثاثه ، ومتانه ورثاثه ، وشباعه وغراثة ، وجاء في سواد اسود منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر وتصعد ، وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الاعلام بالأعلام ، وأذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديها قد ملأت الوهاد ، وأدنى الى الآساد الآساد ، وأغرى بالجلاد الأجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع المراح رماحه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران دروعه ، وهاجت غران جموعه ، ومالت المران ، وجالت الاقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعرت السهول ، وانقض القضاء،وانفض الفضاء،واشتكت الأرض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تـألها على شرط تظلمهـا الى السماء نقعا ، وحثت في وجه الفلك ترابا ، وحثت الأتراب الأتـراب طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خـادره ، وانتشـار بوادره ° وانتهاض قوادمه ، وارتـكاض صـلادمه ، وانقضـاض شهب قواضبه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصـطفاه من الأنجـاد الأنجـاب ، وفض على الفضـاء سـحاب الصحاب ، وبسـط على البسـيطة رداء الردى ، وأعدى بعدوه على العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل لحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سـالب مـن كبـاش الاقـران القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون ، وكل شجاع اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع، وكل طائر بأجنحه السوابق ، زائر بـأسلحه البـوائق ، محلق بخـوافي الخوانق ، مطرق لطوارىء الطوارق ، وكل ذمـر مشـيح بـالذمار شحيح ، وكل قاس قـوسه عاطـف ، وكل راع نصـله راعف، وكل صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامـق ، وأيد رجاء الرجـال بـأياديه ، وقـوى عزائم اوليائه لأضـعاف أعاديه ، ورغب بـالرغائب واملى ضـيوف الآمـال بفيوض أمـواه المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشتمل ابيض يكشف ظلم الحـروب ، وكل مـن يخـال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ، وكل مـن ينال اعتـزاز الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصـل بها اذا فـارقت اغمـادها المرافـق ، وكل مـن عنانه في يمين الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل مـن ذبـال سـمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضـطرب ، ووجـوه صـوارمه تبـكي وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسـيه ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتـدمي ، وكل اشـعث الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيظمي ° أباء حمي ° مجرب محـرب ° مقـرب على مقـرب ° مـظهر على

مطهم • جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حليم تحمد في الوغى جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صهلاته ، وكل بحر مستلئم بغدير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لابس حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط وذلوا استدرك الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى هزيما ، واوى هشيما ، وأغنم العسكر التقوي سلاحه وخيله ، وجر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر بالملك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا، واصحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح مقفلها. وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها الأمداد ، واروى فيها من عزائمه الزناد ، وجاءته عساكر أرزن الروم منجدة من جده ، موجدة لما لها من موجدة ، تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق ، وكأنها في الأهبة والأبهة من ملوك سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجذون، ووافقته السعود ، وخافته في غاباتها الأسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت ، واستدنته الممالك القاصية ، وأطاعته المقاصد العاصية ، وتشذفت له مسامع الأقطار بافراط السمع والطاعة ، وعم الأمحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله مجاعة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلأت الطرق بالوفود والجذود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينا هو في غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني وزيادة الأمل ، عن زيارة الأجل ونزل المنى عن نوازل المذون ، وسكن الاتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقرض

عهـده وانقضى ، وكتـم ولده الملك المنصـور ناصر الدين محمـد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده بإظهار شعاره قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول ما منه فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الأمر على أيثاره. وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فياله من حسام أغمد ، وهمام ألحد ، وركن وهن.وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصبح كسف.وبدر خسف.لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل امه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ماشرعه ، وقد سبق في الكرماء ماذكره ، وذكر في المكارم سيفه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لجني النصر مشهورة ، فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وفله ، ومازال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

الثرى بحق خلقه معـه فـاسترهنه، وغارت عليه الأرض بـانطلاق سموه ، الى السماء فـاعتقلته ، ووجـدته في اوج الفلك في النيرات فنقلته ، ومـاكان ازكاه واذكاه ، واصـحه واصـحاه ،وابهجـه وابهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شفيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصيب بعد ماأصاب.وجواد بلا حسـاب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسـلطان الى الأنس به مستنيما ، فعرض له مرض اسـتأذن لأجله في العـود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ماطلب ، وتـوجه مـن القدس سادس عشر ذي الحجة ، واسـتقام على المحجـة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قـرية غبـاغب ، وسـتر التـراب منه المناقب ، ووصـل الخبـر بـوفاته الينا يوم الخميس ثـامن عشري الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابـن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعـروف ببهلوان في سـنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصـلحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغـرل بـن ارسـلان تحـت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنه ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأنف السلطان من كونه تحت حجـره ، وبحـكم نهيه وأمره ، فـانه لم يكن له صـاحب ولاغلام الا مـن عنده ، ولم يذفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه مـن الخيل ، ودام غائبـا في نواحـي دامغـان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل بـه عدة مـن ممـاليك

بهلوان الخواص ، وسلكوا معه نهج الاخـــلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في ســلكه ، وقــويت يده . وتــأيدت قــوته . واجتمعت كلمته - وتكلمت في الأمر والنهي جماعته ، ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء وممــاليك بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام مــن مــكرهم بنقض . وقـــالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهـــم قبـل أن يبـــطشوا . وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهـــم بحضرته وهم غارون . وســاءهـم بـــاغتيالهم وهـــم بـــالمغالاة فيه سارون . فنفر منهم كل آنس . وحفظ نفسه مــن كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل أرسلان فأزعجه . وأخرجه مــن دار ملكه وأحرجه . وأجلس ســـلطانا آخـــر مـــوضعه . وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه . وخطب لمعز الدين سنجر بن ســـليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضـــاه بـــالاسم . وأجـــراه على الرســـم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همـــذان مـــن قـــزل ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قـــربه بعـــد . واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشتد في النهب اشدة النـــهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبـــث العـــدوان . وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه . ولخاطر لم يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصـــول إلى الامير حســـن بـــن قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وآزره وضافره . وظاهره بعد أن صـــاهره . وزوج أختـــه منه . وحمـــى جانبه وذب عنه . وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتـــى يصـــالحه . ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا . واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان . وعادت الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همـــذان . فمضى وراءه قزل ارسلان . فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبسه في بعض القلاع •
وأبعد عينه وأثره عن الابصار والأسـماع • فـاتسقت له المملكة •
واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ تـوفي البهلوان
قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخـربت • وقتـل في
ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف
وزحوف . وكانت الشحن من جانب قزل على الشـافعية • وقـووا
أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى
أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمـام قـوته
والامكان • فلما اعتقل طغـرل • واسـتمر أمـر قـزل • مضى إلى
أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في المحال • وأجرى عليهـم القتـل
والاغتيال • ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي . ونال مـا هـوي .
ونشر من أمره ما كان طوي . وجلس على سرير الملك وضرب النوب
الخمس . ووجد بعدم من يوحشـه الانس . ولهـا ولعـب . وشرب
وطرب . وغفل عن القضاء المشتبه . ونام عن القدر المنتبه . واغتـر
بالعيش الرفه . وحلم عن الخطب السفه . وبات في قصره . وقد غاب
في سكره . وهو بين خدمه . وحشمه . وعسسه ، وحرسه . وعتقائه
وأرقائه ، ومستخصية ، ومستخلصية ، فـوجد على فـراشه وهـو
قتيل ، ولم يذكر كيف قتـل ولم يكن عليه سـبيل ، فنسـب قتله إلى
الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى ، والله أعلم بما به
حكمه أجرى ، ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب بـه دون
أربابه ، وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان مـوضعه ، وجمـع له ملكه
ومتعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبـو بـكر إلى اذربيجـان وأرانيه
سائقا إليها واستولى عليها . وأما السلطان فانه أيس منه . وسـلا
من كان يواليه عنه . فتعصبت له امـراة متـولي القلعـة ودبـرت في
خلاصة . وهونت على زوجهـا أمـر اسـتصعابه واعتياصـه .
واستعانت بمن أعانها . وأعلت بإعلاء شأنه شانها . ولما برز دخـل
مدينة تبريز . وكانما الكير أخرج الابـريز • ثـم جمـع ومضى على
سمت همـذان • فلقـي قتلغ اينانج وعسـكره بين أوه وزنجـان •
فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على
سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا • وفي حلبة المكارم جريا • ومن الخيانة في ولايته بريا • ومن العار عريا • ولم يزل زند مضائه وريا • وكانت له سياسة ورياسه • ونفس ونفاسه • ورأي وفراسه • وفطنة وكياسه . ومروة وفتوة . وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمالها حتى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الان ما باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعاش غنيا . ومات جشريا . وورث السلطان بعض ماله .وذلك ما فضل عن افضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفا ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشان ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طبه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة ، ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه ، ولجده انتباه ، ولمداواته بالشفاء شفاه ، حتى حان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكرها واشكرها . وعارفة اعرفها ولا أنكرها . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهري العرض ، وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الالم ، فتقسم فكره من خبر السقم ، وركب ووصل في يومه حتى ادركني ، ومرضني وما تركني وداواني حتى

ابلت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه واحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا واعطاه في بنائها الوفاء.فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ الشيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق دخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء.وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من أحسن المدن واحصنها واحكمها واوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطامع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الأجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

والمؤمنين المعين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووف باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلاكله . وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمه ، مقام الأنبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين . وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشراق الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الأوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والأداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الأمر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح ،فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده ، وهذه لا شك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدات ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العدات ، والعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب . وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لاتفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشــور حســام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مذ يسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع الليل النصر صــبحه ، الى الفقيه ضــياء الدين عيسى مفــوضه . وصــعاب اعمــاله وشــعاب احــواله بنصرة آرائه ونصرة آلائه مروضه ، وقد اســتناب فيه اخــاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل روا ؤه وبهاؤه به شهيا شــهيرا الى ان اســتشهد في شــعبان ســنة خمس وثمانين ، وتــوفي الفقيه عيسى في ذي القعــدة منهــا وانتقــل الى عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان الأمير سياروخ بــالقدس مقيمــا . والنظــــر في مصــــالحه مستديما . ويضم من امره مايراه منشورا ، وكتبــت له في التــاريخ المذكور باستقلاله منشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى مــن داناه مــن الكفــر ودنسه ، ونزه البيت المقــدس مــن رجس اعدائه المشركين بــأيدي اوليائه الموحدين وطهره وقدسه ، وانطق محــرابه ومنبــره بتــلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصــمه مــن الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على نبيه محمــد المصــطفى الذي شرع الدين وشرحــــه،ومهــــد الشرع واسسه .وبطل الكفــر وعطله . وارغم الشرك واتعســه ، وعلى آله واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصــفى مورده ، وازكى مغرسه ، وبعد فانا مذ فتــح الله لنا بيتــه المقــدس وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامن ايامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الأفضــل الأكرم الانفس ، مــانزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايثــاره حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي مــا انخفض مــن منار الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيي به من رسوم الايمــان

ونجد من معالمه ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد اختبرنا الامير حسام الدين فألفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه باعباء الامانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا ماحضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس واعمالها ، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل ربع اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من ادناس ادنى الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم . وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل ما يحله ويعقده . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجناده ، فشرعوا في انشاء سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصبح ، مشمس مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الاكابر والامراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره . لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما تغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمر احسانة واحسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم الشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فض جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلداً لايتأتى قطعة . ولايتهيأ بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلمود ، وصدفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرج جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثنى ، وكلاسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاقا يعقد ، ورواقا يمهد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تقعر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج

تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل مافي الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأذفه من عمله . ويحلي بالفضل مايبدو له من عطله ، وكان ذلك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال يذفقه نخر باق . وانه إن فاق كريم فبإنفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله واستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لمسلم فزع . ولا فيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيره . وقهقر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي اقدر السلطان على ماعجز عنه الملوك وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض اعمالها ، مجدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند ابليس ، فشاهد دخانا على البعد ، وماعرف ماعنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكبسة وقد بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثر الفرنج عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ، والفرنج تباريهم ، وساقوا اثقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على الاقدام اقدامهم . ومافقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه . واستوى في نهجه . والناس ينقلون معه على خيولهم .

في قفافهم ونبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربهـا ولده الملك الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه مـن الامـراء . فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسـطه على ذلك البساط . وكنت قد مضيت فردني . وبتقريبه امـدني . فلمـا فـرغ وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صـلى هناك الظهـر وركب عائدا الى داره . آيبا بـايثاره وحسـن آثـاره . فـائزا بسرور اسراره. وخير اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجـرد في سرية سرية . بـارية رقـاب ذوي الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم على يبنى .وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثنى عشر اسيرا . وخيلا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جرديك . وعسكر القدس وجماعة من الممـاليك . على ظـاهر عسـقلان . واوفـدت بتناصرها على الكفر الخـذلان . وغنمـت ثـلاثين اسـيرا قيدت في الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت على يبنى وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطـريق وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبـرت . فـكبست وكسـبت . وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمـالها واثقالها . ثم اغارت على يافـا فقتلت وفتـكت . وسـفكت دمـاء وهتكت ، وعادت بـالغنيمة والسـبايا ، واسـتغنت بنقـودها عن

النسايا . وعجز جماعة من الاسارى عن المشي فضربت اعناقهم ، واوجب ذلك للباقين في المسير اعناقهم ، وعادت سالمة سالبه ، غانمة غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين . واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى بايالته لها احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثلث نابلس واعمالها لمصالح البيت المقدس . وتشييد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على ولده . وتركه في تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي الأسرى قوي الازر . فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ، وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفى رزقه لموافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، وماك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان . بل ذئبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما ودخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه الحين . وزاده جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرفيقين ، فالفوهما من الفدائية الاسماعيلية مرتدين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكتير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، ودخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهما اسباب التأنيس ، ثم علقا بركابه ، وفتكا به . فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فيالله من كافرين سفكا دم كافر . وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم مذكبا مذكسا . تحكم ملك الانكيتر في صور . وولاها الكندهري وعذق به الامور . ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى أنه احق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها. وذلك افظع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من ينسب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه.ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه ، وننزع ماخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلاله باسفار الصبح ، فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه ، وذهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشرى شره ، وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق . فاظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عاديته . ولايأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جذونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها لملتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقي في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وابقيت . وبالميره والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسلمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها . وداروا حولها واشرفوا عليها . وأنفق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . دقضهم وقضيضهم . وسعرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم وذابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرقوه . وحشوه واحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعرقبها . والى الذخائر فاضرمها والهبها .
وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عدة يسيرة . وكانت هذه الذوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغي . وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر . وقد انسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر .
ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب .
فخرجت عليهم اسد اليزكية المكمنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا شديدا . وتركتهم بحد الحديد بديدا . وغادرت حبل قصدهم الجديد جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم ترديدا ، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا مفلولين مثلومين . مخذولين مهزومين . مثلولين مهضومين . ثم رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين. وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين . فتقدم السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهم مبارين . وفي يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية ، بجموعهم الوافرة الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون .
فأرجفت الالسنة بانهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهم البلايا . واظهر السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ، وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد . وذوي القوة والاستعداد . وامرهم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب .
وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم . ويعسفونهم ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسناهم دفعة بعد دفعة ، ومن ذلك ان بدر الدين دلدرم كان في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين. فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم في خيامهم ، وألهبوهم بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبت اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحز اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة لأهل القدس على الكفر واهله ، فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار ، وللعدو اقدومهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه الأخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكتير ركب في سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل ، ولايدري اي جانب قصد ، ولأي نائب رصد ، وجرد السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا بالقوم واخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين اخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرو من الفرق والفرق ، وترك الأحمال على برك اخرى سائرة ، ورأى الأمنة ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة ، والأماني تغره بالمواعيد المخلفة ، ونادى تلك الليلة انا جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى الصباح ، فاغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح

بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقة ، وعاق ابن ذكاء باذكاء بنت الداهية العاقة ، فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط الأبيض من الخيط الاسود لم يتبين ، وهبوب الاعين من هبوة الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بأمنه سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على وجهه . وربما كر بكرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانه ، وانهزموا نحو الاثقال ، فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والاحمال . فوقع العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية وعاد معظمها الى الديار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظنت الظنون وارجفت المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر مايحملهم وينهضهم ، ومن المال مايبطرهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند مسلوبين ، ومنكوبين منهوبين ، فسلاهم السلطان عن أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الاخذ بثارهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملأ العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والقتال ، وحلا لهم ماحاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الافضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان .

- ٦١٨٧ -

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وماجرى لهما مــن الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرهــا وحــران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها مــن ملوك الأطــرا ف ودان ، ورحــل مــن القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمــه الماضي المضيء قد سفر ، وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من ابيه مــاكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجــر سـيل خيله جــار نيل دقعــة على المجرة ، شاغل بــالسير والسرى اسرار ذوي الأسرة ، بــادية على صفحات صفاحه نضرة النصرة ، ووصــل الى حلب ، وقــد مــرى افاويق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدومه ، وقــام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحـــب للتـــرحيب بـــــه صـــدره وجنابه ، وسحب على روضـــه ســحابه ، واصــحب فيض فضــله صحابه ، ووقف لخدمته مــاثلا ، وهـــز عطـــف الابتهـــاج اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل مافي يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولاذوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصــحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم مــن الجــود بــامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضــالة التــي ينشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقــه ، ودفــع منه الى ماأرهجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لفضــــله ، ولائذا بجنابـــــه ، عائذا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مــــروضا مــــاحل بــــانواء آلائه ، فـــاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقــويته امله ، وخــاطب الســلطان في حقــه واستعطفه ، وشــفع في امــره واســتشفعه ، وقــال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذره ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واستقر ان ينزل عن اقطاعاته بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه ، فأبدى على الرضا بذلك وجه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمادى الأولى . وكتب السلطان بعود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرنقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة ما منه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، من يجد في تملكه الامكان ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من

القصد ، ودبروه من الكيد ، امر الملك الافضل بمبادرة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهز السلطان فرصة الغيبة ، وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا نتظار العساكر ، ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق احجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ مابها وكسح ، ووجدت الاحمال المأخونة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل مذفعة ، وامتلأ البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حماتها الامان ليكونوا لها مسلمين.وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا، فظن ان الغنيمة تصفو، فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الاكابر ، على

أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويفدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احادا وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ماعيذوه من الاقتراح . ومازال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكتير في البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولانفع بعد فوات الفرصة الندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على توهيمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونفضت رقعة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحا عظيما ، وفضلا من الله عميما . فقد امتلأت الايدي بغنائم تلك المدينة . ووهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنيه . وقتل من اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من مقدمي القلعةنيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المحمود . وانما وقع التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت بعد الاكثاب . وافلتت وقد وقعت في الحبالة . واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف ا.فرنج من تلك الكرة . واذن نشاطهم بالفترة ومانتعشوا ولانجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالمسار الوجوه . وكان ولده الملك الظاهر ايضا قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح يئس ان يؤسى . وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه . وفازت قداحه وحاز السني قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت اوائلها الاواخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متأخر في المخيم . بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من اهله بجمع الشمل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجترأ . والقدر قد اسعد والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو واذهب الكدر . وتلك البرية قد حوت البريه . وجمعت العسكرية والكمت الجارية والكماة الجرية . والاعراب والعراب . والمحارب والحراب . والاجاود والجياد . والاساود والاساد . والبياض والسواد . والعدد والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ماانهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة . وافاويق النصر على حفولها تارة وبكئها اخرى مستدره . والحرب سجال . وللاسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتداء . والحادثة متصله والواقعة مستقبله . والنعمة من الله في اجراء اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عداته في قمع عداته مؤمله . وما ينقضي يوم الا عن نصرة تتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع للعدو يتبدد . وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخد السيف من حده بدم الشرك يتورد . وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه الايام . من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . وذوبة مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقدس . ولم يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهم . وعادوا خائبين . ونكصوا هائبين . واستأنفوا مكيدة اخرى .

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتملي بنات الخلل الأسد والعرين .(فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين)[الصافات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول .جاءهم الغوث في البحر. وظهرت منهم امارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المنتشية من كاس نجيعها الطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصابهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم ماصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعه . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بذشر نجاحها وبسر مافي اقتراحها سافرة.

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لا قبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل . فاظهر انه إن لم يهادن اقام واستقبل . والشر استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى مراده . والبحر قد آن أن يمنع راكبه ، ويسئم بالامواج غواربه ، فان هادنتم وطاوعتم تبعت هواي ، وان حاربتم وعصيتم القيت ههنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ، وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولاتغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحن اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا رغبتي . واصيبوا محبتي ، واودعوني العهد ودعوني .ووادعوني وو دعوني ، فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم في الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ماعندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادىء الى الغاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في قوه ، وفي ترقب نصرة مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين وكرم ومروه ، وقد الفنا الجهاد . والفينا به المراد ، والفطام عن المألوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ، واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل ففيم الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الأجل ، ومن الف الحلية كيف يألفه العطل . ورأيي ان اخلف رأي الهدنة ورائي ، واقدم بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي ◦ ومانا بطالب البطالة ◦ فارغب عن استحالة هذه الحالة ◦ وقد رزقت من هذا الشيء فأنا الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولايستمر الاماتمره من الامر ◦ ولايستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حـق نفسـك مـن عادة السعادة ٠ وارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحـة ٠ والاعتناء بالوسيلة الناجحة والاذف من العطله ٠ والعـزوف العـزله ٠ وانك تجد من نفسك القـوة والاسـتمساك . ويقينك يعـرفك بـالاماني الادراك ٠ فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت ٠ والرعايا فانها تعكست وتعاثت . والاجناد فانها نصبت ووصـبت ٠ والجياد فانها عطلت وعطبت ٠ وقد اعوزت العلوفـات ٠ وعزت الاقـوات . وبعـدت عنا العمـارات ٠ وغلت الغـلات ٠ ولاجلب الا مـن الديار المصرية ٠ مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية ٠ وهـذا الاجتمـاع مظنة التفريق ٠ ولايدوم هذا الاتساع مع هـذا الضـيق فـان المواد منقطعة ٠ والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطـب ٠ والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السـعر ٠ وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاد المنه ٠ وصبروا على المنية في طـريق الامنيه ٠ وابـوا في الاقبال على دينهم قبول الدنيه ٠ والصواب ان نقبـل مـن الله الاية التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا السلم فـاجنح لهـا) (الانفال ٦١) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها ٠ وتـكثر في مـدة الهدنة غلاتها واثمارها ٠ وتستجد الاجناد عدتهـا وتستريح زمـان السلم ومدتها ٠ فاذا عادت أيام الحـرب عدنا ٠ وقـد اسـتظهرنا وزدنا ٠ ووجدنا القوت والعلف ٠ وعدمنا المشـاق والكلف ٠ ففـي ايام السلم نستعد للحـرب ٠ ونسـتجد ادوات الطعـن والضرب ٠ وليس ذلك تركا للعبادة ٠ وانمـا هـو للاسـتجداء والاسـتجداد والاستجاده ٠ على ان الفرنج لايفون ٠ وعلى عهـدهم لايقفـون ٠ فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا ٠ وقد شقوا بمـا لقـوا ٠ ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويسـتقل بـالملازمة . وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي ٠ واجـاب الى مـا اقتضي . وكانت قد بقيت بين العسـكرين منزلة واحـدة ٠ والعجـاجات على الطلائع متعاقدة ٠ فلو رحلنا رحلناهـم ٠ وعلى الهلك احلناهـم ٠ لكن مراد الله غلب ٠ واجيب ملك الانكتير من الصلح الى مـا طلب ٠ فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نسـختها ، وعينت مـدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سـنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمـانية اشـهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحـر ، وتتصـل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحـر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسـارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التـي كانت معهـم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العـزيز في شرح نوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وماهو لايزال مستمرا عليه من جهاد العود وقتاله . وماكان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعـوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من النفـائس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا مـن كل فج عميق . وبذوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قـربوا عرفـوا ان المرمـى بعيد المرام . وانهـم لايستطيعون مقاومة عسـكر الاسـلام . فنكصـوا على اعقابهم . ونكسوا ماضربوه من ارائهم وارابهم . وعلموا عقبـي مـاجهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ماوصلوه . ونكثـوا مـن عقـد القصـد ماابرموه . وشرعوا في أمرآخر تـوهموه ٠ ومضـوا واسـتأنفوا الاستعداد . واستنهضوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واسـتظهروا فيهـا بكل ماقدروا عليه من المنعة الحـاميه . ورجـال الصـبر على النار الحامية ٠ ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجمـوعهم المحشـودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري شآبيب الانابيب . مستذفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجراه . الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نمى خبرهم . وطار شررهم . وخيف ضررهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه . ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بغزوته اليها عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا . وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر للذخر . وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لايمكنون من الدخول اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم . وكنودهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافلة حافلة . وتواردت في الاسراع إلى الصريخ ظلمانا جافلة . فاجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر . واتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر . وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هز له الاسلام

عطف الاغتباط . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لايجابون إلا بالاباء . ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها . وأولياء الطاعة وألباؤها . واشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة الممكنة . واستقرتْ المهادنة على ما أعزه للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا، عسقلان. وغزة. والداروم. وبيني. ولد. وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا، بيافا. وعكا. وصور. . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترارْ . وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار . وأمورهم الى القرار . وخلوا ديارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها. وأخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وابرام معاقد المعاقل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولايرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الاراء على ان المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خاسرة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عامـا . وأمنـا تـاما . وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما . فهي سلم أذكى من الحرب فيهم . وانها تقصيهم من هذه الديار بل تذفيهم . والى متـى تجتمع هذه الاعداد الهـائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفـق هـذه الامـداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهـم هـذا الجمـع على التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهـم من ألوفه سوى مئتين . وكل ما كان لهم من أمـوالهم في بـلادهـم نقلوه وانفقـوه . وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقـد آن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم ذاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوته . واسـتكثر من نجدته ومن جدته ، فرأى مـوافقة الاجمـاع . وقبـل مناصـحة الاشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمـره . وأمـن نكره ومـكره . وانشرح صدر الاسـلام وتضـوع نشره . وتـوضح بسـنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سـعادته . واشـتغل بـاتمام السور والخندق وتكميل عمـارته . وفسـح للفـرنج كافـة في زيارة قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامـن والسـلامة . وزاروا ورازوا . ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق . وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقـاتل على هـذا الذي وجدناه مع الصلح.ومازلنا سائرين في ليل القصد حتـى وصـلنا إلى الصبح . وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسـأل منع الزيارة الا لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجـاب سـؤاله في ذلك ويصاب سوله . فقيل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثاره . ومن زار برد قلبـه . وتنفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهـذه الديار سبب . فكان الامر كما حسب فـاعتذر إليه في الجـواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصـــلون إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود . ولانبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكتير مرضا ألهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر واقلع . وعجل في مفارقته وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهـــو الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الاخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه مـــن الازواد والنفقــات . والثياب والكسوات . فقيل له لو كتبــت إلى أمير المؤمنين وأعلمتــه بحجك وعرفته بنهجك . حتى لايظن بك أمر انت منه بريء ويعلم أن قصدك في المضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافــاق . ثــم هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مـــرر حبلهـــا المنتكث . وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهـــم الامـــور . ولايغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهـــم . ومليء البغي إهابهم . فمازال الجماعة بالسلطان حتـــى حلوا مـــن العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ماأوقده . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهـــذيب عمله ومعـــاملته . وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهـــو تـــركي يقتـــدى بـــه في زهادته وحســـن ســـيرته الشـــيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا مـــن الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصـــدره . وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جرديك . وقال تهذيك في الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتمـــاع خـــلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتـــولآخـــذا بـــالحزم في تثبتـــك

وتأنيك . وتـرويك وتـأتيك . وولى علم الدين قيصر اعمـال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج اليها وتولاها . وأمـر بذل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقـطعين ، وكذلك أمر بذل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وأذن سؤاله عنها بـاجابة سؤلهم وسولهم . فانه كان وقف دار البطرك مجـاورة قمـامة لهـم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحـكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعـل كنيسـة صـندحنا عند بـاب الاسباط للفقهاء الشـافعية مـدرسة . وردهـا بنية على التقـوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمـامة بيمـارسـتانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامـراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القـاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السـلطان على عزم دمشـق مـن القـدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبـر الاحوال . وأقام بعدله الاعتـدال . وأفـاض الفضـل والافضـال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركه للداوية . بـالهمة الروية والعـزمة القـوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصـالحها المتـوزعة . وكثـرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق الرذق الى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مـظالمها . واضـحك بـالعدل والاحسـان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمـات سـننها الضـائرة .

وأصفى بهــا شرعة الشريعــة . واضــفى ظــلال الرعاية الرعية في مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بــالفريديسة . ورتعنا في مــروجها الانيســة . واصـــبحنا راجلين . ونزلنا ضـــــحوة على جيفين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد . فانه انتقــل بعــد ايام الى رحمــة الواحـــد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال . ورحلنا يوم الاثنين وجــئنا ضــحوة الى بيســـــان . وأزال حاول السلطان عنها البؤس واشــاع الاحســان . وصــعد إلى قلعتهـــا المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت في حضانة الحصانة . وكان جبلهــا لوثــوقه مســتودع الامـــانة . والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب . ولم يزل حتــى بين كيفية بنائها ورتب . وووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهــر ظهــرا وبات على قلعة كوكب . وشاهدهـا وصعد نظر رأيه فيهــا وصــوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خــرج مــن الاسر . وتلقيناه بــالبشر والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتــوافر الانداء . وتــواتر الانواء . ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصـــعد السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحبش . وهـــي عامرة محتوية على سكانها . كأنهــا العش ، وسرنا منهــا وخيمنا على مرج تبنين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . واصــبح الســلطان حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتطيا قــلة قلعتها ولاســباب اختلالها مميطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصــالحها بــكفايته منوطة . وسدادها بسداده منوطا . ثم رحلنا بكرة الســبت وجــزنا على قلعة هــونين . ونزلنا مــن الجبــل . وبتنا على عين الذهـــب واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الاحد وخيمنا بمــرج عيون . وجلس السلطان على عادتــه معنا في تــدبير المــالك تلك الليلة وســـهرت العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى . وقطعنا في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مــرج تلفياثــا

مقابل مرج القنعبة . ودفعنا إلى سـلوك المسالك الصعبة . ثـم اصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طـريقه مـن تقـرير العمـارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحـامد . ثـم غدونا يوم الاربعـاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد اصـحرنا الى الفضـاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعمـاء . ولما جـن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الاذوار . وسرت اسماعنا منه اسـماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الاسـعار ، ودخـل السـلطان يوم الخميس الى بيروت ، وانجز بالوصول اليها وعدة الموقوت ، ونزلت الاثقال على مـرج قلميطية بـالبقاع ، وأقـامت خمسـة أيام على الاستراحة والايداع .

ذكر وصـول السـلطان الى بيروت ودخـول بيمند الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاسـتجارة بـه وذكر سامة

ولما وصـل السـلطان الى بيروت تلقـاه واليهـا عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واسـتقبل الأصـحاب بصـدر رحيب وظل خصيب ، وسـماحة اريب وسـجاحة لبيب ، وفتحـت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسـبلها ومـا قيد اطلاقها وقـرى واضـاف ، وادنى القـطاف ، واصـفى العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألطاف ، وفرق على الصـغير والكبير التحف ، واحضر السلطان ولكل من معه الطـرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود وافنى ، واعطى الخيل والممـاليك والجواري والملابس ، وبذل الذفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابكار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مـظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جـريا

على كرم الشـــيمه ، ومــــن الجـــوخ الافـــرنجية والثياب البندقية ، والهنايات الفضــــــية والاكواب اللجينية ، والسروج واللجـــم ، والاكســـية والحـــزم ، والمهـــاميز والملاليط والغفافير ، والعروض والدراهـــم والدنانير ، ففــرق مــن ذلك مــا جمعه • ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفعه . وما انفصـــل عنه الاكل مواصل بشكره ، مسـاجل امثـاله بـذكره ، مضـوع كل ناد الكرام بذشره ، وقامبالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصـــال ، وذلك في يوم الســبت الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابــرنس الأنطــاكي قــد وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمـل العصـمه . داخــلا حـــكم الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام ومــا ارتحــل ، واذن للابــرنس في الدخول ، وشرفه في حضرته بـالمثول ، وقــربه وآنســه ، ورفـــع مجلسه ، وأظهر له البشاشة والهشاشة ، وســكن مــن روع روعه الحشاشة ، وكان معه مـــن مقـــدمي فـــرسانه اربعـــــة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهـم تشريفـا سريا ، وأجـــزل له ولهـــم العطاء ، وابدى بهم الاعتناء.وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصـحابه بمبـار ، واعجبـــه استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فـلا جـرم تلقـاه بـــكل احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافـق مـراد السـلطان انه بمراده وافقـــه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرتـــــه مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان مـن بيروت يوم الأحـد بـات بـالمخيم على البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله المـؤانسة والامتـاع • وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهززنا منه اعطـاف الآلاء ، واسـتدنينا قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهـل والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتـراحا ويظهـر الى سـكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبـرنا عين الجـر وبتنا على مرج يبـوس ،،وقـد شرح الله الصـدر واطـاب النفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشـق مـن سـبق للتلقـي والاستقبال ، واظهـروا بقـدومنا أسـباب الاحتفـاء والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين الينا مسـالكها ومـذاهبها ، ورحلنا يوم الثـلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجـرى المتلقـون في التحفـي بـالتحف على العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشـق وقـد اخـرجت اثقالها ، وابرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخـرج كل من بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا اسـتبشارا وفـرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشـق اربـع سـنين في الجهـاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الأعين ، واقـرت بفـواضله الألسـن ، وذاعت اسرار السرور ، ورقـت حبـرات الحبـور ، وطـابت الأنفس ، وغابـت الأبـؤس ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم ، وافتـرت المبـاسم وهنيت بمـوسمه المواسم ، وتهوديت التهاني ، وهديت الأماني ، وغنت المغاني ولذت المجاني ، وسـفرت المجـالي ، وظفـرت المعـالي ، وتحلت الأحـوال ، وتملت الآمـال ، وراج الرجـاء ، وارجـت الأرجاء ، وفاض الجود • واستفاضت السعود • وعم العدل • وتم الفضـل • واشرقـت الافـاق • وآفـاق الاشراق ، وكرم الفضلاء ، وفضل الكرمـاء .وحـل في القلعـة حلول الشـمس في برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سـماحه في

موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيها ، واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف العافي ، وتمت على السن الانام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستدعي ، وأجاب واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الاسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى طبرية ، ولقي من السلطان الالطاف الخفية ، ووصل معه الى دمشق واقام الى ان خلص اصحابه من الاسر ، وتوجه الى مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وافتراره ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاب سرح سلاح اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وائتلاق انواء انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق اشجاره ، وانفتاق كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه . وانتظام منثوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف اعشابه ، واستماع حفيف اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شمائله ، واقتبال قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صبابه ، وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتنسم ضمير ضميراته ، وتصور خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتفوف حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا طاب النسيم ونسم الطيب ، ودعا البلبل ولبى العندليب ، وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني اللجيني . وحلي النضير النضاري ، وبقل العذار البنفسجي . واشتعل الخد الجلناري الناري ، ونجم في الروض النجم السمائي المائي ، وابتسم الثغر الاقاحي ، وتنسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري الشجري ، وتأرج النشر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتشى النشأ الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشعاب ، وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت، الصبا في محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الأصحاب الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الايمان كل مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض اهل الجد وجد النهوض ، وفاضت المنابع ونبعت الفيوض ، وضرب السرادق السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل ، والجد يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي.والوني يعزل ، ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرت على اعناق اطوادها جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب ناكت ، والهتوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن حزين ، وللسماء سماط ، وللنشاص نشاط ، وللسحاب حساب ، وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، وللبرد من ثلجه برد . وللمطر في نهجه طرد ، وللغيث عيث ، وللوحل ريث ، وكانون قد اكن الربا ° وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة مشبوبه ، وحدود الذكب مذروبه ، وخدود الترب مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتهز في العمر للفرص ، مبتز بالبزاة والصقور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يدني اجل الحجل وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهم ينقض انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، وأكثر الجلوس بدمشق في دار العدل ، واغزر لمنتجعيه در الفصل . وحكم وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووافد وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقني واجدى واسدى ، وأولى وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وماكان احسن الى الحق اصغاءه ، وأسرع الباطل إلغاءه • ولكل ذي فضل منه حظ • ولكل ذي حفظ منه حفظ • ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سوق ، ولكل سهم عنده فوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم من جوده أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظام ري ، ولكل حائم ورد هني ، فما أسح مزنه ، ومااصح وزنه ، وماأسمح يده ، وماأوضح جدده ، وماأعلى جده، وماأجد علاه ، وماأجدى كفه وماأكفى جداه ، وماأكثر حياءه وأغزر حياه ، وأرج رباه،وأبلج محياه .

وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان .

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لمناد امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى مافي يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه . واستطال هواه ، وهو حينئذ متولي سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفـراس ، وصـور له انه يريد ان يستولي على الملك ، وينفرد بـانتهاج المسـلك وانتـظام السلك ، وساعده صاحب ارزنكان وأمـن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان ان يقصد دياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فـاستصحبه صاحب ارزنكان ، وأوقع عليه في الطـريق التـركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلمـا عرف ملكشـاه أن وجـه والده خلا ، وأنه عن حسن بـن غفـراس سـلا ، سـاق اليه ، وأخنى عليه ، ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحـوز حـوزته ، وقـوي بعـزته ، وعز بقـوته ، وقـال لوالده انا بين يديك ، واشـفق عليك ، وأنفذ أوامرك ، وأوفـر مآثـرك ، وقتـل أمـراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لايشتهيه ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهـو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بـالسلطنة معـه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفرى ، وقـرع وقرا ، وقـطع وبـرى ، وقـد مضى حـديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهـم في وهـن الاسلام ، واسـتصحب معـه والده الى قيسـارية ولقسر اخيه نور الدين سـلطانشاه وحصره ، واظهـر انه بـأمر والده وأنه شـاد ظهره . وخرج عسـكر البلد وصـف ، ووقـف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصـل ملكشـاه الى قـونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بـالسلطنة ، وبقـي قليج ارسـلان يتـردد في بلاده ، وفي ضيافه أولاده ، وينتقل مـن بلد الى بلد ، ومـن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صـاحب بـرغلو فقـواه وأزره وضـافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله.وجـاء بـه الى قـونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج لياخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجـاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه مـن المرض الثقيل في خفة ، حتـى دخـل المدينة وقلعتهـا ، واجتـازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلفهم ، واستمالهم وتألفهم ، ثم اظهر لهم وفاة ابيه وأنه وارث ملكه ومتوليه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه اخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام ، ويؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها اليه ، وعول فيها عليه ، ومابرح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد امرهم الى سداده ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل الى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل الى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمنائح ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشييد الدعائم وتقرير العظائم ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجح الانام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضــلاء ، ومــوالاة الأولياء ، ومصــافاة الأصـــفياء ، واعداء الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخــرج عن حــكم الجلد ، وبرز الى الصيد شرقــي دمشـــق بـــزاد خمســـة عشر يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معــه أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ووافــق مــراده القنص ، ثــم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافــق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقــي ، وســعاداته في التــرقي ، ولما لقــي الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ماتمناه ، وســألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصــلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجــاورين والفقــراء ورواتبهــا وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقاه بــالاكرام وأنزله في كنف الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صــفر في مجلس عادتــه ، ومجلى سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحــدثه ، ثـــم صـــلى بـــه وبنا إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا باحسانه مغتبــطين ، وبــامتنانه مرتبطين ، وأصــبحنا يوم الســبت وجلســنا في الايوان ، ننتــظر خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضــل ان يجلس موضعه على الطعــام ، فجــاء وتصـــدر وتـــربع في دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من تلك الحال وتفالنا بحد ذلك الفـــال ، ودخلنا اليه ليلة الأحـــد للعياده ، ومــــرضه في الزيادة ، وتوفي بــكرة الأربعــاء الســابع والعشرين ، ونقله الله في دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجــال ، وأظلم بغروب شمسه فضــاء الافضـــال ، وغاضــت الأيادي ،وفـــاضت

الأعادي ، وانقطعت الارزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الآمن وخاب الآمل ، وقنط السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، وذكر المعروف ودفن بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لا فرق بين الدجى والضحى ، ولاأجد قلبي من سقم الهم وسكره صح ولاصحا ، وحالت حالي وزال ادلالي ، وبطل حقي واتسع خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهرة ، والعيون شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسه ، والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف منهجا ، وظن الغنى عني ، واختلف في ضن الاحلاف بي ظني ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام ابيه ، وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري ، والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلي دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة • وأغزرت البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة ، وأبقى له مآثر أثيرة ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في خزانته سوى دينارا واحدا وستة وثلاثين درهما ، فانه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما ، وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول ، فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولاجبه أحد بالرد اذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطي وأن كان يبطي . وإنه يصيبه بالنوال ولايخطي ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وادناء الأولياء ، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ، وذهبوا وما آبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والباس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وابرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتائب . وفرض المواهب . واجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأدنى وابعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

ففصل ووصل . وأحسن وعدل .وقضى وحكم . وامضى وأحكم .
وأحضر ذواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقى إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمر بتخليده .
وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب .
ومحبوبه من الرفد محبوب . ورعى في عهد الوالد . واضاف الطارف
عندي من العرف الى التالد . هذا وأنا غائب . وبرائي رائب .
ولسواء كاتب ونائب . وماحوجني في النوال الى السؤال . وأغناني
عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلي الى تسيير القصائد
والرسائل . وما اغرب بدار فواضله حاول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حانثين . ولعقد ايمانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب .
وجهز جيشا جائشا . وبعثا لعثار الدولة ناعشا . في كل مقدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى
دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمد أعود والعود أحمد .
وسيأتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابو الحسن علي ولد السلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفدت في الرجال نخائره . ورتب الأمور اجمل ترتيب . وهذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السرير السلطاني بنوره . واسفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدا وملا بالبشر المتبلج

والذشر المتأرج الملا . وهذب واذهب . ورغب وارهب . ورتب وربت واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بحميته سر حمايته واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر . وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس . واشاع البر واعاش . واشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض . وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط . وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير اللاحظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ . وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . وامهى الرواعف . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السلك . وجلس في دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا . واستفاض بطهارة السجايا . وآوي اليه اخوته . وضم جماعته . وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا . واصحبه عسكرا مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل . وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع . وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخلة . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة . وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . واسر صدقه وذشر صداقته منيعا مشيعا . فأحلى له الملك الافضل جنى شهياءواحله جنابا وسيعا .

وعقد له حبا الحب ، وحياه بكل ما سفر عن سـفور مـودة القلب . ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الأفضـلي تـابعا . فأدناه واجناه . واحبه وحباه . وأسناه وأسـماه . وآواه وآسـاه . فتأكدت بينهم القرابة المتشـجه . وتشـبكت اللحمـة المنتسـجه . وتمهدت الآصرة الممتزجة . وتفتحت أبواب الالفة المرتجه . وتوافوا على التوافق . وتصادقوا على التصـادق . وتعـاضدوا على الأخـذ بالتساعد . وتعاقدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب واعمـالها وحصـونها ومعـاقلها . وكرائم البـلاد وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين ابو الفتح غازي . وهو برجاحته وسماحته للطـود والجـود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقـطارها واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحمـاها . وبمـاء العـدل رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهزاعطاف العطاء . ورحـب لوراده . ورواده رحابه . وسـحب بحيا الاحياء سـحابه . وابـرت مبراته . واثرت مأثراته . وسح وصح غيثـه وغياثه . ورعى رعيتـه فشبعت ورويت ظماؤه وغرائه . وزخرت امواجه . وزهرت بثـواقب المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صـبا صـباحه . وعزت بسيرته كتب التـواريخ . وعزى قلمـه وسـبقه الى عطارد والمريخ . وسعدت وفوده . ووفدت سعوده . وآثر من امره النفـاذ . وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبـرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة الخواص . وتمهد لسلطانه الأساس . واطـرد لاحسـانه القياس . ووجد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشـا الى جـدواه المجتـدي وعاش.وفرض الفرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصـالح

فارطها . وملك خلق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع . وخرق ورقع . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والنفاق ودمغ . وشفى واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن اللهو. وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكايد وأوهى . ووف للوفي . وصفا الصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . ودخل في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه . وهمت همته بالزيادة وسمت اسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى الى حصنه بالكرك للاستراحه، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية المتاحة . فنابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب . فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى الفرات . وجد مما خافه دلائل الفترات . فأقام بقلعة جعبر . ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووصى برعاياه الرعاه .

واستناب في: ميافارقين. وحاني. وسميساط. وحران. والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه . جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخفوا وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ماهم فيه فهموا وماكفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهلكتهم . واذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمات وماقدر الله لجمعهم من الشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في الذوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنفار . وضم اليه من ماردين ، ماردين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش . فبينا هو في اتم غرور . وانعم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . واذهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدر انه داخل الى مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكأن ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادىء بالخروج متولى ماردين فانه مرد . وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال مادرين . حين كان اهله عليه ماردين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه . وأضافه الى نائبه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجحفل الحفل . واضافه اخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنفرهم . ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد . فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب . ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتنم واهتم . وجمع عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك . واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل لقدومه منتظر . واما المواصلة فانهم ماا سرعوا بل ابطأوا ، ومااصابوا بل أخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية متوافيه . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجذبوا وتجبذوا وكانوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبنوده . ومساعيه وسعوده . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب . وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال اليزك تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره المكتوم . تفليل غروب القوم وتقليلهم . وحار تأملهم وخار تأميلهم . وجفل رألهم ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر . واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا ان يتبدل ماالم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولمن وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع . وتشفع بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفح له عما مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلا الضو . وعلا النو . وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات . في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ماذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم ذخائرها . فجاءت الرسل العمادية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسنى السلم عن الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم ومادارى . فبسط عذره . وقبض ذعره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب الينا ان اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزار ديناري . فلم يرضوا بايالته لخلاط ولم يروه كفوا لذلك الهدي . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامد الحصر يمتد . فعاد الى حران والرهاء واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في اخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين الذين حالوا عن الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن خلاق التلافي الى الاتلاف . وبددوا بالانتظام في سلك الغدر شمل الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم . وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي الخـدم مـن انعـام امير المؤنين صـلوات الله عليه ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضـلالة بعـد الهـدى فسـلكوها . واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصـيبوا اذ لم يصـيبوا ببصائرهم وابصـارهم . ودخلوا في دائرة السـوء وخـرجوا مـن ديارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصـاحب ماردين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحـاسدين الحـاشدين . ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العـادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السـداد . واثقا منهم بالمواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافـاويق . وهـو في خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتـظم عسـكره ولم ينضـم اليه معشره . ولم يصف لدفع الشوائب وردع الذوائب مورده ومصدره . فلما عرف نكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجمـوع . وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بذو اخيه في الجذود . وتوافوا نجدة ساعدت السـعود وامـد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصـار المتناصرة . وندب الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضـه . وسـار معـه عسـكره الذي بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القـوم . وانهـم مـن حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . واذفـق في العساكر وجهزها . وذكر عدة النجدة فـانجزها . واهتبـل فـرصة الفريضة وانتهزها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . ومـاجت البحـار ، وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز اياته في اهل الشمات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهـم بـالبتات ، وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ، وحطه من بقاع اعتـلائه الى حضـيض اعتـلاله . واعادهـم على اعقابهم ناكصين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارابهم ناقصين واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعادة خارقة . وقـدرة لاقدار الاولياء السعادة خـالقه . وقتلهـم ومـاقاتلوا ، وقـابلهم وماقابلوا . و غادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظـة للمتفـكرين . وعلم صاحب ماردين انه اخطأ وما اصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ، واجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وبيعتها المستحقة . وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وماالسعادة الا لمن شملته سعودها . وماالجد الا لن وصله جودها ، وماالكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، ومـاالعصمة الا لمن لزمت في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ماالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم . والخطب الجسيم . والرزء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والذكبة الناكية . والطارقة الطارية .

والملمة المؤلمة والبلية البـارية . والواقعـة الرائعـــة . والصـــدمة الصادعه . والحدثة اللافحه . والروعة الفادحة . والغمة التي غامت بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام . فقد عدمت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور ســدادها . والامور سدادها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه ســفورها . والصـــدور انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضــلت العلياء محجتها . واهتـدى الضــلال الى الهـدى . وأقـــوى نادي الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنى . وأمــرت مجاني المنى . وخفيت مناهــج المناجــح . وعطلت مناهــل المنائح . وعميت مذاهب المواهب .واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابــواب الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمســت زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضــطرمت الدهياء وبــطلت مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهــاد . وتفجعـت ممــالك البـلاد . وأخلفـت عدات الاعداء على الاعداء . وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجــراه الله مــن قضــائه المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجــل . وحــل عرى الجلد حين حــل . وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضــلوع . وبــت حبــل اللاجين . وشــت شـــمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث . وحبــاؤها غثــاث . وعقــودها انكاث . وســـهولها أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومــواهبها احــداث . وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبطتها ندم . ووجودها عدم . وبقــاؤها فناء . ونعيمهــا بــلاء . وراحتهــا عناء . وملكها هلك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حــرب وصلحها فتك . ووفــاؤها غدر . ووفــاقها مــكر . وعرفهـــا نكر . ووصلها هجــر . وخيرهـــا شر . ونفعهـــا ضر . وجبـــرها كسر . ومتاعها قليل . وباعها في التطاول طويل . ومــالعثارها مقيل . ولافي ظلها مقيل . ولارب فيهــا لأريب . ولا البــاب فيهــا للبيب . فــان

ظلها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيها خدع . وحليها عطـل . وسـعيها زلل . وإجـداؤها إجداب وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابهـا إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقـدها مفسـوخ . وعهـدها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبـار . ويسـارها إعسـار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شـعث . وشـيمتها عيث وعبث . وترابها تراث . ولالمسكنها اسـاس ولالاسـاكنها اثـاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولالمكرها في جد مكرها جدد . والسعيد مـن استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الاخرة من الازواد . ومن نظر اليهـا بعين القلي . وعرف انهـا دار البـلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الاعراض عن جدواها للفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السـعيد قـدس الله روحـه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عائفا . ومن ملكها آنفـا . وعن مـالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بـالدين . وخصـه الله بتـاييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فمـا زاغ بصره ومـا طغى . (ونهي النفس عن عن الهـوى . فـان الجنة هـي المأوى) (النازعات :٤٠ ـ ٤١) ووقف حياته على احياء معالم الهـدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . وأشاعه سنن العـدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضـل والافضـال . حتى كفل جـوده بفيض الارزاق ووفى بنجـح الامـال . واخلص الله عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقه وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم:(مـن كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . ووهب لاعطاف الدولة التبـاهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقـدار . فازال عن مشارع الشريعة الاكدار . وعطل البـدعة بمصر واليمـن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتـى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقـدر على مـا أعجز عنه الملوك . ونهـج في نصره الدين نهجـا اعوز مـن قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها ديارهـا وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معـاقلها . وطـال بحقـه على

بـــاطلها . واقصى عن المســـجد الاقصى مــــدنسيه . وازال عنه ايدي غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعــد عنها اجناس الانجاس . وقهــر الكفــر وخــذله . ونصر الايمـــان واخذله . واحيا للكرم كل سنة حسنة . واستمرت محـــاسن ايامــه سنة بعد سنة . وتعدلت بعدله الجوانح . وتذللت بباسه الجــوامح . ودانت ودنت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحــكمه الامــاني العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته . ونفــذت في الشرق والغــرب مــراسمه . وقامت بالحمد والشكر مــواسمه . ووفــت بـــامل الداني والقـــاصي والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه امله . وولى في كل اقليم من يعمل لله في العدل والاحسان عمله . ثــم توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر . صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مــرتويا مــن صوب الصواب . مبتهجــا بنصرة النعيم . متــارجا بعــرف نســيم التسنيم . وما كان ابهــج الايام بـــايامنه . والاعصــار بمــزاينه . والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والآفاق بسني احسانه . وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده . فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن الســـماح فــلا جــدوى ولا جنى . وغاض البحر فلا غنى . وهو الطود فلا ثبــات . وذوى الروض فــلا نبات . ووهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جدد ٠ وغلب الكمد فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولا قوة ولا عضـــد . إنا لله وإنا اليه راجعون . ولأمره تـــابعون ولحــكمه طــائعون . ولا راد لارادتـــه . ولاصاد لمشيئته . ولاصادف لصادف قضـــائه . ولا صـــارف لصرف بلائه ولقد كادت الادوار تغرب . والانواء تعزب . والمنابــع تغــور . والصنائع تبور . والاحوال تحول ٠ والاهـــوال تهــول . واضــواء المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق . وازهار الروض لاتؤنق . ومعـــاقد الاســـلام تهـــي . وميامـــن الايام تنتهي . لولا ان الله تدارك الارمـــاق بـــألطافة . وتـــلافى الامــــال باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعــد

العبوس . وانزل السـكينة عند الزلزال . على النفـوس . واجـرى الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القـواعد . مـن استمرارها على الالتئام . واسـتقرارها في النظـام . واستدرارها بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شموسها من الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السـمو . وامتـداد اصـولها في منابت النمو . وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار . وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفـرقة واتحدت . وانتظمت الالفـة المتبـددة وتـاكدت . وسـكنت القلوب الراجفة وانست . وسكتت الالسـنة المرجفـة وخـرست . وانارت الخواطر المظلمة . واقاقت الظنون الراجمـة والافـكار المنقسـمة . وزاد الرونق وزال الرنق .وانجلى الغسق . وتجلى القلق .واستقامت الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتـب العـزيزية والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجـح الارب ووصـل السـبب ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر ° وشـد الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقـق النصر . مـن الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجـدة بـالموالاة . والمتابعة والمشايعة في كل امر يبرم . وكل حكم يحـكم . وكل عزم في قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهـدى يلزم ويتمـم . ووصـل المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشـاع على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفـع مناره . واخلى مـن كل شاغل باله ورفه اسراره . واراح افكاره . وما في الجماعة الا من خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبـع . فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفقت في حال الصـدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفـرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهـم . ودفـع مكرهـم . واوهـى امرهـم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثـروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا اجراءهـم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبـركات نية المرحـوم شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتـوجه الملك العـادل الى بـلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكايد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرأفة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه وعدله . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه . فما تهيا مسير الرسول الا في اواخر جمادى الاخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لايظن انه انفرد بسوله . وقصد مدارة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني باانشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللفرض متقبل . وبالطاعة ماثل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمت بما قدمه من الدوات . وا سلفه من الخدمات وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذه عصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وفاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق اوان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ماكدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه آية الآياه وألم بألم الأمل . وأحال الحلى الى العطل . وحلأ عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام . وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشبت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على أنها ماشيمت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل الذفاق رؤوسهم من كل ذقق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلئما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الأقوى الأوقى . فانه لايحتفل بحفول

اخلاق أهل الخلاق . ولايتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد . الشديد السديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستنيما في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز بـه المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشـغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفـئة العادية . وكم فرض سـنة أعلنت سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتنين الدعوة الهادية . ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس ولاياته الأولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد،وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع . وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة،والانجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج عزماته . وتوفره على العبودية لمالك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظاهرا على العدا . ناصرا للهدى معليا معالم العلى . محييا مواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه مديما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة ناجحة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة.وسيرته حسنة وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة ° وسريرتهطاهرة ° وختم الله له بالسعادة،وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محوط . ووزره محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه بحفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة • والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال حالية . والأعمال راضية . والمصالح مصونة . والمناجح مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب مصدودة . واصول الدولة ثابتة . وفروع الدوحة نابتة . وماترك أمرا بعده غير مستقيم ولانهجا غير قويم ، ولاخاف لمن خلفه مايحتاج الى تقريبه وتقريره .ولاأبقى لمن بقي له مايفتقر الى ترتيبه وتدبيره . وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على اساس وصاياه . ولاأمضيت العوائد الا على قياس سجاياه ، ولاأبرم الا ماعقده ، ولاأحكم الا ماأكده . واقتفيت آثاره،

واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . وأتمرت في ائتمار الأوامر الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصرة . ومايفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من الفخار . وبعثه من آلائها الغزار . ونعشه برفعة من العثار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولايتسم بالملك الا من يتسامى بأنه لها مملوك . ولايوصل الى السعادة الأبدية الا مسلك الى رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالمماليك أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على الرعب • مغلول بقيد السلم عن الحرب • فان الله أجرى المشركين مع كثرتهم علي حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن علي الهدنة ، وهم لايؤمنون اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في

غرائزهم مفروز ، والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله في العزم متيقظ لمخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل مايفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في أموره . مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوته من ايدها وأياديها قوي بظهوره . مدل بما له من المواتت الأكيدة . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبوله . والذرائع الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصة بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وان فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول . عول على القاضي ضياء الدين في المثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله . والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالابلاغ ، وملية باشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه اليه . واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه . ولازالت ايادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق . موقوفا عزمه في الأعداء بافناء الآجال وفي الأولياء باجراء الارزاق . وماعقر في سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض مالكه بمثله . وزاده من فضله . وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد ، للحاضرين معه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر الف رأس من حصان وحجر • وأكديش طمر وذلك غير ماأطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال • ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه • وماحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده • فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعر في الجهاد اجتهادا ، وكان لايلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين المؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالأحكام الشرعية . والأسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الأخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . تقيا نقيا . وفيا صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولاصد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب آملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشتغلا بمهماته . فلما وصل سأله عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجوا والحوا . وضذوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم ذوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

مذقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن مذقذ يطالبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفري معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين.أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولاذكرها . واراه كأنه ماعرفها على ان صاحب الديوان ما انكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صفوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة آلاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضمار يقول:قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار.

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظركم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعنيت بهم خلقا مني ورسما فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت أفكر وأردد النظر اليه وأكرر فسألني ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلمي بقسمة اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا الفى توقيعا بخطي علم فيه . ولم يقف بذشره على سر مطاويه . الفا بما الفه من صحبتي ومناصحتي . وكفاء الملمات وكفاية المهمات بكفايتي . وكان يأمرني باجابة كتب الملوك واصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني مراده . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فاتي بمداناة الأغراض ومداواة الأعراض وموازنة الجواهر والأعراض . والتمييز بين اهل القبول واهل الأعراض . فكم اصلح قلمي بينه وبين من عاداه .وراض الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد . ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فاذكر حل الحلية . وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتي انجع . ومدد مدادي اذفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسلاح قلمي أجذ وأحد وافتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحال لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتب بعدها عنده الا من دواة الشبه . وتجنبت طرق الشبه وتركت المحلاة مخلاه . وعادت الشبهية مجتباه مجتناه . وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به من حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم . وكنت لملازمتي اياه يقدمني اماما في الصلوات . ومستشارا في المشورات . وكان يأخذ بالشرع ويعطي به . ويتذوق من حل المال وطيبه . ويجود بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود . فما تتجدد جدة الا ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجم مصغيا . ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبول لمنطق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف ولا يتطير ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم توكل على الله . واقبل على محكم امره واعرض عن مظان الاشتباه . فكم فل سفه ذي الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . ومازال ناصرا التوحيد . قاهرا جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سنى السنه . مستحليا جنى الجنه . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه . ويقصي اهل التشبيه . ويديم استفادة فقه الفقيه . واستزادة نباهة النبيه . ووجاهة الوجية . فالعادلون في عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

في برسعيه . والاسلام في حمـاية حميتـه . والدين في ادالة دولتـه . وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومـادة المودة له وافية بـوفائه . وقامت بعده طريرة طريه . ومـن العـار عريه ، وببر البـرية مـن الشائبات والشائنات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه . فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضـلها وظـاهرها. وفخـرت بمفاخرها . ورويت برواثهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها ، والسماء في زواهرها . والحمـد الله مجـري الاقـدار ومصـفي الاكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الايراد والاصـدار ، وسـلم تسليما كثيرا آمين

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

(١) مطموس بالاصل .
(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
(٣) مطموس بالاصل

(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
(٥) طمس بالاصل بثلاثة اسطر .
(٦) مطموس بالاصل .
(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لايعلم الان مكان وجودها ، سوى أنه سبق المرحوم المختار السوسي ان أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال اضاف لي لغة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وفيما وجد ابو شامة ـ صاحب الروضتين ـ. التعامل مع البرق الشامي أمرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل الكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك ـ انظر الروضتين : ٢ ، ٧٤ ـ ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

١ ـ الحيعلة : قولك حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، القاموس
٢ ـ الوخش : الردىء من كل شيء ، ورذال الناس ، القاموس .
٣ ـ كرثة الغم : اشتد عليه ، القاموس .
٤ ـ طفر : قفز ، القاموس
٥ ـ الد أماء : البحر ، القاموس .
٦ ـ النهيت : الزئير . القاموس .
٧ ـ سحابة دلوح : كثيرة الماء ، القاموس .
٨ ـ الريح تحركت فهي ذؤوج ، وللريح نئيج : اي مر سريع ، القاموس .
٩ ـ بلخ : تكبر ، القاموس .
١٠ ـ بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
١١ ـ في وادي الاردن قرب عقبة أفيق .
١٢ ـ الاوام : الدخان ، القاموس .
١٣ ـ السلت : القطع والاستئصال .
١٤ ـ ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
١٥ ـ البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
١٦ ـ يقق ، ابيض القاموس .
١٧ ـ طحرت العين : قذاها ، القاموس .
١٨ ـ اي تنعدم الاقوات فيها .
١٩ ـ الأمره : الابيض ، القاموس .
٢٠ ـ اي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
٢١ ـ حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
٢٢ ـ الأطعمة التفهة : ماليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
٢٣ ـ المدنر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
٢٤ ـ السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
٢٥ ـ الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
٢٦ ـ الحلاحل : السيد الشجاع ، القاموس .
٢٧ ـ الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
٢٨ ـ العنق سير فيه تبختر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
٢٩ ـ الأرى العسل ، القاموس .
٣٠ ـ لثق يومنا : ركت رمحة وكثر نداه ، القاموس .
٣١ ـ الأوام : العطش ، القاموس .
٣٢ ـ أمهى السمن والشراب : أكثر ماءه ، وامهى الحديدة : احدها وسقاها الماء ، القاموس .
٣٣ ـ انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
٣٤ ـ اللوب : العطش ، أو استدارة الحائم حول الماء وهو عطشان لايصل اليه ، القاموس .
٣٥ ـ أبهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

٣٦ ـ الضفو : السبوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .
٣٧ ـ رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ ـ السونيق : الصقر أو الشاهين ، القاموس .
٣٩ ـ تتفل : أزبد ، القاموس .
٤٠ ـ حدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .
٤١ ـ خظا لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ ـ باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ ـ كذا بالأصل وهو وهم فلعله أراد قوله تعالي « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ ـ الكنهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ ـ السني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ ـ اي الثغرية أو الحدوبية .
٤٧ ـ الغرب : النشاط والتمادي والحدة ، القاموس .
٤٨ ـ السنور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ ـ الدأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ ـ الجماء : الغفير، النهاية لابن الأثير .
٥١ ـ التأريث : الاغراء بين القوم وايقاد النار ، القاموس .
٥٢ ـ القونس : مايوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ ـ التامور : علقة القلب ودمه ، النهاية لابن الأثير .
٥٤ ـ الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ ـ حزا : خمن أوحزر وقدر ، القاموس .
٥٦ ـ ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ ـ المشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ ـ الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

المحتوى